ذكريات علي الطنطاوي وفن السيرة الذاتية

دراسة تحليلية

البحث الجامعي لنيل الشهادة الدكتوراه

الإعداد والتقديم

محمد ريحان

تحت إشراف

البروفيسور محمد أسلم الإصلاحي

مركز الدراسات العربية والإفريقية

مدرسة دراسات اللغة والأدب والثقافة

جامعة جواهرلعل نهرو

2017

مركز الدراسات العربية والأفريقية
Centre of Arabic and African Studies
School of Language, Literature and Culture Studies
Jawaharlal Nehru University, New Delhi-110067
जवाहरलाल नेहरु विश्वविद्यालय, नई दिल्ली-११००६७

July 20 / 2017

Declaration

I hereby declare that the research work in this Ph.D. Thesis entitled **"Zikrayat Ali Al-Tantawi" And the Art of Autobiography: An Analytical Study ("Zikrayat Ali Al-Tantawi" Wa Fann Al-seerah Al-Zatiyah: Dirasah Tehliliyah)** submitted by me is my original work and has not been previously submitted for any other degree to this University or elsewhere.

Mohd Raihan
(Research Scholar)

Prof. M.A. ISLAHI
Ex. Chairperson
Centre of Arabic & African Studies
School of Languages
JAWAHARLAL NEHRU UNIVERSITY
New Delhi - 110067

Prof. Mohd. Aslam Islahi
(Supervisor)

Prof. Rizwanur Rahman
(Chairperson)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لم تزل أرض الشام منذ بزوغ الإسلام في ربوعها مهدا للعلوم ومنبعا للمعارف ومركزا للفنون والآداب. وهي أرض مباركة قد أنجبت كبار العلماء والأدباء الذين تركوا أثرا هائلا للمكتبات الإسلامية وأثروا خزانة العلم والأدب. وفي طليعتهم الإمام ابن الصلاح والذهبي وابن خلكان وابن عساكر والإمام شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام ابن كثير والإمام النووي رحمهم الله جميعا. وهي الأرض التي ولدت من بطنها فحول الشعراء العباسيين وهم البحتري وأبو تمام وأبو العلاء المعري وغيرهم الكثير من العلماء والأفاضل. كما نجد في عصرنا هذا الأدباء الكبار من الشام لهم جهود جبارة وفضل مشكور وإسهام لا يستهان به في الأدب العربي من أمثال الصحفي الجليل والكاتب الكبير محمد كرد علي والأديب الألمعي سليم الجندي والأستاذ محمد المبارك والمحدث العظيم بدر الدين الحسني، وكان من هؤلاء الكواكب النيرة شيخنا علي الطنطاوي.

ترك علي الطنطاوي بصمات عريقة على أبواب الثقافة والأدب وعلى دروب العلم والفكر والفن، وهو عبقري من عباقرة البيان العربي الفصيح، ومن الطبقة الأولى من رواد البيان والكلام في العصر الحديث. إنه قد ولج باب الأدب ناضج الفكر، ومتسلحا بأدوات الفن والمعرفة متضلعا من الأدوات الفنية، ومن هنا قلما يوجد مثيله ونظيره في عصره.

فقد وقف لسانه وقلمه وأدبه للمبادئ الخلقية الإسلامية وبقى طوال حياته خادما للقرآن والسنة والأدب الإسلامي الرفيع، وكان من رواد مفكري الآداب الإسلامية فهو يعتبر مدرسة مستقلة في الأدب. فعنده فقه دقيق وعلم عميق وفكر عال وأدب رفيع وأسلوب رائع أخاذ لخدمة الإسلام والإنسانية والأدب الراقي. وكان أدب الطنطاوي أدبا هادفا إلى الإصلاح الاجتماعي والعودة من جديد إلى الدين الحنيف والسعي الحثيث لخلق الجو للأدب البنائي فكان غرضه الأصلي من الكتابة الدعوة إلى الله بقلمه ولسانه ومن خلال مقالاته وكتاباته الأدبية، فدحض الأفكار الفاسدة الهدامة والنزعات اللادينية التي تسربت إلى صفوف أبناء الأمة الإسلامية عن طريق الرواية والمسرحية والمقالة والصحافة والخطب والمجلات والأفلام والمسلسلات. فكان الشيخ من أبرز الدعاة الإسلاميين عن طريق الأدب الهادف السليم، وهو أحد مؤسسي رابطة الأدب الإسلامي العالمية بمكة المكرمة مع مشاركة الشيخ العلامة أبي الحسن الندوي.

وتحقيقا لهذا الهدف ألف الشيخ علي الطنطاوي كتبا ومقالات حول فنون الأدب المختلفة ومنها: المقالة، والقصة، والمسرحية، وأدب الأطفال، والسيرة الذاتية. ومعظم مؤلفاته ومقالاته في إطار إسلامي واسع مصطبغ مع اللون الأدبي الفريد والأسلوب الأخاذ. فجل مصنفاته في بداية الأمر كانت في صورة مقالات منشورة في الصحف والمجلات ثم جُمعت ورُتبت حسب المواضيع وطُبعت فيما بعد في صورة كتب مستقلة،

ومن يقرأ كتاباته ومهما كان موضوعاتها من التاريخ والأدب والنقد والفنون الأخرى يجد هذه السمة الإسلامية عامة، وأول باكورة أعماله كان باسم "رسائل الإصلاح" تم نشره سنة 1348هـ 1930م ومنذ ذلك الحين لم تنقطع صلته أبدا عن الكتابة والدراسة ولم يغب هو عن ساحة الأدب نشرا وتأليفا. ومن أهم مؤلفاته الأدبية والتاريخية سيرته الذاتية الشهيرة "ذكريات" التي طبعت مرارا ونفدت من السوق طبعاته في وقت قصير، وهذه السيرة الذاتية تقيم وتقدر بكونها سجلا أدبيا وفنيا.

ومن المعلوم أن السيرة الذاتية ليست حديثة العهد بل نجد معالمها وآثارها في أدبنا العربي القديم أما من حيث الفن والمصطلح والأصناف فهي حديثة العهد في الأدب العربي مثل بعض الفنون المستحدثة. ولكن هذا الفن فن قديم وترك العرب فيه أثرا ملموسا حتى يقال إنهم أوجدوا فن علم الرجال والطبقات في باب السير والتراجم. في البداية كتب المؤلفون سيرة الرسول والملوك والأمراء وفي هذا الباب أخص بالذكر "سيرة بن إسحاق"، و"سيرة بن هشام"، و"وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان"، وتراجم علماء الحديث وأصحاب علم الرجال، نجد أمثال هذه المصنفات والدوريات والمؤلفات القيمة في هذا المضمار منذ غابر الزمان. وبعد ردحة من الدهر اهتم الناس بكتابة حياتهم وتجاربهم، فالسيرة الذاتية للإمام الغزالي وابن حزم وابن رشد خير مثال على هذا القول. ولا ريب في أن الأدب الأوربي قد أحدث هذا الفن، فتأثر أدبنا العربي منه أي من هذا

الصنف للسيرة الذاتية خاصة. ومن أشهر السيرة الذاتية الحديثة في أدبنا العربي "الأيام" لطه حسين" و"سبعون" لميخائيل نعيمة، و"حياتي" لأحمد أمين و"أنا" لعباس محمود العقاد و"ذكريات" للشيخ علي الطنطاوي.

إن التعبير عن الذات شيئ طبعي يوجد لدى كل شخص وإنسان، فالإنسان حينما ينال خبرة وتجربة في مجال من مجالات الحياة فهو يريد أن يشارك الآخرين فيما يجد في نفسه من الخواطر والذكريات. ولو قصر في أداء حقوقه وواجباته تجاه الآخرين يريد التبرير والإعتذار خلال كتابة سيرته الذاتية. وإن أصيب شخص بمشكلة ونجا منها يريد أن لا يقع فيها شخص آخر، وكذلك إن كان لديه أحلام وتحققت هذه الأحلام بعد جد وكد ومثابرة فهو يريد أن يرشد الناس إلى الطريق المختصر للوصول إلى الفوز والنجاح. وإذا كان أديبا فهو يريد أن يخبر الناس بأحواله الذاتية وبكتبه النافعة، وما هو السبب وراء تأليف تلك الكتب أو ذلك؟. وإذا كان فيلسوفا يخبر الناس عن فلسفته الخاصة في مجال السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع، ويشارك مع الناس فيما عانى من المشاكل والعراقيل للوصول إلى النتائج الإيجابية في فلسفته الخاصة. وإذا كان سياسيا ينبأ الناس عن فوزه في الانتخابات وكيف وصل إلى مسدة الحكم وكيف كانت تجربته في مجال السياسة. فإذا وجد الإنسان هذا الإحساس يختمر في ذهنه وفكره فهو يدفعه إلى كتابة سيرته الذاتية.

وفيما يتعلق بالشيخ علي الطنطاوي فكان له تدوين الذكريات–السيرة الذاتية– حلما من أحلامه وأملا في قلبه ظل يقلقه ويراوده حتى أراد مرة ودعا الله أن تسنح له فرصة لكتابة الذكريات بدلا من كتابة المؤلفات والمقالات. وكم من مرة طاف بخاطره الخيال لتأليف ذكريات نصف قرن. ولِم لم يتخيل هذا؟ ولِم لا يكون هذا مع الطنطاوي؟ في حين إنه كان أديبا موهوبا وعالما موسوعيا لديه تجارب نافعة وخبرات واسعة. شاهد تقلبات الزمان وعاصر علماء عهده، وجالس الساسة والقادة والدعاة والأدباء. وكان شاهد عيان للقرن العشرين من بداية العهد إلى نهايته تقريبا، فقد عُمّر طويلا ومات وكان عمره تسعين سنة.

ولد فما كان في العالم العربي كله سيارة ولا قاطرة ولا طيارة ولا كهرباء. وقضى من عمره عصرا لا يكاد يسع للإنسان أن يعيش بدون هذه الرفاهيات. كان يعيش في بلده ويتردد إلى مدرسته والبلد كان للأتراك، ولم يلبث أن جاء إليه الفرنسيون المستعمرون والإنجليز معا، وسيطروا على الأوضاع والظروف وآل الأمر كله إلى أيديهم. وكان طفلا ذكيا صغيرا لا يدري من فلسفة وتاريخ الإسلام شيئا، ولم يمض على عمره إلا بضع سنوات حتى فشت وطمت العلمانية والشيوعية والديمقراطية. ومن الجدير بالذكر أن الشيخ مارس الصحافة منذ عنفوان شبابه إلى وفاته، وإنه درّس وتعلم وعلّم فكان معلما ناجحا مقبولا بين الطلاب وطاف البلاد العربية للتدريس والتعليم فدرّس في الشام والعراق

ولبنان والسعودية وترك آلافا من الطلاب والتلامذة والباحثين. فكان من أقدم المعلمين والإذاعيين، وكان لايزال يدرس ويعلم إلى أن تدرج إلى كرسي القضاء، وأصبح قاضيا فكان يحاكم جميع أنواع القضايا من السياسة والاقتصاد والاجتماع والدين والدنيا ويأتي إليه جميع ألوان المشاكل، وهو كان يحل العقد واللغز. فإلى أين يذهب الشيخ الطنطاوي بهذه التجارب والخبرات إذ لم يكتب الذكريات ويضع هذه كلها في صورة كتاب، كان يعرف جيدا بأن الكتاب وعاء يضع فيه الأديب والفيلسوف نتاجه ونظريته وتجاربه.أعتقد بكل ثقة أن هذه الأفكار والتجارب كانت تعذّبه وتقلقه وتدفعه إلى الكتابة ولكن كان يؤجل ويؤخر كما كان دأبه وعادته، ومرت السنون حتى وجد حافزا وداعيا إلى الكتابة في صورة الزهير الأيوبي الذي كان في سنة 1981م، وكان يريد أن يقنع الشيخ بنشر ذكرياته، فرضي وكتب سيرته الذاتية في ثماني مجلدات المشتملة على ألفين وخمس مئة صفحة، ونشرها في خمس سنوات متتالية في جريدة العربية الشهيرة "الشرق الأوسط" بداية من المجلة "المسلمون"، وهذا هو الكتاب أنا بصدد استعراضعه وتحليله.

لا ريب في أن الشيخ علي الطنطاوي كان خلاصة القرن العشرين، وكانت شخصيته شخصية موسوعية علمية أدبية، كان معلما مقبولا، وصحفيا عبقريا، وقاضيا ممتازا، وخطيبا كبيرا، تأسر القلوب وتصغي الآذان. يخرجك من إطارك الضيق إلى أطره الفسيحة ومن أفقك المزعج إلى آفاقه الواسعة، بما أنه كان صاحب أسلوب جديد

وصاحب فكر ثاقب وعلم غزير يتجلى هذه المزايا في معظم مؤلفاته ومقالاته. لو تقرأ كتبه الأدبية أو التاريخية أو الإسلامية لا يتركك الشيخ علي الطنطاوي بقلب جامد وبفكر يابس وحس هامد بل ينفخ في نفسك الحماسة والشعور ويملأ وعيك بالإيمان والاطمئنان ويعطيك غذاء علميا وأدبيا وفكريا.

وهذا الكتاب "ذكريات" علي الطنطاوي خلاصة كتبه وتجربة حياته العلمية والأدبية. ففيه صور وعواطف وخواطر وأحاسيس ونظريات وأفكار وعلوم وآداب وما إلى ذلك من موضوعاتها المتنوعة أدبية، فنية، علمية، دعوية، تربوية، خلقية، اجتماعية، سياسية، ثقافية. وكلما نقرأ "ذكريات" نجد أن الطنطاوي يضحكنا ويبكينا ويطربنا ويشجينا ويتركنا مع بسمات ودموع. فالطنطاوي يخطب ويحكي ويعلم وينصح ويحلل ويوازن وينقد الأدباء والشعراء والفلاسفة والكتب ويقدم القصص والحكايات والفكاهات والنكت والنوادر والأشعار. فنظرا إلى أهمية هذا الكتاب أي "ذكريات" اخترته للبحث وذلك للحصول على شهادة الدكتوراه.

في هذا الصدد أو الإشارة إلى أنني كنت مولعا منذ الصغر بكتب السير الذاتية للأعلام. فقرأت السير الذاتية للإمام الغزالي وابن خلدون وابن حزم، ومن العصر الحديث قرأت السير الذاتية لطه حسين وأحمد أمين وعباس محمود العقاد. ووجدت فيها متعة وتسلية وأدبا وفنا مع تجربة نافعة وخبرة واسعة. وبعد هذا كله حينما ذهبت إلى مشرفي

وناقشت معه العناوين المختلفة للبحث فإنه اقترح علي أن أختار موضوع "ذكريات علي الطنطاوي" وفن السيرة الذاتية: دراسة تحليلية".

وقد كتب الباحثون من العرب والعجم البحوث والدراسات والمقالات عن خدمات الشيخ علي الطنطاوي ومساهمته في مجال العلم والأدب والتاريخ وغيرها. ولكن أقول بكل صدق وصراحة أنني لم أجد أي باحث من الهند وخارجها قد اختار "ذكريات" للبحث والتحقيق وقدم دراسته من منظور فن السيرة الذاتية، وفي ضوء هذه الحقيقة اخترت هذا الموضوع. وقد قسمت أطروحتى هذه إلى خمسة أبواب وكل باب يشتمل على ثلاثة مباحث، إلا الباب الأول ففيه مبحثان وجيزان فقط وجعلت هذا الباب مدخلا إلى الموضوع، بالإضافة إلى هذا كله ثمة مقدمة وخاتمة.

فقدمت في الباب الأول مبحثان، المبحث الأول الذي هو تحت عنوان "نبذة عن الشام" تحدثت فيه الباحث عن تاريخ الشام القديم والحديث، ثم تناولت موضوع مناقب الشام وجغرافيتها الحديثة. أما المبحث الثاني فقد ذكرت فيه الأحوال العامة لبلاد الشام ومنها الاجتماعية والسياسية والثقافية.

وفي الباب الثاني ثلاثة مباحث، في المبحث الأول تناولت حياة الطنطاوي من ولادته ونشأته وثقافته وهوايته وعناصر تكوين شخصيته. وفيما يتعلق بالمبحث الثاني سلطت فيه الضوء على نشاطات علي الطنطاوي في معركة الحياة المختلفة في مجال

التدريس والصحافة والقضاء والراديو والتلفزيون مع إشارة مشاركة الطنطاوي في القضايا الوطنية. والمبحث الثالث يحيط بآثار الطنطاوي ومؤلفاته الأدبية، واستعرضت فيه الكتب الأدبية الشهيرة للطنطاوي وخاصة الكتب التي عناوينها كما يلي من "صور وخواطر" و"مع الناس" و"هتاف المجد"، وفي سياق هذا الاستعراض أبرزت قيمة آثاره الأدبية.

و في الباب الثالث المعنون بفن السيرة الذاتية في الأدب العربي ناقشت فن السيرة الذاتية وتاريخها في الأدب العربي، ففي المبحث الأول جئت بذكر فن السيرة الذاتية لغة ومصطلحا وفنا، مع بيان دوافع كتابة السيرة الذاتية وشروطها. أما المبحث الثاني فهو يتكلم عن نشأة السيرة الذاتية في الأدب العربي قديما وحديثا ثم يورد الباحث ذكر أصناف السيرة الذاتية كما قسمها الأدباء والكتاب إلى صنوف متعددة من التراجم الفلسفية والسياسية والأدبية والصوفية، ومن أقسامها الصنف الإخباري والتفسيري والروحي وصنف المغامرات، كما ينطوي البحث على أشكال السيرة الذاتية من المذكرات واليوميات والمفكرة. ويقدم المبحث الثالث استعراض مؤلفات الطنطاوي في مجال السيرة الذاتية بما فيه "من حديث النفس"، و"بغداد: ذكريات ومشاهدات"، و"صور من الشرق"، و"من نفحات الحرم" و"ذكريات".

قسمت هذا الباب الرابع إلى ثلاثة مباحث، فالمبحث الأول يشتمل على ذكرياته الاجتماعية، واستعرضت فيه ذكرياته لرقص الصوفي وعهد الفرنسي في دمشق، كما

يشتمل ذكرياته الاجتماعية على ذكر الهند وأندونيسيا وبلاد أوربا. والمبحث الثاني يسلط الضوء على ذكرياته في باب الثقافة فيتحدث عن ذكرياته لمكتب عنبر والتعليم ومجلة الفتح والزهراء والقضاء. وفي المبحث الثالث يخبرنا الشيخ الطنطاوي بذكرياته السياسية فيحكي حكاية انقسام الشام على يد الفرنسيين كما يشارك ذكرياته المريرة عن الحرب العالمية الأولى والثانية، وفي هذا المبحث ينقد الطنطاوي على الديمقراطية والشيوعية والاستمعار كما يتحدث عن قضية فلسطين وعلاقته بها.

أما الباب الخامس المعنون بذكريات من منظور السيرة الذاتية فهو يحتوى على ثلاثة مباحث، ففي المبحث الأول المعنون بـ"الأدب في ذكريات –تراجم العلماء والأدباء"، قمت بتحليل ومناقشة ذكريات الطنطاوي الأدبية العلمية، فأولا تحدثت عن "الأدب في ذكريات من منظور فن السيرة الذاتية" ثم ذكرت على سبيل المثال ذكريات الطنطاوي عن الأدباء والشعراء ونقده المحايد لهم مع ذكر الشعر والنقد والمعارك الأدبية. وأما المبحث الثاني فهو "الشيخ علي الطنطاوي حياته وتجاربه في ذكريات–الصنف الإخباري" تكلمت فيه عن تجارب الطنطاوي في مجال التعليم والصحافة والقضاء كما سجلت الوقائع والنصائح مع ذكر اعترافاته وصراحته في القول والعمل. وإن المبحث الأخير يدور حول موضوع الذكريات وأساليبها كما ألقيت الضوء بكل تفصيل على قصة كتابة "ذكريات" وموضوعها في أجزائها الثمانية، ثم ذكرت أسلوب الطنطاوي الأدبي والعلمي والوصفي،

وختمت الكلام بعد ذكر أقوال العلماء عن الطنطاوي وعن أهمية "ذكريات"، وفي نهاية المطاف قدمت خاتمة البحث.

وقبل الختام لا بد لي من أن أشكر الله جل ثناءه الذي أتاحني الفرصة لإنجاز هذا البحث العلمي، وبعد ذلك أتقدم بكلمات الشكر والامتنان إلى أستاذي البروفيسور محمد أسلم الإصلاحي الذي أرشد إلى كل ما هو مفيد ونافع في إكمال هذا البحث وقام بمراجعة البحث وتصحيحه وتحسينه. ولا يفوتني في هذا المكان ذكر أبي وأمي وهما أغلى مقتنياتي في الدنيا ولولا دعاؤهما الخالص وتشجيعهما على الدراسة لما يمكنني إكمال هذا البحث، فكيف أقدم آيات الشكر الجزيل والامتنان العظيم إليهما في حين الكلمات قاصرة عن التعبير والبيان، فأدعو لهما أن يطيل الله بقاءهما في الدنيا ويحفظهما من كل شر وسوء ومكروه. وبهذه المناسبة أقدم باقة الشكر وكلمات الامتنان إلى جميع أساتذة مركزنا أي الدراسات العربية والإفريقية بجامعتنا جواهر لال نهرو وغيرها. وكما أتقدم بوافر الشكر وبالغ الامتنان لجميع الأصدقاء والإخوان وخاصة محمد رضوان وسفيان وصبا وسلمى وسدرة وفرقان وكامران وفرحان فلولا محبتهم ومودتهم ومساعدتهم لما يمكنني تقديم هذه الأطروحة في الوقت المعين. وكيف أنسى ذكر زوجتي الحبيبة قد أتاحت لي هذه الفرصة وشجعتني على العمل وحثتني على الصبر والسلوان فالله يجزيها أجزل الجزاء وأحسن الثواب.

وفي الأخير أدعو الله تعالى أن يتقبل هذا العمل المتواضع ويجعله في كفة حسناتي يوم لا ينفع مال ولا بنون، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

محمد ريحان الندوي

جامعة جواهر لال نهرو

الباب الأول: أحوال الشام

المبحث الأول: نبذة عن الشام

المبحث الثاني: الأحوال العامة في الشام

الباب الأول: أحوال الشام

نبذة عن الشام:

يرجع تاريخ الشام إلى القرون الغابرة التي في حين لم تكن تعرف الإنسانية القراءة ولا الكتابة، أي قبل ثلاثة آلاف سنة أو سبعة آلاف سنة[1]، فتاريخها ليست مكتوبة في صفحات القرطاس ولا في الأحجار المنقوشة لم يحفظه المؤرخون القدامى إلا ظنا وتخمينا.[2] فهي أرض قديمة منذ قدم الإنسان ومنذ فتح الإنسان أعينها، وحضارتها قديمة بالية منذ شرعت الإنسانية تهذيبها وتحضرها. يصفها علي الطنطاوي فيقول: "دمشق (عاصمة الشام) أقدم مدن الأرض قدما، وأكبرها سنا، وأرسخها في الحضارة قدما، كانت مدينة عامرة قبل أن تولد بغداد والقاهرة وباريس ولندن، وقبل أن تنشأ الأهرام وينحت من الصخر وجه أبي الهول، وبقيت مدينة عامرة بعد ما مات أترابها واندثرت منهن الآثار... فأي مدينة جمع الله من جمال الفتوة، وجلال الشيخوخة كالذي جمع لدمشق"[3].

دمشق في عصر الطنطاوي كان جوها رائقا لطيفا بحيث لم يكن يحتاج الناس إلى مراوح في الصيف فضلا عن المكيفات، وكان الناس من أهل مملكة العربية السعودية

---

[1] الياقوت الحموي، معجم البلدان، الجزء الثاني ص 463-467.

[2] كرد علي، محمد، خطط الشام، الجزء الأول، ص 7-15.

[3] علي الطنطاوي، دمشق صور من جمالها وعبر من نضالها، ص 121.

وأهل العراق يقصدون إليها ويصطافون بها. وما عرف أهل دمشق الانتقال في الصيف إلى الجبال والمناطق الباردة إلا بعد ردحة من الدهر. يقول الشيخ علي الطنطاوي في "ذكريات" واصفا دمشق: "دمشق ما في الدنيا كلها من منظر من بستان وقفر وسهل وجبل وساقية ونهر ومسجد وقصر سوى البحر، لا ترى حول البلد بحرا إلا من الشجر والنبت والخضرة"[1].

مناقب الشام:

وللشام مناقب كثيرة وردت في الكتاب والسنة نرى من الأنسب أن نذكر بعضها في السطور التالية كما ورد في القرآن والسنة. وقد ذكرها أهل العلم في كتبهم التاريخية، فمن هذه المناقب والفضائل أن البركة وضعت في هذه القطعة المباركة من قبل الخالق جل ثناءه وثبت ذلك في القرآن المجيد يقول الله تعالى في سورة الإسراء: "سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير"[2]. والمسجد الأقصى في الشام، والمراد باركنا حوله هو أرض الشام عند جمهوري المفسرين. وفي هذا المسجد الأقصى قد قاد النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وصلى بجميع الأنبياء والرسل إماما ومصليا كما ورد في القرآن والسنة.

---

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، الجزء الأول، ص 134.

[2] القرآن المجيد، سورة الإسراء، الآية 1.

وقال تعالى في قصة سبأ "وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيروا فيها لياليِ وأيّاما آمنين"[1]. واتفق جمع من المفسرين الكرام أن المراد بـ"قرى ظاهرة" قرى الشام، فكانوا يسيرون من اليمن إلى الشام سالمين غانمين متواصلا. والقرى التي بورك فيها الشام، هي فلسطين، والأردن وقبل التقسيم كان الأردن وفلسطين جزءا لا يتجزأ للشام. ويقع جبل طور في هذه الأرض المباركة وكلم الله موسى تكليما على هذا الجبل الذي أقسم الله به في سورة التين فقال: "والتين والزيتون *وطور سينِين"[2]. والمراد بالبركة كما ذهب المفسرون بركة الدنيا يعني هذه البلدة المباركة ستتمتع بكثرة الرزق والثمار والأنهار والفواكه. كما قال بعضهم المراد منه بركة الدين ففيها مقر الأنبياء ومولدهم ومهبط الملائكة والوحي والمسجد الأقصى. وقد دعا النبي صلى اللهُ عليه وسلم ربه للشام بالبركة، فقال: "اللهم بارك لنا في شامنا"[3]. روى الترمذي[4] في سننه وأحمد في مسنده [5] من حديث معاوية ابن قرة، عن أبيه رضي الله عنه: أن النبِي صلى الله عليه وسلم قال: " إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم، لا تزال طائفة من أمتي منصورين، لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة".

---

[1] القرآن المجيد، سورة سبأ، الآية 18.

[2] القرآن المجيد، سورة التين، الآية 1-2.

[3] صحيح البخاري، الحديث، رقم 1037.

[4] سنن الترمذي، الحديث، رقم 2192.

[5] المسند أحمد، الحديث، رقم 15597،

وقال صاحب معجم البلدان في دمشق: "وهي جنة الأرض بلا خلاف لحسن عمارة ونضارة بقعة وكثرة فاكهة ونزاهة رقعة وكثرة مياه ووجود مآرب، وقيل سميت دمشق لأنهم دمشقوا في بنائها أي أسرعوا، وناقة دمشق: سريعة وناقة دمشقة اللحم: خفيفة". كما وصف الشاعر الشام بأنها يحب الشام في حالة اليسر والعسر بما أنه بلدة طيبة، جوها هادئ، ريحها نقية، مائها عذب، وأناسها كريم إذ يقول الشاعر:

أحب الشام في يسر وعسر وأبغض ما حييت بـلاد مصـر"[1]

وقال ابن الأثير:"أرض الشام إقليم عظيم الخيرات واسع البركات ذو بساتين وجنات ومتنزهات وفواكه مختلفة والفاكهة رخيصة واللحوم كثيرة إلا أنه كثير الأمطار والثلوج"[2].

ويقول الشيخ علي الطنطاوي عن دمشق واصفا "ولئن كانت مكة أم الإسلام، والمدينة الظئر التي أرضعته طفلا، فدمشق الحاضنة التي حضنته صبيا.. ولئن كانت الجزيرة دار العروبة، فالشام البستان الذي يطيف بالدار، والذخر الذي لا يفني لأهل الدار ولئن كانت المدينة عاصمة الدولة الإسلامية الأولى، فدمشق عاصمة الدولة الثانية"[3].

---

[1] الياقوت الحموي، معجم البلدان، الجزء الثاني ص 463-467.

[2] الشيباني، محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء الثالث، ص 244.

[3] علي الطنطاوي، ذكريات، الجزء الأول، ص 217.

وللشام جامع شهير واشتهر باسم الجامع الأموي[1] في دمشق وتولى بناءه وإتقانه، أمير المؤمنين والخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بن مروان، "إنه وجه ملك الروم بالقسطنطينية، يأمره أن يبعث له الصناع، فبعث إليه اثني عشر ألف صانع. وكان موضع المسجد كنيسة قديمة للروم. وقد زين هذا المسجد بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء[2]تخالطها أنواع الأصبغة الغريبة الحسن"[3]. وفي وسط المسجد قبر زكريا عليه السلام وقيل أن الجدار القبلي من هذا المسجد وضعه نبي الله هود عليه السلام، وفيه قبره أيضا[4]. وهذا المسجد شهير لمحافله العلمية ولمجالسه الفقهية والدينية، وإنه قلب دمشق، وكان الطنطاوي من تلاميذ هذا المسجد الشريف.

جغرافية الشام:

سورية اسم دولة إسلامية الواقعة في قلب الشرق الأوسط الكائن بغرب آسيا تمتد أرضها وفتحدها تركيا والعراق شمالا فلسطين والأردن جنوبا، ويجاورها لبنان غربا والمملكة السعودية شرقا مطلة على البحر الأبيض المتوسط. وهي إحدى بلاد الشام القديمة

---

[1] هذا مسجد شهير بناه الملك الأموي، الجامع بني أمية الكبير، يعرف باسم الجامع الأموي. لذلك اشتهر باسمه. ويحصى رابع أشهر المساجد الإسلامية.

[2] الفسيفساء : بلاط مصبوغ منقوش.

[3] صبري، عبد الفتاح، وعلي عمر، القراءة الرشيدة، الجزء الرابع، ص 159..

[4] نفس المصدر،44-45.

ودمشق عاصمتها وهي ولايات ومدن مختلفة ومنها دمشق وحلب وحمص واللاذقية والفرات والجزيرة وجبل الدروز وحوران وطرطوس والحسكة وإدلب والسويداء وما إلى ذلك الكثير من المدن والأمصار، ونسبة المسلمين فيها 87% ونسبة النصارى 10% بالمئة. وبعد ذلك هناك عدد غير قليل من الطبقة الشيعية من النصيرية والأسد الحاكم الحالي من هذه الأسرة.

والشام في طفولة علي الطنطاوي كانت مشتملة على لبنان وفلسطين وشرقي الأردن، تجري فيها أنهار وسواقي منها العاصي وبَردى والليطاني، ونهر الأردن، وفي أطراف الأردن الشمالية تقع فيها بحيرة المسماة طبرية ويقع بجنوبي دمشق هضبة حوران وفي شمالها الشرقي منطقة اللجأ وفي جنوبها الشرقي يقع جبل الدروز. ومنذ غابر الزمان الناس يزرعون هنا القمح والزيتون والتين والفواكه لذلك انتقل إليها الناس واندفعوا إلى هذه المنطقة في شكل هجرات كبيرة، لما فيها لبن وعسل[1]. وحدائقها الجميلة وبساتينها الكبيرة وأزهارها العطرة ومناظرها الخلابة وحقولها الخضراء تمتازها عن البلدان الأخرى العربية. وفيها غوطة أجمل جنة في العالم كما قال الأصمعي "جنان الدنيا ثلاث غوطة دمشق ونهر بلخ ونهر الأبلة"[2].

---

[1] شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات–الشام ص 9.

[2] الياقوت الحموي، معجم البلدان، الجزء الرابع، ص 468.

المبحث الثاني: الأحوال العامة في الشام

الحياة الاجتماعية في الشام:

قيل أن الأديب ابن بيئته أو بتعبير آخر الإنسان ابن معاشرته. فقد صدق من قال هذا الكلام. مما لا يختلف فيه اثنان أن للبيئة أثرا كبيرا في تكوين شخصية الإنسان، لأن الإنسان صاحب حس مرهف وشعور متيقظ يتأثر وجدانه وشعوره مما يرأى من أحوال وظروف، وما يشاهد ويسمع في المحافل والمجالس من أقوال وأفعال، فيتأثر بالمحيط الذي يعيشه ويعاصره وينفعل به ويحاول محاولة التأثير عليه، وقد ذكر علي الطنطاوي عن أثر البيئة كما يلي "وكذلك كل ما تسمعه، لا سيما إن سمعته في الصغر، أنه بذرة شر إذا جاءها الظرف المناسب، وضعتك على طريق الجنة أو على سبيل النار، فانتبهوا ياأيها القراء لما تنظرون فيه من كتب ومجلات وما تسمعون من إذاعات ومحاضرات، وما تشاهدونه من مسلسلات ومسرحيات، ولا تظنوا أن أثر ذلك يذهب مع إكمال الكتاب، أو انتهاء المحاضرة، أو إسدال الستار على المسرحية، بل إن بعضه يبقي ما بقي الحياة"[1]. بناء على ذلك ما كتبه الشيخ بنفسه عن أثر البيئة فتعالوا معي نرى ونشاهد بعض المشاهد لحياته ونشاطاته مع الإشارة السريعة للبيئة التي نشأ وتربى فيها والمجتمع الذي اجتمع فيه أديبنا علي الطنطاوي.

---

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، الجزء الأول، ص 74.

بلد الشام بلد قديم ولكن بعد ما فتح المسلمون هذه الديار، تحضر الناس بحضارة إسلامية واعتنقوا حياة اجتماعية صالحة فمأكلهم ومشربهم وملبسهم وموضتهم وحلهم وترحالهم وزواجهم وطلاقهم أفراحهم وأتراحهم كلها قد صبغت بصبغة إسلامية وخاصة منذ اتخذ الأمويون دمشق عاصمة لها ومقرا لخلافتهم الإسلامية، فأصبح دمشق مقرا ومناصا للأدباء والشعراء والعلماء والفقهاء، فالقرآن دستورهم، والإسلام مذهبهم، والنبي قائدهم وأسوتهم، فهذه البنيوية الأساسية تقوم عليها صرح مجتمع شامي منذ ما شاهده وعاصره علي الطنطاوي.

كان الشيخ الطنطاوي من الأناس القلائل الذين شهدوا أناسا بارزين ولقوا أشخاصا متميزين ووجدوا بيئة طيبة دينية. فكان الناس مواظبين على الصلوات والصوم فيها، وكان الجو السائد دمشق جوا نقيا طاهرا من كل خرافات من اللهو والمجون والسينما، كان الناس يستيقظون قبل صلوة الفجر ويصلونها صلاة الفجر وثم يشغلون أنفسهم بالتجارة والفلاحة والدراسة. ما كان لهم شغل لسهر الليالي إلا أن يكون هناك عرس أو مولد أو تلبيسة وهذا شيئ نادر آنذاك يقول الشيخ عن دمشق التي عرفها وهو صغير أنس: "وكنا نأخذ الماء منها قبيل الفجر لأنه يكون أنظف، ثم نصلي وكان أهل الحي جميعا يفيقون قبل الشمس، يصلون ويلبثون أيقاظا، لا تجد في الناس من كان ينام إلى ما بعد طلوع الشمس، لأنه لم يكن فيهم من كان يسهر إلى ما بعد العشاء، إلا عرس أو مولد أو

تلبيسة وهذا شيئ نادر..وأين يسهر من يريد سهرا أو لهوا؟ وما في البلد إلا سينما أنشأها الأتراك للدعاية الحربية كانت في موقع البرلمان، أخذونا إليها فأرونا (فلما) عن شنق قلعة أثناء الحرب الأولى"[1].

تقوم حياة أهل دمشق بوجه عام على الزراعة والتجارة والصناعة فمنذ قديم الزمان كان دخلهم من محاصيل الزراعة مثل القمح والزيتون والتين والفواكه أو من أدوات الصناعة مثل صناعات الأثاث من الخزف والمعادن والزجاج الملون والنسيج وظلت التجارة منتعشة رائجة إلى آخر الأيام وكانت دمشق بوابة كبرى لتجارات آسيا وأوربا[2]. وكانت التجارة والتسويق مبنيا على أسس أحكام الإسلام فكان الناس يفرقون بين الحلال والحرام، ولا يأخذون ربا مهما كانت الأحوال، يعطون الزكوة، ويحسنون إلى الفقراء والمساكين، يؤمنون بالآخرة ويرجون رحمة ربه، ويعاشرون فيما بينهم كالإخوان والأصدقاء ويعاملون معاملة الأجانب في أداء الواجبات والحقوق. فالمجتمع كان هادئا مصونا من كل سوء ومفسدة دنيوية من السرقة والنهب والرشوة وأكل مال اليتيم والضعيف. فالغني والفقير والكبير والصغير والنساء والأطفال كلهم كانوا في راحة وسلام. يقول الشيخ علي الطنطاوي في هذا الخصوص "وكان الناس يفرقون بين الحلال والحرام،

---

[1] علي الطنطاوي، دمشق صور من جمالها وعبر من نضالها، الطبعة الثانية 124.

[2] تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات–الشام، شوقي ضيف، ص 6.

وإن توقفوا سألوا العلماء، ولم يكن التجارة يأخذون ربا ولا يعطونه ولا يمنون زكاة ولا يبخلون بإحسان، فكان الفقراء في راحة، والأغنياء في سلام[1]".

أود أن ألخص في هذا المكان بعض ملامح الأحياء التي قرأتها من كتاب "دمشق صور من جمالها وعبر من نضالها" للشيخ علي الطنطاوي لكي أقدم إطلالة سريعة على المجتمع الذي عاشه الشيخ علي الطنطاوي. نحب قوله في دمشق البيت مركز يدور حوله رحى المجتمع الشامي، فكان الناس يسكنون في دار مستورة لا يرى من فيها أحدا، ولا يراهم أحد من الخارج. ما كانت النوافذ ولا الشرفات في المنازل. والناس كانوا يجتمعون في أسرة واحدة فيها الأب والأم والجدة والجدة والعم والعمة كانوا يعيشون معا عيش الصفاء والإخاء. وكلهم كانوا يأكلون في قدر واحدة على مائدة واحدة ممدودة، ولكل أسرة كبير وسيد يبجلونه ويحترمونه حتى إذا اجتمعوا حوله قعدوا صغارهم متأدبين خاشعة أصواتهم لايخالفون أمره وينفذون أمره ويطيعونه في لمح البصر لا يبدؤون بحديث إلا بطلب مع تسامح ومحبة، ويعد هذا من باب الأدب والأخلاق أن الصغار لا يتكلمون في مجالس الكبار. فبجملة القول كأن السيد حاكم البيت ومدبر المنزل في جميع الشؤون الحياتية للأسرة. وقد انعكس هذ التسامح والمودة والإخاء في حياة عامة الناس

[1] علي الطنطاوي، دمشق صور من جمالها وعبر من نضالها، ص 123-125.

وخاصتهم فكان الخير والصلاح كثيرا في المجتمع الذي يرى النور فيه شيخنا علي الطنطاوي[1].

والمجتمع السوري في عهد الطفولة للطنطاوي كان بعيدا عن عالم الغناء والتمثيل والرقص، لم يكن في دمشق من المغنيات المحترفات والراقصات العاريات في النوادي إلا ثلاث يهوديات، فكان الأغنياء والمترفون من غير أصحاب الدين يطلبون منهن الرقص والغناء، فكن يأتين إلى بيوتهم ليغنين في أعراسهم وأفراحهم، أما عند عامة الناس فكانوا يعتقدون الغناء إثما وقبحا وكان الرقص أفظع وأشد منه، ولم يكن يتصور في أسر دمشق أن الفتاة تشتغل بالغناء فضلا عن الرقص ولو فعلت فإن أباها يذبحها أو يضربها بالبندقية مما كان من أشد الحياء وخوفا من الفضيحة. وكانت النساء لا يخرجن إلا باللباس الطويل محجبات بالحبرة، وكان الحبرة عامة،[2] وإن النساء النصرانيات كن يلبسن الملاءة بلا منديل، فكان الفارق الأساسي بين المسلمة والنصرانية أن الوجه منهن مكشوف. وكانت البنت تنكح في الخامسة عشر أو السادسة عشر والشباب يرتب الزواج في السابع عشرة أو الثامن عشرة فلا يبلغ من عمره الثالثة والعشرين حتى أصبح مستقلا

---

[1] نفس المصدر ، ص 123-125.

[2] ثوب أسود من الحرير تلبسه النساء الشرقيات خارج منازلهن.

بتجارته أو بعمله، وصار له أولاد وعائلة، ولم يعد كلا لأبيه بل صار مساعدا ويدا لأبيه وأمه[1].

عاش الشيخ طفولته في عصر ما كانت الكهرباء للنور ولا السيارة للسير ولا الطائرة للسفر ولا الجوال للحوار وما كانت السينما للتسلية وما كان الراديو للخبر، وكانت حياتهم ساذجة سهلة وكان الناس عاديا في الطعام والشراب والحوار، يقدم الشيخ طريفة مضحكة عن السيارة. أن السيارة حينما وصلت إلى الشام لأول مرة سنة 1916م[2] فخرج الناس يشهدونها وينظرون إليها، فلما رأوها تمشي وحدها بدون حصان ولابغال، قال قائل منهم: إن الجن تسيرها وتقودها كيف يمكن للماكينة–السيارة– أن تمشي ولا يسحبها حصان ولا بغال، فتدافع ضعاف القلوب هاربين من الساحة، وهرب الشيخ علي الطنطاوي مع أترابه الصغار حتى ضاعت حقيبة كتبه في هذه الوقعة ونال أخيرا هذا الجزاء من هذه الوقعة العجيبة المدهشة[3].

---

[1] دمشق صور من جمالها وعبر من نضالها، علي الطنطاوي، ص 125.

[2] علي الطنطاوي، ذكريات، الجزء الأول، 35.

[3] نفس المصدر، الجزء الأول، 35.

الحياة السياسية في الشام:

كما للمجتمع أثر على شخصية إنسان في عقله وشعوره وكذلك للسياسة تؤثر في فكر الإنسان وفنه وأدبه، ومن هنا نرى أثرا بالغا للسياسة في جميع مجالات حياة علي الطنطاوي ومنها ومقالاته وأحاديثه الإذاعية وخطباته على المنابر. وكان لها صدى كبيرا وأثرا واضحا طوال حياته، فمن يقرأ ويدرس آثاره يجد انعكاسات السياسية جليا للسياسة عليها واضحا جليا.

حينما فتح الشيخ علي الطنطاوي أعينه وجد السلاطين العثمانيين[1] حاكمين على بلده مسيطرين عليه، وبعد ثورة عنيفة جاءت حكومة فيصل وانهار حكومته في مدة قليلة، وكان في ذلك الحين علي الطنطاوي في الصف الخامس وما لبث أن جاء حكم المستعمرين الفرنسيين[2] فأعادوه إلى الصف الرابع في حكمهم، فشاهد الإنقلابات والثورات والاضطرابات السياسية الهائلة والفوضوية الحكومية الكبرى[3]، وننقل فيما يلي حديثه عنها "ذلك أننا شهدنا في سنتين اثنتين مولد انقلابين، وموت حكومتين، أدركنا عهد الترك

---

[1] نسبة إلى ملوك العثمانيين، الدولة العثمانية كانت ثالثة الدولتين العظيمتين: الأموية والعباسية.

[2] Tibi, Bassam, Arab Nationalism; A critical Enquiry, p 88-95.

[3] Ibid, p 100.

ورأينا ذهاب الترك، وعشنا في حكم فيصل[1]، فكانوا كلما جدت حكومة ونحن في الصف الخامس أعادونا إلى الصف الرابع، فلم نستقر في الصف الخامس إلا سنة 1921م، على عهد الفرنسيين وقد كنا فيه 1918م على أيام العثمانيين"[2].

فنرى حياة علي الطنطاوي مليئة بالأحداث والتغيرات والثورة بعد الثورات، فشاهد عهد الأتراك، وعهد الشريف فيصل، وعهد المستعمرين الفرنسيين. ثم شاهد الاستقلال، وعهد الوحدة وعهد الانتداب، ولكل عهد هموم وغموم ولكل حكم مآس وأهوال حتى تغير الأرض غير الأرض وتبدلت الأحوال من حسن إلى سيئ ومن سيئ إلى أسوء وأفظع من حيث السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة، حتى ذاق أهل الشام وبال الحرب العالمية الأولى. وكان الشيخ علي الطنطاوي طفلا صغيرا حينذاك في المدارس الابتدائية ولكن ما شاهد من المشاهد المروعة لم يعد ينساها مهما كبر سنه ومهما بلغ من عمره الثمانين. وفقدت الأشياء من السوق من عدس وخبز ورز، فالناس يموتون جوعا وفقرا حتى بدأ الناس يأكلون من أكوام وذبالة، وساد الفساد والخراب وعم البلاء والبؤس والظلم على الناس من أناس جاءوا لكبح الظلم التركي وبسط الأمن والسلام.

---

[1] هو فيصل الأول بن علي الحسني الهاشمي، الملقب بأبي غازي، 1300–1352هـ. ملك العراق، كان من أشهر ساسة العرب في العصر الراهن.

[2] علي الطنطاوي، دمشق صور من جمالها وعبر من نضالها، ص 140.

وننقل هنا ما رواه الشيخ الطنطاوي عن الحرب العالمية الأولى من ذكرياته الكريهة فهو يقول متأسفا: "ثم رأينا الناس ينبشون أكوام القمامة لعلهم يجدون فيها من بقايا طعام.. وعز السكر حتى صارت الأوقية (200غرام) بريال مجيدي، وقد كان المجيدي قبل الحرب يكفي لوليمة ضخمة..وقل الكاز وفقدت أشياء كثيرة مما كنا نستورده، كانت أيام شداد"[1].

لو تصفحنا أوراق التاريخ لوجدنا أن أرض الشام كانت أرضا الرخاء والعطاء أرض مخصبة خضراء، بلاد الخيرات والبركات، بلاد الأثمار والحبوب، بلاد الفواكه والزهور. تولى أمرها المسلمون بعد فتح هذا البلد المبارك على يد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في عصر الخلافة الفاروقية عمر بن الخطاب[2] رضي الله تعالى عنه على يد قائده العظيم أبي عبيدة بن[3] الجراح بالاشتراك مع خالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة فدخلوها من أبوابها الأربعة عنوة في عام 14هـ.[4] وحينما انتقلت الخلافة الإسلامية إلى سلالة الأموية اتخذها معاوية رضي الله تعالى عنه

---

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، الطبعة الثالثة، الجزء الأول، ص 139.

[2] هو ثاني خلفاء الراشدين، الملقب بالفاروق، تولى الخلافة 13من الهجرة النبوية، وفي عصره وخلافته فتح المسلمون الشام.

[3] هو صحابي جليل، وقائد وبطل عظيم فتح الشام بقيادته لقب بأمين الأمة. توفي بسبب الطاعون سنة 18هـ639م.

[4] كرد علي، محمد، خطط الشام، الجزء الأول، 82-85.

عاصمة لدولته ومقرا لخلافته، فعمّروها وزيّنوها خلفاؤها فبنى بها الوليد بن عبد الملك جامعها المشهور في العالم المعروف بالجامع الأموي عام 88هـ. وما مضت إلا سنون إلا أصبحت المملكة الأموية الإسلامية أرقى الدولة الإسلامية تحت أديم السماء وصارت الشام من أزهى المدن العالمية ثقافة وحضارة سياسة وتجارة رفاهية وسلامة. ثم لما انتقلت الخلافة إلى خلفاء العباسين وجعلوا بغداد مقرا لدولتهم ومركزا لشئوونهم الإدارية فذهب رونق دمشق وبهاءها وعادت جميع مزاياها إلى بغداد. ثم شهدت دمشق عصر الفاطميين والأيوبيين والمماليك وأخيرا عصر العثمانيين. فذاقت الشام من حلاوة ومرارة وقضت أيامها في يسر وعسر في هذه العصور الماضية، وعاش أهلها في رخاء وهناء بالغ طوال العصر الأموي ولم يبلغه هذا الإقليم بعده في أي عصر من عصوره. حتى سقطت دمشق في أيدي المستعمرين في أوائل القرن العشرين بعدم دهاء المسلمين بعد ما عانوا من المشاكل والشدائد من بعض حكام الأتراك الآخرين.

لاغرو في أن الشام بلدة عتيقة مباركة ولها تاريخ عظيم حافل بالمفاخر والمآثر لو خضت في هذا البحر الزاخر التاريخي لضاق بنا المقام ولضاق بنا الوقت، ولا يسمح لنا البحث لأنني لست بصدد التاريخ وأحواله بخفاياه وغموضه، وإن المؤلفات التاريخية ستغني من جوع لمن يريد المعرفة للمزيد فليراجع أمهات الكتب التاريخية من أمثال التاريخ الطبري والكامل لابن الأثير وفتوح البلدان فلا أتعرض لذلك ولا أريد الإطالة في

الكلام والتفصيل عن هذا الموضوع ولست الآن بصدده بل أريد النظرة العابرة عن العصر الذي عاصره الشيخ علي الطنطاوي وما شاهده من التقلبات السياسية والثورات العربية.

تولى زمام القيادة والسيادة السلطان عبد الحميد وارتقى إلى عرش الخلافة العثمانية سنة 1876م، وحكم البلاد بما فيها الشام إلى سنة 1908م،[1] وولد الشيخ الطنطاوي بعد سنة واحدة عام 1909م فأحس الشعب أن عبد الحميد قد أبلغ على الرعية من الظلم والبطش والزيادة في الضرائب فثار الشعب بالحاكم الظالم المستبد ضد قهره بطشه، فهاج الشبان الأحرار وتحركوا وماجوا ثم تم عزل السلطان عبد الحميد وآل الأمر إلى أخيه رشاد (محمد الخامس) فالسلطان رشاد وكان رجلا كريما أعاد الدستور العثماني من جديد وافتتح البرلمان من جديد فرحب الشام هذه الخطوات الحسنة التي انتزعت لأهل الشام عهدا جديدا.

يقول كامل السوافيري: "في الرابع والعشرين من تموز سنة 1908م، صدر الدستور العثماني وابتهج العرب في الولايات العربية الخاضعة للحكومة العثمانية بصدروه وغمرت البهجة قلوبهم في الشام والعراق وراعب الأمل خيالهم إثر صدوره في أن يحقق آمالهم وتستجيب الدولة لرغباتهم ومطالبهم في الحصول على الاستقلال الذاتي في بلادهم ضمن إطار الدولة. وجعل اللغة العربية اللغة الرسمية في الدوائر الحكومية ولغة

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، الجزء الأول، ص 39.

التدريس في الحكومة واختيار الولاة والقضاة الذين يتولون وظائفهم في الأقطار العربية من العرب"[1].

وعندما سمع هذا الخبر العامة والخاصة من الناس فرحوا فرحا شديدا لِما أعاد إليهم الحياة والنشاط والوظيفة وجعل اللغة العربية اللغة الرسمية ولغة التدريس. والأستاذ خليل السكاكيني كان في أمريكا في تلك الأيام فسر وابتهج سرورا بالغا حينما سمع هذا الخبر السار وعبر عن فرحه البالغ لما كان يريد أن يفتح المدراس والمجامع لتربية الجيل الجديد "الآن استطيع أن أنشئ مدرسة وجريدة جمعيات للشبان، الآن نستطيع أن نرفع أصواتنا بدون حرج ينعم بالك ياسورية صبرت فنلت مبتغاك"[2].

من الأسف الشديد هذه الراحة والسعادة لم تبق إلا أياما معدودة ومدة قليلة لأن الشبان الأتراك جعلوا يصبغون جميع الأمور الإدارية بصبغة الدولة العثمانية القديمة ويسعون التتريك للعرب، فزلزل كيان البلدان الإسلامية مرة أخرى فألغيت المجامع والمنظمات العربية بأيدي هؤلاء الشبان الأشرار سوى الجمعيات والمنظمات التركية، فهاجت واشتعلت نار الثورة المكنونة في صدور العرب ضد الحكومة العثمانية الجديدة فبدأوا يتقاضون ويطالبون مطالبة شديدة لحريتهم واستقلالهم واحترام لغتهم وقوميتهم ولكن

---

[1] كامل السوافيري، الأدب العربي المعاصر في فلسطين، ص 43.

[2] نفس المصدر ، ص 44.

الأتراك لم يبالوا بهذه المطالبات، فلما وجد العرب أنفسهم في مأزق وحرج ولا سبيل إلى النجاة من القيود والأغلال التركية إلا العون والمدد من القوات الأوربية وبالجهود المضنية والتضحيات العظيمة لنيل الحرية والاستقلال ففتح الشاميون أبوابها بمصراعيها للقوات الفرنسية ولقوات الإنجلترا.

مهما كانت الظروف من الظلم والاضطهاد والهمجية ومهما كانت الأحوال من الانحطاط والتخلف الفكري والمادي من جانب الأتراك على أهل الشام خاصة وعلى البلدان الإسلامية عامة، فكانت المسؤولية على المنظمات والحركات الإسلامية أن تقوم بإصلاح فكري تربوي سياسي للدولة العثمانية لا أن تضع أيديها على الأيدي الكفرة المستعمرين وتجعل نفسها أداة لإزالة حكم الله وخلافته –ولو كان مع نقص وشطط– في ديار الشام والبلاد الإسلامية فالخلل قد لحق وطرأت بالفروع ليست بالأصول.

الآن أنا أقف قليلا مع الشيخ الطنطاوي هو يذكر أن الأتراك لو كانوا ظالمين غاشمين ولكنهم كانوا يهتمون بأمور الإسلام والمسلمين، وأن الدستور القرآني والعقيدة الإسلامية كانت مصدرا وحيدا للتشريع والقانون. والخلافة العثمانية ما كانت على المستوى المطلوب. ولكن كان هناك الثورة العربية ضد الدولة العثمانية مبنية على أساس

فكرة القومية العربية، وكان هناك انحدار من الهوية الإسلامية إلى الهوية العربية، فأصبح العرب في ورطة وأصبحوا لعبة على أيدى الآخرين الإنجليز[1].

فكان الواجب على الصلحاء والدعاة أن يصلحوا ما أفسده الناس من الحكام والأمراء. والحكام والسلاطين للدولة العثمانية كانوا من خيار الناس صالحين مؤمنين ولكن السلالة والجيل الجديد ما بعدهم كانوا أشرارا فاسقين كما قال تعالى "فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلوة واتبعو الشهوات"[2]. حيث يقول الأستاذ علي الطنطاوي "وكان ملوكها الأولون من خيار الحاكمين في تاريخ الإسلام قاموا بالإسلام وعملوا للإسلام فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وتركوا دعوة الإسلام لدعوات ما أنزل الله بها من سلطان، فضاعوا وأضاعونا معهم"[3].

ويذكر الشيخ علي الطنطاوي معاملة الإحسان والخير مع الفقراء والبائسين الشاميين من قبل الأتراك إبان الحرب العالمية الأولى فيقول:"ولكن الأتراك مسلمون، وإن كان حكامنا وحكامهم يومئذ من الاتحاديين أعداء العربية، وكدت أقول أعداء الدين، فقد

---

[1] Said Aly, Abdel Monem, and Feldman, Shai, and others, Arabs Israel-conflict and peacemaking in the middle east, p21.

[2] القرآن الكريم، سورة مريم، الآية 59.

[3] علي الطنطاوي: ذكريات، الجزء الخامس، ص 201.

عز عليهم أن يجوع علماء المسلمين، فخصصو لهم جرايات من القمح، تسد حاجة بطونهم، وتصون ماء وجوههم"[1].

ويمضى قائلا مادحا للمشروع الخيري للأتراك. "وأول شارع فتح في دمشق هو شارع جمال باشا من رأس سوق الحميدية إلى محطة الحجاز، التي يبدأ منها خط القطار، وينتهي عند محطة باب العنبرية في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم...وهو من آثار السلطان المفتري عليه، الذي شوه اليهود صورته السلطان عبد الحميد انتهى مدته سنة 1908م قبل مولدي بسنة وخربناه نحن، نحن العرب، بأيدينا لورنس وجماعته سنة 1918م"[2].

هذا، ولكن حينما نتصفح كتب كبار الكتاب العرب المؤرخين فإنهم يذكرون الفساد والدمار والقتل والنهب من أيدي الأتراك على الشاميين والعرب متأثرين بأفكار مفسدي الغرب والمستعمرين ويكاد ينسون أو يتناسون هذه الحقيقة الناصعة أن العرب لو قاموا بإصلاح أعمال الأتراك وأخلاقهم ويقومون بتربيتهم الإسلامية وتزكية نفوسهم لما رأوا من انقسام الشام إلى دويلات صغيرة ولما شاهدوا مشاهد المفسدة والمجزرة للمسلمين في البلدان الإسلامية ما بعد الأتراك على أيدي المستعمرين الغاشمين، ولكنهم بدأوا يفهمون

---

[1] نفس المصدر ص 39-40.

[2] علي الطنطاوي، ذكريات، الجزء الأول، ص35.

هذا الأمر مستحيلا فرأوا أمرا ما كادوا يظنون ويعتقدون. نقرأ العبارة الآتية لإثبات هذا القول. يقول الأستاذ الدكتور أحمد الشرباصي: "لقد استولت الدولة العثمانية على الشام في القرن السادس عشر وساسته مع بقية البلاد العربية التي سيطرت عليها سياسته متعصبة فشددت على الأقليات وحرمتها الكثير من حقوقها وانتقل استعمال الشدة من الأقليات إلى الجميع حتى قال بعض الباحثين: ظلت مصر وبلاد العرب ثلاثة قرون تحت حكم الأتراك وهي ظلام دامس وجهل فاضح، تعانى مرارة الظلم وقسوة البغي. قلب ما شئت من أوراق التاريخ فلن ترى إلا صفحات سوداء قاتمة تنبعث منها روائح الاستبداد والبطش وستسمع صراخ المظلومين يصم الآذان وتلمح دماء الفلاحين في كل صقع تسيل تحت سياط الجباة وتتمثل لك بلاد العروبة تخنقها يد غاشمة أصابها الفقر والمرض والجهل والذلة والانحلال"[1].

وإضافة إلى ذلك يقول الدكتور شوقي ضيف أن الأحوال والظروف كانت سيئة للغاية وما كان الهدوء والاستقرار والأمن والسلام طوال عهد العثماني فذاقوا وبال أمرهم الشاميون والعرب فهو يقول: "وكانت الأحوال الاقتصادية في الشام تتردى من سيئ إلى أسوأ طوال الحكم العثماني وظل كابوسه جاثما على صدر البلاد طوال القرن التاسع عشر الميلادي بل طوال شطر كبير من العصر الحديث...وظلموا-العثمانيون- الناس

[1] شكيب أرسلان، أحمد الشرباصي، ص 30.

أشد ظلم، بل نهبوهم وابتزوا أموالهم أسوأ ابتزاز..كما عمت الفوضى الإدارية، وكلما تقدمنا دورة زمنية مع الحكم العثماني ازدادت الشام انتكاسا وفسادا وظل ذلك سائدا طوال زمن العثمانيين حتى القرن التاسع عشر بل حتى نهاية حكمهم"[1].

وبعد طلب المساعدة من الحلفاء جاءت القوات الفرنسية ومزقت قوات فيصل بعد مقاومة خفيفة التي كانت مستعدة لمقابلة القوات الفرنسية في ميسون بالمنطقة الجبلية الجنوبية للبنان[2]. ثم نرى دخول القوات الفرنسية في دمشق وفر الأمير فيصل. يذكر الأستاذ محمد كرد علي في شأن هذا الأمير الذي ارتقى إلى كرسي الولاية لسورية قريبا ولم يبق ملكه وسلطانه هناك سوى بضعة أشهر وفر هو وجنوده معا سنة 1916م[3]. والشام كانت في أبشع حالة من حيث الاقتصاد والسياسة والاجتماع فأسست فرنسا بعض المعاهد والمؤسسات التعلمية وجعلت تفرنس أهل الشام وقامت بإصلاح الشوارع والطرق لتلافي الفوضى والخراب، ولكن أهل الشام مازالوا يناضلون ويقاتلون ويقاومون ضد هذا الاستعمار الفرنسي منذ دخوله وحضوره في بلده الحبيب.

---

[1] شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي في الشام، ص 36-45.

[2] Said Aly, Abdel Monem, and Feldman, Shai, and others, Arabs Israel-conflict and peacemaking in the middle east, p31-32.

[3] كرد علي، محمد، خطط الشام، الجزء الثالث ص219.

ولكن ما شاهد العرب أنفسهم في مرح وسرور بعد ما أصبحوا لعبة ودمية على أيدى النصارى والمستعمرين واغتروا وانخدعوا بمكائد المستعمرين ودسائسهم وتقبلوا واستجابوا عونا من الانجليز وفرنسا على الدولة العثمانية، فقامت على ذلك معاهدة الشريف حسين مكماهون مع الحلفاء إنجلترا وفرنسا في الخامس من يونيه سنة 1916م، كان ظاهرها رحمة وباطنها شقاء وعذاب وخداع. فقامت هذه الثورة انتفاضة عربية خالصة تفانى القائمون بها في أداء واجباتهم وتضحياتهم تجاه بلدهم بأحسن طريق ففازوا بطرد الأتراك من شبه الجزيرة العربية، وتعانوا في تخليص أرض الشام من الأتراك العثمانيين مع اشتراك الحلفاء من فرنسا وإنجلترا، فقتل وجرح ومات آلاف من الناس في هذه الثورة حتى ذهب ضحيتها ثلاثمأة ألف نسمة.

وهذه الاتفاقية لعبت دورها في تحقيق أطماع فرنسا في سوريا ولبنان، وأطماع إنجلترا في فلسطين والعراق. ولم يلبث اللنبي أن يعمل في تنفيذ معاهدة سايكس بيكو من الناحية العملية، فقسم سورية إلى مناطق ثلاث جعل القسم الشرقي من سورية للجيوش العربية وأما المنطقة الغربية فاحتله الفرنسيون، بينما احتل الانجلترا فلسطين، وهذا ما أراد الحلفاء –انجلترا وفرنسا– من مساعدة العرب ضد الدولة العثمانية. فكيف جعل هؤلاء الحلفاء دولتهم حلما ضائعا وجعلوا جو المنطقة وأوضاعها سيئة للغاية من الثقافة والحضارة والاقتصاد والسياسة فوق ما يوصف، ما شاهده الزمان من الأحوال القاسية

والظروف الحرجة. ولم تنج سوريا من ورطة حتى وقعت في براثن الاستعمار الفرنسيين فلم تهدأ الأحوال السياسية حتى دفنته في ميسلون سنة 1920م. وكان الصراع والنضال مستمرا بين سوريا وفرنسا حتى تم الجلاء للقوات الفرنسية من سوريا سنة 1846م.[1] وكانت مجموعة هذه البلاد الإسلامية من سورية ولبنان وفلسطين والأردن يقال لها الشام قبل الحرب العالمية الأولى، ولكن تشتت وانقسمت هذه البلدان إلى دويلات صغيرة ومناطق قصيرة بعد الحرب العالمية الأولى وبعد دسيسة ومؤامرة من أهلها وخارجها ومن سوء تجربة العرب في مجال السياسية فاغتروا وانخدعوا على يد الأوربيين الغاشمين.

فنرى أثر هذه التقلبات المستمرة في البلدان الإسلامية والثورات العربية الفلسطينية ضد اليهود الغاشمين في كتابات على الطنطاوي ومقالاته. وانعكست صور هذه التغيرات والتحولات على أدبه بالتأييد مرة والرفض أخرى.

الحياة الثقافية في الشام:

لا ريب فيه أن الحضارة والثقافة تلعب دورا رياديا في بناء أي شخص في المجتمع الإنساني، فمهما تكن الثقافة من الأدب والشعر في المجتمع تلمح وتنعكس صورتها جليا وأثرا بارزا في آثار شخص وكتاباته وأدبه ونقده، والثقافة من أهم مكونات الشخصية الفردية. لا يختلف فيه اثنان أن النشاطات التعلمية والأدبية المتواجدة في المجتمع تترك

[1] أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، الجزء الخامس، 517-519.

أثرا خالدا في ذهن الأطفال والطلاب الصغار والكبار. فنشاهد في السطور الآتية محيط الشيخ علي الطنطاوي لأنه ترك أثرا خالدا في أدبه وفنه من القصة والمقالة والخطبة.

وقد كانت أرض الشام منذ بزوغ الإسلام في ربوعها لم تزل معهدا للعلم ومنبعا للمعارف ومركزا للفنون والآداب. وهي أرض مباركة قد أنجبت كبار العلماء والأدباء الذين تركوا أثرا هائلا في المكتبات الإسلامية وأثروا خزانة العلم والأدب. وفي طليعتهم الإمام ابن الصلاح والذهبي وابن خلكان وابن عساكر والإمام شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام ابن كثير والإمام النووي رحمهم الله جميعا. وهي الأرض التي ولدت من بطنها فحول الشعراء العباسيين وهم البحتري وأبو تمام وأبو العلاء المعري وغيرهم الكثير من العلماء والأفاضل. كما نجد في عصرنا الحديث الأدباء الكبار من الشام لهم جهود جبارة وفضل مشكور وإسهام لا يستهان به في الأدب العربي من أمثال الصحفي الجليل والكاتب الكبير محمد كرد علي والأستاذ الشهير سليم الجندي، والأستاذ محمد المبارك، والمحدث العظيم بدر الدين الحسني، فلكل شادرة وواردة مما كان له أثر عظيم في إثراء الأدب والثقافة في الشام ومنهم شيخنا علي الطنطاوي.

قد ذكر شوقي ضيف كل شاردة وواردة مما كان لها أثر عظيم في إثراء الأدب والثقافة في الشام. ومن هنا الأستاذ شوقي ضيف يسلط الضوء على ازدهار الشعر والأدب في الشام "تشارك الشام بقوة في ازدهار الشعر العربي في العصرين العباسيين:

الأول والثاني. ويتكاثر شعراء الشام في القرن الرابع الهجري وتموج بهم في حلب في عهد سيف الدولة الحمداني، ويترجم الثعالبي في كتابه "اليتيمة" لكثيرين منهم، كما يترجم الباخرزي في كتابه "دمية القصر" لطائفة من مشهوريهم في القرن الخامس الهجري، ويترجم العماد الأصبهاني وزير صلاح الدين الأيوبي في القرن السادس لنحو مائة وثلاثين من شعراء الشام، وتحفل كتب التاريخ والتراجم– بعده– بالشعراء الشاميين في أزمنة الأيوبيين والمماليك والعثمانيين. وتشارك الشام–منذ القرن السادس– مشاركة خصبة في الأشكال الجديدة من الشعر الدوري فتكثر بها المسمطات والرباعيات والموشحات، ويشتهر فيها غير وشاح. ومنذ أبي تمام يكثر شعراؤها من البديعيات، يدخل الشعراء عليها صورا مختلفة من التعقيدات"[1].

ولكن مر عليها دور الظلام الدامس طوال أربعة قرون وهو عصر الجمود والتقليد وعصر الانحطاط من حيث الشكل والمعنى فلا نرى أثرا خالدا ملحوظا تركه شاعر أو أديب في هذه القرون المتطاولة، وقد ساد الجهل والظلم في الأيام الأخيرة من القرن التاسع عشرة يقول الأستاذ سامي الكيالي متذكرا أحوال الشام كما يلي: "ومرد ذلك أن الدولة العثمانية ذاتها كانت تتخبط في الدياجير المظلمة تسودها أنظمة أوتوقراطية عتيقة

[1] شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي ،عصر الدول والإمارات الشام، ص7.

تقوم على البطش والظلم والحكم الفردي المطلق، وكانت الأقطار العربية واقعة تحت نفوذها وسيطرتها ومنها بلاد الشام تتخبط في نفس هذه الدياجير"[1].

فأصبحت الشام في أشنع الحالات في مجال العلم ولذا والأدب نجد أدبا ضعيفا مهلهلا تتفوح منه رائحة التقليد والجمود فلا يخرج الشعر من إطاره الضيق ومضامينه التقليدية من المدح والرثاء والهجاء والغزل والتهاني ولا غير، والنثر المنمق الذي يقوم على السجع والجناس، ويملأ بزخرفة الكلام وتزيين العبارات التي ينفر منه صاحب الذوق السليم.

فلا نرى المدارس والمعاهد لا المؤسسات العلمية في الشام اللهم إلا القليل من المدارس الدينية الجامدة التي كانت تفتخر بتقليد أسلافهم في الكتابة والدراسة، ومن العجب العجاب أن اللغة العربية يعلمها ويدرسها أبناء الأتراك بدون خبرة ولا سليقة عربية خالصة.[2] حتى فرضت عليهم دولة العثمانية اللغة التركية التمرين والتدريب فيها فضلا عن العربية وآدابها[3]. وكان الشيخ علي الطنطاوي من أولئك الطلاب الذي كان يتعلم

---

[1] سامي الكيالي، الأدب العربي المعاصر في سورية، ص 7.

[2] نفس المصدر، ص 10.

[3] الأمير شكيب أرسلان، حياته وآثاره، سامي الدهان، ص48.

اللغة التركية ويدربها وكان يهتف كل صباح بالتركية (باديشاهم شوق يشا) ومعناها (يعيش سلطاننا طويلا)[1].

والجانب الأدبي في الشام آنذاك كان مصابا بالركود والجمود والخمول أو شبه المعدوم، والحياة الأدبية كانت تحتاج إلى دواء وعلاج على يد أديب مبتكر وشاعر مجيد وفيلسوف جديد. والناقد الأصلي لا يجد أي كتاب أو ديوان أو نوع أدبي ملموس في الشام. ولا يمكن للناقد أن ينكر الحقيقة الناصعة أن الشام هي التي أنجبت كبار الكتاب والأدباء والشعراء–كما مضى ذكرهم الجميل–، ولكنه لا يستطيع أن يجزم بوجودها الآن، لأنه لا يشهد أي مشهد أدبي رائع ينوب عن الشام ولا يرى علامات الحياة الأدبية في أدباء الشام وشعرائها. وقديما كانت الشام كما يعلم كل من هب ودب عاصمة من عواصم البيان العربي[2].

ولكن من حسن سعادة حظ علي الطنطاوي أنه لقي من العلماء والشيوخ الكبار كلما سنحت له فرصة للاستفادة. وكان جامعا بين طريق التلقي من المشائخ وطريق الأخذ من المدرسة النظامية الرائجة. واستفاد من المشائخ في المساجد والحلقات يجتمع فيها الناس فيقول الشيخ علي الطنطاوي: "وكان في كل حي جامع مثله حافل بالعلماء

---

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، الجزء الأول، ص 47.

[2] علي الطنطاوي، فكر ومباحث، ص 165.

عامر بالدروس يجتمع فيه الناس كل صلاة..والجامع الأموي هو مجلس الأمة فهو مجتمع أهل البلد، وهو المدرسة الكبرى، وفيه تكون المذاكرة في كل أمر، ومنه يصدر كل قرار، وكانت الحلقات دائمة فيه لا تنقطع، حلقات الفقه والحديث والوعظ، أذكر منها حلقة المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني، والمحدث المسند الكبير السيد محمد بن جعفر الكتاني، والشيخ الإسكندراني والشيخ النويلاتي..وكلما مر بدمشق عالم ألقى درسا في الأموي: السيد رضا، والشيخ عبد الحي الكتاني، والسيد الخضر الحسين، والشيخ البلغيثي، وأمثال هؤلاء ممن لا أذكر الآن. وهؤلا العلماء هم مرجع في أمور دينهم ودنياهم، يسألونهم ويقبلون منهم، ويصدرون عن رأيهم، وكانت كلمتهم مسموعة، وكان رأيهم نافذا"[1].

وكان من تقاليد الشام أن الناس كانوا يحتفلون بالمولد النبي المجتبي صلى الله عليه وسلم كثيرا كغير هم في أكثر البلاد الإسلامية، فكانوا يجتمعون لقراءة قصة المولد النبوي الشريف، وتوزيع الحلويات من القراطيس السكر الملبس. وهذه بدعة وخرافة ليس لها علاقة بالإسلام ولا بمحمد صلوات الله وسلامه عليه ولكن الناس قد جعلوها قضية الإسلام الأولى. ومن المهم لنا الآن أن الطنطاوي كان يحضر هذا الاحتفال بالإكراه وكان يستمع إلى بعض الخطباء المشهورين وقد تأثر منهم كثيرا فهو يكتب: "فيخطب

[1] علي الطنطاوي، دمشق صور من جمالها وعبر من نضالها، ص 124.

الدكتور عبد الرحمن شهبندر وهو من أقدر من سمعت من الخطباء، وزكي المبارك، وخالد الخطيب، وتشتد الحماسة وربما مشوا بمظاهرة فاصطدموا (وكان عصر الفرنسيين) بقوى الحكومة[1]". وكان الاحتفال يسبب النضال والمقاومة أحيانا ففي هذه المناسبة كان الناس يرفعون الأعلام واللوحات الداعية إلى النضال، وهي تدعم الاستقلال وترفض الاحتلال الفرنسي، وكان من عادة في مثل هذا الاحتفال أن لا يرفعوا العلم الرسمي الفرنسي بل العلم العربي المربع الألوان، وكانت المسابقة والمنافسة عامة لإقامة الحفلات والمنتديات الوطنية خلال هذه الأيام يقيم أهل الحي العراضات وينشدون الترنيمات ثم يجتمعون في موكب عظيم. وكان يخطب فيهم من الأعلام الذين ذكرت أسماءهم وكان من طليعة الخطباء فيما بعدهم الشيخ علي الطنطاوي فخطب في هذه المناسبة أكثر من أربعين سنة، وكان لهذه الخطب أثرا واضحا طول حياته[2].

ولم تكن الجرائد اليومية عاما، تباع علنا في الشام في طفولة علي الطنطاوي. وكانت الجرائد اليومية تطبع في عدد قليل وترسل إلى المشتركين الخاصة فقط ولم تكن المجلات المصورة كما نرى في هذه الأيام[3]. لم تكن الروايات وكتب المسرحيات تباع. وما كان رواجا للكتب العامة أن تباع وتشترى، وكان الناس يستفيدون من مكتبتهم

---

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، الجزء الأول، ص 222.

[2] نفس المصدر ص 222/1-223.

[3] علي الطنطاوي، دمشق صور من جمالها وعبر من نضالها، ص 127.

الخاصة. وكان للشيخ علي الطنطاوي مكتبة خاصة في بيته لوالده الكريم بما كان عالما ومفتيا فاستفاد من الكتب الموجودة في داره، وكانت كثيرة. وكما كان عليه أثر للمجمع العلمي وأثره في النهضة الثقافية في الشام، وهو من أقدم المجامع العربية، أسسه الأستاذ الكبير محمد كرد علي[1] سنة 1920م. وتم تغيير اسم هذا المجمع أيام الوحدة مع مصر فسمي مجمع اللغة العربية[2]". فنرى لهذه المجالس والمحافل والمجامع أثرا في تثقيف الشيخ علي الطنطاوي وتكوين شخصيته وجعله واحدا من أبرز العلماء والأدباء في الشام.

---

[1] كرد علي، محمد، من كبار كتاب العرب في العصر الحديث، صاحب المؤلفات الكثيرة، ومؤسسه مجلة" المقتبس" نشر فيها الطنطاوي أول مقال له.

[2] علي الطنطاوي، ذكريات، الجزء الثالث، ص 16.

الباب الثاني: الشيخ علي الطنطاوي، حياته وآثاره

المبحث الأول: ولادته ونشأته

المبحث الثاني: الشيخ علي الطنطاوي في معركة الحياة

المبحث الثالث: الشيخ علي الطنطاوي آثاره ومؤلفاته

المبحث الأول: ولادته ونشأته

ولادته:

ولد الشيخ علي الطنطاوي في يوم مبارك ألا وهو في فجر يوم الجمعة الثالث والعشرين من جمادى الأولى في سنة 1327هـ، 12يونيو 1909م،[1] في حي "العقيبة" بمدينة دمشق. وكان يقول مازحا: تاريخ بيعة السلطان محمد رشاد للدولة العثمانية وهو تاريخ مولدي.[2]

اسمه ولقبه:

هو علي بن مصطفى بن أحمد بن علي بن مصطفى الطنطاوي[3]، كما وصف شخصيته في كتابه "ذكريات علي الطنطاوي" في الجزء الأول، وكان جده أحمد بن علي من الأئمة الكبار في الجيش العثماني،[4] أما أبوه فهو الدمشقي موطنا والشافعي مذهبا والمفتي

---

[1] مجلة الوعي الإسلامي، علماء وأعلام كتبوا في مجلة الوعي الإسلامي، ص 287.

[2] علي الطنطاوي، ذكريات، الجزء الرابع، ص 73.

[3] نفس المصدر، ص 134/1.

[4] لويس معلوف، معجم المنجد، ص 437.

متوظفا. وكان من أعيان علماء دمشق ومن العلماء المعدودين والمربين في الفقه والفتوى[1].

أما لقبه الشهير "الطنطاوي" فهو نسبة إلى "طنطا" وهي إحدى المدن المصرية وثالثة مدن الكنانة بعد العاصمتين من القاهرة والإسكندرية، كما أنها سوق تجارية للكتب والمجلات العلمية والأدبية، فقد هاجر جد أبيه لأمه محمد مصطفى الطنطاوي منها إلى دمشق سنة 1255هـ 1838م وكان جده تلميذا في الجامع الأزهر فقرأ على علمائه واستفاد منهم في مختلف العلوم والفنون فحمل علمه معه إلى ديار الشام حيث ركز العناية الخاصة على العلوم العقلية واشتهر فيها وترك في هذا الباب كتيبات صغيرة معظمها في الفلك والرياضيات. [2]

كنيته:

كنى الشيخ علي الطنطاوي نفسه "بأبي الهيثم" حينما كان في مطلع الشباب وفي عتبة التأليف والتصنيف، فكتب بعض المقالات في مجلتي "فتى العرب" و"الناقد" وجمع بواكير مقالاته في صورة كتاب وسُمي هذا المصنف "الهيثميات"[3]. ولكن اسمه محمد علي

---

[1] الندوي، واضح الرشيد، أعلام الأدب العربي في العصر الحديث، ص 278.

[2] الندوي، أبو الحسن، مختارات من أدب العرب، الجزء الأول، ص 149.

[3] وفا، علي وفا، الاتجاه الإسلامي في أدب علي الطنطاوي، ص 28.

الطنطاوي مما لم يعرفه معظم الناس الذين يعرفونه عن قرب" ويذكر الطنطاوي أن اسمه اقترن بلقب (الشيخ) منذ عام 1337هـ أي وله من العمر عشر سنوات وذلك لسمته واتصاله بالدين والدعوة. وهذا إن كان لا يثير شيئا لدى البعض إلا أنه يلقي ضوءا ساطعا على اهتمامات أسرته وثقافتها وتوجهاتها، ويرسم صورة صادقة لعلمها وتدينها"[1]. وهذه الإضافة (محمد) محبة وتيمنا بالنبي الكريم صلى الله عليه وسلم كما هي عادة أهل الهند أنهم يضيفون إلى أسماء أولادهم إما محمدا أو أحمد.

أسرته الكريمة:

نشأ علي الطنطاوي وترعرع في أسرة علمية دينية مرفهة الحال والمعيشة وكان والده محبا للقراءة شغوفا بالفقه والعلم مصاحبا للطلاب والعلماء، وكما كان عالما متواضعا ومفتيا كبيرا وقاضيا شهيرا وانتهت إليه أمانة الفتوى في دمشق، وصفه على الطنطاوي بأنه كان "من صدور الفقهاء ومن الطبقة الأولى من المعلمين والمربّين"[2]. كان ذا أخلاق نبيلة وشيم كريمة فلم يأل والده جهدا في تربية فلذة كبده تربية دينية وتثقيفه بثقافة دينية أدبية، وأما أمه الحنونة فكانت صالحة تقية مواظبة على الصلوة والصوم وتلاوة القرآن الكريم من بيت علم وأدب ودين وكان أمه أختا للأديب الإسلامي محب

---

[1] آل مريع، أحمد بن علي، علي الطنطاوي كان يوم كنت، صناعة الفقه والأدب، ص 55.

[2] علي الطنطاوي، ذكريات، الجزء الثاني، ص 111.

الدين الخطيب صاحب مجلتي الفتح والزهراء– وورث علي الطنطاوي هذه العادات الحسنة والخصائل المحمودة من أبويه الكريمين. وكان الجو الديني يسود بيته وأسرته فالزهد عن الدنيا والرغبة في الدين، فالقناعة وغنى النفس وتقوى الله والتجنب عن المعاصي كانت هذه هي المميزات البارزة التي يمتاز بها أسرته الكريمة في دمشق.

وقد تحدث عن والده الشيخ الطنطاوي بقدر من التفصيل كما يلي "كنت منذ وعيت أجد – إذا أصبحت – مشائخ بعمائم ولحي يقرؤون على أبي، وكنت أدخل بالماء أو بالشأي، فألتقط كلمة لا أفهم معناها ولكن تبقى في نفسي ذكراها، ثم صار أبي يأمرني أن أناوله الجزء الأول من حاشية ابن عابدين، أو الثاني من الفتاوى الهندية أو جزءاً من القاموس، أو تنقيح الحامدية، فعرفت بعض أسماء الكتب"[1]. وأبرز أثر هذه التربية أن الطنطاوي بقي خادما للدين والقرآن طوال الحياة وهي التربية الطيبة بذرة الأولى ألقاها أبوه وأمه، فقد كان بيته قريبا من جامع التوبة والجامع الأموي فكان الشيخ يتردد في حلقتي المسجدين مجلس العلم ومجلس الذكر، كما كان حاضرا في درس أبيه ولو كان طفلا صغيرا، ولكن مع صغر سنه عرف أسماء أمهات الكتب والمراجع الأصلية.[2]

---

[1] نفس المصدر، 71/1.

[2] آل مريع، أحمد بن علي، علي الطنطاوي كان يوم كنت، ص 57.

الشيخ الطنطاوي في مجال الدراسة والعلم والمعرفة:

كان الشيخ علي الطنطاوي جامعا بين الطريقتين في أخذ العلم أولاهما الطريقة التقليدية القديمة الأزهرية وثانيتها الطريقة الحديثة يعنى طريقة المدارس والمعاهد الحديثة[1]. فمنذ الطفولة جعل يتردد إلى المدرسة الإبتدائية ودرس المقررات للدراسة النظامية في العهد العثماني، ثم التحق بالمدرسة التجارية حيث كان أبوه مديرا لها إلى سنة 1918م، ثم واصل دراسته الثانوية بمكتب عنبر ونال منه البكالوريا (الثانوية العامة) سنة 1928م. ثم قصد إلى مصر لطلب العلوم العالية في جامعة الأزهر الشريف ودخل دار العلوم وتم له القبول ولكن لم ما طاب له المكان وما أكمل سنة حتى ترك الدراسة وعاد إلى البيت في السنة اللاحقة 1929م. وصار طالبا في قسم الحقوق في جامعتها حتى نال الليسانس سنة 1933م. وبعد ما عاد إلى الشام دعا إلى تأليف لجنة طلابية على شاكلة مصر التي شاهدها خلال قيامه، فألفت لجنة طلابية وسُميت "اللجنة العليا لطلاب سوريا" وأُنتخب رئيسا لها وقاد هذه اللجنة نحوا من ثلاث سنين، وكانت لهذه اللجنة الطلابية أثر كبير في سوريا آنذاك فقادت النضال ضد الاستعمار الفرنسي للشام، ونظمت المظاهرات والإضرابات عن العمل ضد الحكومة، وألقيت خطب حماسية نارية تحت لواء هذه اللجنة وهي التي لعبت دورا فعالا لإبطال الانتخاب المزورة سنة 1931م وذلك بالتعاون مع

---

[1] وفا، علي وفا، الاتجاه الإسلامي في أدب علي الطنطاوي، ص 40.

الكتلة الوطنية. وكان علي الطنطاوي خطيبا مصقاعا يستمع إليه الصغير والكبير والطالب والأستاذ والأمير والوزير بما أنه قائد للجنة الطلابية على مستوى الجامعة[1].

وكانت له ذكريات جميلة لمكتب عنبر حتى تحدث عنه مرة بأن الحديث عن (مكتب عنبر)"..أشهى إلى النفس من الحديث عن داري وأهلي فيها"[2] ولِم لم يشتاق ويحن إليه لأن الأساتذة كانوا مهرة وأئمة في العلوم وكان الجو رائقا مناسبا في مكتب عنبر. "أما أساتذتنا (فالشيخ علي الطنطاوي تحدث في ذكريات عن أساتذته بكل تفصيل) وسترون أنهم اختاروا لهذه المدرسة–مكتب عنبر– الواحدة، لكل مادة كبار أساتذتها في البلد..وقد كان المدرسون على عهدنا أصحاب علم، صرفوا في تحصيله أعمارهم، وأحيوا فيه لياليهم، وأتعبوا فيه أبصارهم، وصار كل منهم هو المرجع في المادة التي يدرسها[3]" وكما كان له أساتذة من البلدان المختلفة إقرأوا معي هذا النص التالي، كيف يذكر أسماء البلاد وأساتذتها، وكم استفاد من هؤلاء الأساتذة في حياته: "كما عرفني بالجزائر وتونس وطرابلس (ليبيا) والمغرب مشايخ وأساتذة لنا منها، أحببناهم فأحببنا البلاد التي أخرجتهم.

---

[1] ديرانية، مجاهد مأمون، علي الطنطاوي، أديب الفقهاء وفقيه الأدباء، ص 12.

[2] علي الطنطاوي، ذكريات، الجزء الأول، ص149.

[3] نفس المصدر 114/1.

وكانت إليها نسبتهم، فلقد حبب إلي فلسطين أول الأمر أساتذة ومشايخ وإخوان لنا من فلسطين[1]".

فقضى في هذه المدرسة أخصب أيام حياته ست سنوات، وهذه الأيام كانت حافلة بالعطاء الفكري والنمو الذهني فشحذ نفسه بالمواهب الأدبية العلمية وصقل ذهنه بالأفكار السليمة بالتركيز الخاص على المطالعة والدراسة والاستفادة من الأساتذة الكبار والمعلمين الماهرين في مختلف المجالات، وكان هؤلاء الأساتذة أئمة في المادة والموضوع الذي كانوا يدرسونه، فدرس فيها علم آداب البحث والمناظرة وعلم التخطيط ووضع الخرائط والحساب والهندسة والجبر والجغرافيا واللغة العربية والإنشاء والفرنسية كما تعلم الكيميا والفيزياء والفلك وعلم الحيوان وعلم طبقات الأرض والفلسفة والاقتصاد، وما إلى ذلك من العلوم والفنون[2].

ومع استفادة من مقررات الدراسة النظامية حيث اطلع على العلوم الحديثة وفنونها كان يحضر في دروس المشائخ من علماء الشام والعراق ومصر. وكان يجلس إليهم ويتعلم منهم على الطريقة الأزهرية القديمة حتى بين فهرست علماء المشائخ في كتابه

---

[1] نفس المصدر 68/5.

[2] نفس المصدر 149/1-155.

"تعريف عام بدين الإسلام[1]" ما يزيد أربعين عالما في شتى العلوم العربية والمعارف الدينية من التفسير والحديث والفقه والفتوى واللغة والنحو والإنشاء.

هواية علي الطنطاوي:

كان علي الطنطاوي مجدا مجتهدا محبا للقراءة والمطالعة مكبا على الكتابة والدراسة منهمكا في تحصيل العلوم والفنون ملما بالكتب والمصنفات ما يقع بيده كتاب إلا استغرق في مطالعته وقراءته، وكان الطلاب في الصغر يقضون أوقاتهم في اللعب واللهو والزيارة للأصدقاء والأقارب ولكن علي الطنطاوي كان متوحدا منعزلا لا يلعب ولا يلهو ولا يزور فكان مهمته الأولى العمل الدائم وشغله الشاغل الكتاب والقراءة، فقضى الطفولة في الوحدة والانعزال مع أنيسه الخاص وحبيبه الكريم"الكتاب" يقول عن نفسه " لم ألعب يوما مع الأولاد في الحارة ولا زرت أحدا من لداتي ولا زارني فكنت طول عمري عائشا وحدي أنيسي كتابي" ويمضي قائلا "أمضى يومي أكثره في الدار أقرأ، وربما مر علي يوم أقرأ فيه ثلاثمئة صفحة. ومعدل قراءتي مئة صفحة، من سنة 1340هـ إلى هذه السنة 1402هـ[2]"

---

[1] علي الطنطاوي، تعريف عام بدين الإسلام، هامش ص 5-6.

[2] ذكريات،الجزء الأول، ص137.

عناصر تكوين شخصيته:

مما لا مجال لشك أن الإنسان ينال كل شيئ من قدره ونصيبه حسب الجد والكد والمثابرة والاستقامة، ولكن نرى وراء كل ناجح وفائز المكون المصقل المهندس لشخصيته فلكل لاعب مدرب، ولكل حاكم مشير ولكل كاتب أستاذ ولكل شاعر مرشد فهناك فهرست طويل لأناس الذين لعبوا دورهم لتكوين شخصية الطنطاوي وتصقيل موهبته وتنميته الفكرية والتربوية، فها هو أستاذه سليم الجندي[1] "لقد اقتنيت دقيقة دقيقة، أجمعها وأحصيها كل يوم كمايجمع الشحيح فلسا إلى فلس، ويحفظها، حتى اجتمع لي في صحبته ثلث قرن فهل تروني أفرط فيها[2]" ويتابع قائلا عن أستاذه الجندي والمبارك[3]: "وما أعرف تحت قبة الفلك، أعلم منهما (الجندي والمبارك) بالعربية وعلومها، ولقد كانا أشد المدرسين تأثيرا في تكويني اللغوي والأدبي[4]".

---

[1] الأستاذ سليم الجندي، درّسه في كلية عنبر عديدا من العلوم والفنون، كان حجة العرب، شاعرا، مدرسا، عالما بالأدب والتاريخ، أديبا موهوبا ولغويا بارعا صاحب علم في البلاغة والعروض والاشتقاق، تأثر منه الشيخ الطنطاوي أشد تأثر من علمه الغزير وبحره الفياض، كان من أرض الشام.

[2] علي الطنطاوي، من حديث النفس، ص 133.

[3] هو أستاذ لعلي الطنطاوي في مكتب عنبر، اسمه عبد القادر بن محمد بن محمد المبارك الجزائري الدمشقي، أديب، معلم، غزير العلم بمفردات اللغة، جزايري الأصل، مولده ووفاته في دمشق 1304-1364هـ، 1887-1945م.

[4] ذكريات،الجزء الأول، ص118

وكان من أبرز الشخصيات التي قامت بتربية الشيخ علي الطنطاوي خير قيام في بناء شسخصيته الأدبية والعلمية، أبوه الكريم، كان فقيها ومفتيا جعله متعودا على القراءة والدراسة، فمهما زار له شخص أو طالب أو سائل مسئلة يطلب من الطنطاوي أن يأتي بكتاب، فعرف وعلم أسماء مهمات الكتب الفقهية والأصولية والأدبية كما أشار وذكر إليه في ذكرياته، وكما نجد ملامح واضحة في شخصيته لخاله الكريم العالم الجليل الصحفي الإسلامي الكبير صاحب مجلتي (الفتح، والزهراء الصادرة من مصر) إنه فتح له سبيلا للتعارف بالشخصيات البارزة من الأدب والشعر والصحافة، فتأثر من زيارته لمصر على طلب خاله تأثرا عظيما. كما نرى دورا كبيرا في تثقيفه للمحافل والمجالس والمنتديات من أمثال مجلس العالم الأديب محمد كرد علي، وسليم الجندي، ومحمد المبارك، ومصطفى برمدا[1] ما عدا الحلقات للعلماء الكبار في الجامع الأموي والجامع التوبة، وكان من دأبه الحضور والمشاركة في هذه الجلسات العلمية، مما أدى إلى تكوين شخصيته شخصية إسلامية ذات فكر صحيح وعلم وفير وأدب رفيع وخطيب مؤثر.

[1] ملحق صحيفة الجزيرة الصادرة من الرياض، ص 2، الصفحة الثقافية العدد: 9737.

المبحث الثاني:الشيخ علي الطنطاوي في معركة الحياة

الطنطاوي في مجال التدريس:

كانت أسرة علي الطنطاوي تعانى معاناة فقر وبؤس عقب وفاة والده، إنه فقد والده الكريم وهو لم يتجاوز الصف الثامن من حياته الدراسية[1]، وفجأة وجد أسرته في أثقال ديون كثيرة وكان الناس يتقاضون ويطلبون منه، حيث اضطر الشيخ الطنطاوي إلى البيع الكثير من تركة والده من أثاث ومتاع ثم أكرهتهم الحالة التعسة على مغادرة البيت إلى آخر بيت مستأجر متواضع. واضطر إلى كسب القوت والارتزاق وكان عمره ست عشرة سنة للأسرة التي كان عليه أن ينهض بأعباء العائلة فيها أم وخمسة من الأخوة والأخوات وهو أكبرهم. فعمل محاسبا واشتغل بالتجارة ثم خاض في البحر الزاخر العميق للتعليم والتدريس مملوءا بالحماسة النادرة يريد أن يصب ما في رأسه من علم، وأن يعلم ما في جعبته من إبداع للطلاب والطالبات وللصغار والكبار من التلاميذ في هذه المدارس الابتدائية وإنه من أقدم المعلمين في عصره وكيف لا يكون ذلك بأنه بدأ يدرس ويعلم ولم يزل طالبا في المرحلة الثانوية كما سلف ذكره. وكان عمره السابعة عشر في عام 1345هـ بدأ وظيفة التدريس وعلم في المدارس الأهلية في الأمينية والجوهرية والكاملية

---

[1] محمد المجذوب، علماء ومفكرون عرفتهم، ص 195.

الواقعة بالشام، وكان أستاذا ناجحا جادا بما قام بالطبع هذه المحاضرات المعنونة (مجموعة دروس ألقاها أمام الطلاب) باسم "بشار ابن برد[1]" في عام 1930م،[2] وكان ابن العشرين ثم السنة التي تليها أصبح معلما ابتدائيا في المدارس الحكومية سنة 1931 ثم ينتقل من قرية إلى قرية يدرس ويعلم ويربي تربية صالحة أن يجعلهم كتابا وأدباء وقوادا وخطباء مشحونا بحماسة مما نجد قليلا عند معلم صبيان هاهو ذا يقول "وكنت – من حماستي، ومما وجدت من ذكاء التلاميذ وحسن استجابتهم ورغبتهم في الاستفادة والتحصيل – أريد أن أجعل منهم كتّابا وخطباء"[3].

ما كان الشيخ علي الطنطاوي معلما لمادة أن يدرس ويحشو ما في الكتاب من علم في أذهان الطلاب وهم يسجلون في كراسي امتحانهم كل ما سمع من أستاذه يوم الدرس ثم ينسى هؤلاء كل ما قرأ وسمع، بل كان للشيخ منهجا خاصا لإلقاء الدرس وتربية الأطفال وغرس الإيمان في قلوب الصغار حتى يجعلهم أن يتعودوا للصلاة والخوف من الله، والصدق والأمانة، ويرشدهم إلى الأعمال الصالحة ويربيهم تربية حسنة وفي لفظ آخر كان يريد أن يجعل منهم أعضاء في جسم الأمة الإسلامية سليمة من العلل قائمة

---

[1] هو شاعر مطبوع، ولد أعمى ولكن كان من فحولة الشعراء في عصر الأموي الأخير والعباسي، اشتهر بإمام الشعراء المولدين.

[2] ديرانية، مجاهد مأمون، علي الطنطاوي أديب الفقهاء وفقيه الأدباء، ص 16.

[3] نفس المصدر، ص 18.

بالعمل، ما كان الشيخ معلما فحسب بل كان مرشدا ومربيا وناصحا معا، وهذا هو شأن المعلم الناجح مما قاله أمير الشعراء أحمد الشوقي.

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا[1]

ثم انتقل علي الطنطاوي من مكان إلى مكان ومن مدرسة إلى أخرى في دمشق في المدراس الابتدائية حتى تم تعيينه كأستاذ في الثانوية المركزية في بغداد عام 1936م.[2] ودرس في المدارس المختلفة في العراق، وكانت تجربته في العراق يختلف تماما عن التجربة في الشام بما كان أستاذا للابتدائية مثله كمثل شخص كان يذهب إلى سوق قريته الصغيرة ثم لما يرحل إلى المدينة يجد نفسه في سوق كبير بالبضائع النفيسة والتحف القيمة، فإنه وجد طلابا كبارا متحمسين راغبين للقراءة والدراسة فصب من منهله من علم وفن وإبداع وكان الطلاب يحبه ويسأله ويركن إليه كثيرا. وكان طريق تدريسه كالنهر المتدفق السيال مليئ بالمعلومات المختلفة ويستفيد منه كل غني وفقير وصغير وكبير وسائر الطلاب على مستواهم المختلف. يقول عن نفسه وعن طريق تعليمه وتدريسه: "ودرسي أنا كالنهر المتدفق الفوار، أخلط فيه الشرح الأدبي المبتكر الجديد في

---

[1] أحمد شوقي، ديوان شوقي، أحمد شوقي شاعر مصري، لقب بأمير الشعراء وشاعر الشعب وشاعر الوطنية والقومية، ومن أشهر مما قيل في شأن الأساتذة الكرام، وهذا شعر مشهور متداول. وينظر: حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي، (الأدب الحديث) الجزء الثاني، ص 435.

[2] علي الطنطاوي، ذكريات، الجزء الثالث، ص 293.

كثير من الأحيان، أخلطه بالتاريخ، وبالدين وبالاستطرادات[1]" وسفره إلى بغداد ترك أثرا كبيرا في نفس علي الطنطاوي فكتب كتابا في ذكرى بغداد وأهلها وسماه "بغداد ذكريات ومشاهدات" يقول فيها "ما الذي هاج نفسي هذه العشية ذكر بغداد، ونشر أمام عيني ما انطوى من ذكرياتها وما مات من أيامها؟ ما الذي رجعني إلى تلك الليالي حتى كأني – لفرط ما تشوقت إليها، وأوغلت في ادكارها– أعيش فيها؟ أي سحر فيك يا بغداد جذب قلبي إليك، فلم انسك إذ أنا في بلدي الحبيب ولم أزل أحن إليك وأشتاقك!!"[2] وبقي الشيخ علي الطنطاوي يدرس ويلقي المحاضرات في العراق حتى عام 1939م إلا سنة واحدة قضاها في بيروت لبنان محاضرا وأستاذا في الكلية الشرعية فيها عام 1937م[3]. وبعد ذلك عاد إلى دمشق وتم له التعيين من حيث الأستاذ المساعد في مكتب عنبر[4] (الذي صار بعد مدرسة التجهيز وهي الثانوية الرسمية بالشام) ولم يلبث إلا جاء الأمر بنقله إلى دير الزور ثم بدأ الاضطرابات والهتافات ضد الحكومة فناضل وقاوم وناشد مع أهل الشام حتى انسلك في سلك المحكمة في السنة اللاحقة.

---

[1] نفس المصدر، 294/3

[2] علي الطنطاوي، بغداد: ذكريات ومشاهدات، ص 70.

[3] ديرانية، مجاهد مأمون، علي الطنطاوي: أديب الفقها ء وفقيه الأدباء، ص 19.

[4] نفس المصدر، ص 20.

الطنطاوي في مجال الصحافة:

مهنة الصحافة أفضل المهن وأجودها التي مارسها شيخنا علي الطنطاوي طوال حياته ولم ينقطع عنها بعد الالتحاق، وقد تمخضت صحافته عن مؤلفات نافعة ومقالات قيمة ذات إبداع وجمال. وأول مقالة أدبية نشرها علي الطنطاوي في جريدة "المقتبس" للأستاذ كرد علي في عام 1926[1]، وكان هو ابن السابعة عشرة من عمره، وقصة بدء الصحافة ودخوله فيها له طريفة مشوقة. فأنا الآن أتوقف عند مقاله الطويل في كتابه "من حديث النفس" في كتابه المذكور هو يكتب في هذا الصدد: "كتبت مقالا وقرأته على رفيقي أنور العطار، فأشار عليّ أن أنشره، فاستكبرت ذلك، فما فتئ يزينه لي حتى لينت له، وغدوت على إدارة "المقتبس" فسلمت على الأستاذ أحمد كرد علي – رحمه الله ورحم جريدته – ودفعت إليه المقال، فنظر فيه فرأى كلاما مكتهلا، ونظر في وجهي فرأى فتى فطيرا، فعجب أن يكون هذا من هذا، وكأنه لم يصدقه فاحتال عليّ حتى امتحنني بشيء أكتبه له رغم أن المطبعة تحتاج إليه فليس يصحّ تأخيره، فأنشأته له إنشاء من يسابق قلمه فكره، فازداد عجبه مني ووعدني بنشر المقال غداة الغد، فخرجت من حضرته وأنا أتلمس جانبيّ أنظر هل نبت لي أجنحة أطير بها لفرط ما استخفّني السرور، ولو أني لو بعت بإمارة المؤمنين ما فرحت أكثر من فرحي بهذا الوعد وسرت بين الناس وكأني أمشي

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، الجزء الثاني، ص 6.

فوق رؤوسهم تعاليا وزهوا، وما أحسبني نمت تلك الليلة ساعة بل أتقلب على الفراش أتصور أيّ جنة من جنات عدن سوف أدخل في غداة الغد وأي كنز سأجد حتى إذا انبثق الصبح وأضحى أخذت الجريدة. فإذا فيها المقال وبين يديه كلمة ثناء لو قيلت للجاحظ لرآها كبيرةً عليه"[1].

وعمل الشيخ الطنطاوي في ميدان الصحافة الواسع عرف أولها ولم يعرف نهايتها، وكان من أول تجاربه العملية في مجال الصحافة مع خاله الكريم محب الدين الخطيب[2] في جريدة "الفتح" الأسبوعية، وهي أول جريدة إسلامية تهتم بالأمور الإسلامية والعروبة كذلك، كما مارس الصحافة معه في المجلة المسماة بـ"مجلة الزهراء" مع خاله الكريم، وكانت مجلة وترجمانا حقيقيا للأدب الإسلامي في سنة 1926م، ومنذ ذلك الحين لم ينقطع الشيخ علي الطنطاوي عن الصحافة طوال حياته. وكما أصدر الشيخ علي الطنطاوي "مجلة البعث" 1953م،[3] ليكتب فيها عن تراث الإسلامي الزاخر وتاريخه المجيد[4].

---

[1] علي الطنطاوي ، من حديث النفس ص149.

[2] محب الدين الخطيب، خال علي الطنطاوي، إنه كاتب إسلامي، وصحفي نابغ، ولمجلتيه "الفتح" و"الزهراء"صدى في العالم العربي.

[3] السطوحي، عبد الستار، الشيخ علي الطنطاوي قاضي القضاة وأديب الأدباء، ص 12.

[4] عدنان النحوي، إشراقة النبوغ في حياة العلامة الشيخ علي الطنطاوي، ص 29.

وحينما أصدر الأستاذ حسن الزيات[1] المجلة الكبرى "الرسالة" سنة 1933م، فكان الشيخ واحدا من كتابها واستمر الكتابة فيها عشرين سنة حتى غربت شمسها واحتجبت سنة 1953م .[2] وشارك في مجلة "فتى العرب" مع الأديب الكبير معروف الأرناؤوط، أسهم في مجلة "ألف باء" مع يوسف العيسى، وكان مديرا لتحرير جريدة شهيرة "الأيام" التي كانت صادرة كترجمان للكتلة الوطنية سنة 1931م، كما كان يكتب في "الناقد" و"الشعب" و"المسلمون" و"النصر" (بدأ نشر ذكرياته من هذه المجلة) ثم نشر ذكرياته في "الشرق الأوسط" على مدى خمس سنين، وبعد سفره إلى مكة المكرة كان يشارك في مجلة "الحج" و"المدينة" كما له مقالات عديدة كثيرة متناثرة في مجلات مختلفة هو بنفسه عاجز أن يحصيها ويعدها[3].

ومهنة الصحافة كانت مفضلة محبوبة لدى الشيخ الطنطاوي يقول في هذا الشأن: "أما من حيث قرب هذه المهنة من نفسي فهي أحبّ إلي من كل مهنة مارستها. ولو

---

[1] أحمد حسن الزيات، من كبارالكتاب والأدباء الإسلاميين، المشهور باسم صاحب الرسالة، ناشئ المجلة ومحررها.

[2] ديرانية ، مجاهد مأمون، الشيخ علي الطنطاوي: أديب الفقهاء وفقيه الأدباء، ص 15.

[3] نفس المصدر، ص 15.

خيّرت الآن لأخترتها دون سواها، بشرط أن أكون وحدي المشرف على المجلة، وأن أكون حرّاً لا رأي فوق رأيي ولا مكره لي على نشر ما لا أريده أو طيّ ما أريده" [1].

لقد احتضنته المملكة العربية السعودية 1963م[2] فآوى إلى جوار بيت الله الحرام قبلة المسلمين في العالم، فأقام مدة من الدهر وأفاد الناس قاطبة من علمه الغزير واطلاعه الواسع مستفتيا مستشارا ومتسائلا عن الفقه والمسئلة العلمية والمشكلة العائلية بعد صلاة العصر، وكما شارك مشاركة فعالة عن طريق برامجه التلفزيون المشهورة وتابعه ملايين من الناس ما لا يمكن إحصاءه وعده "وظل بالرغم من شيخوخته الطاعنة "البلبل الإسلامي الغرد" في أجهزة الإعلام السعودية، ينبه كل حاج ومعتمر وكل مسلم ظهر المعمورة إلى مقومات هذا الدين الإنساني السمح المعطاء فكان يبث برامجه من خلال برنامج "مسائل ومشكلات" و"نور وهداية" و"على مائدة الإفطار"[3]. وكانت هذه البرامج من أطول البرامج في المملكة العربية السعودية."عمل في ميدان الصحافة فانطلقت مواهبه فيها كالسيل الجارف، يتجدد معه العطاء، ويستقيم له فيها النهج، لا يغير ولا يبدل" فلم يخضع فكره ولم يخنع قلمه أمام أي طاغ أو حاكم أو وزير أو مدير

---

[1] علي الطنطاوي، الجزء الثاني، ص 5.

[2] مجلة الوعي الإسلامي الكويتية، ص 287.

[3] الشيخ علي الطنطاوي، قاضي القضاة وأديب الأدباء، عبقرية الإسلام بأقلام عمالقة الأدب الإسلامي، السطوحي، عبد الستار، ص 12.

فكان داعيا إلى الله بقلمه السيال وبفكره الوقاد وبأدبه الرفيع في مجال الصحافة بما فيها الصحف والمجلات والجرائد والراد[1] والرائي[2].

الشيخ علي الطنطاوي على الراديو والتلفزيون:

وكما عمل الشيخ علي الطنطاوي في الراديو أي –في الإذاعة– في دمشق والرياض وعمان والشرق الأدنى، ولاقت أحاديثه العذبة قبولا كبيرا في أوساط الناس، وقاربت ساعاته المسموعة خمسة آلاف ساعة.[3] والشيخ علي الطنطاوي من أقدم الإذاعيين العرب، بدأ البرامج الإذاعية من أوائل الثلاثينيات من يافا ودمشق والعراق وعمان.[4] ونظرا للصعوبة التقنية لم نعد نستطيع على الحفاظ لهذه الملفات المسموعة وإلا ستكون خزانة في باب المسموعات العربية. تحدث الشيخ علي الطنطاوي في الإذاعة أكثر من خمسين سنة ولم يمل منه الناس والمستعمون الكرام بل كانوا يصغون إليه ويستمعون له مع لذة سماعية وأدبية[5]. وحينما زرت موقع يوتيوب وجدت عشرات من

---

[1] هذا مصطلح خاص أخذه الشيخ الطنطاوي للراديو.

[2] وهذا أيضا مصطلح خاص استخدمه الشيخ علي الطنطاوي للتلفزيون.

[3] آل رشي، علاء الدين، مجلة الأدب الإسلامي، المكتبة السمعية والمرئية للشيخ علي الطنطاوي، ص 79.

[4] ديرانية، مجاهد مأمون،علي الطنطاوي: أديب الفقهاء وفقيه الأدباء، ص 27.

[5] الهذيلي، ناصر بن عبد العزيز، تشبيهات علي الطنطاوي، ص 10.

الصوتيات مثلا: الأخوة الحقيقية، القصد من الابتلاء، الفرق بين عصرنا القديم والحديث، معاني الصيام، الصيام، وابتغ فيما آتك الله الدار الآخرة، فقه الزكاة، اتقوا الله، والأحكام الشرعية وما إلى ذلك من الموضوعات التى تناولها الشيخ علي الطنطاوي، وهذه الصوتيات مشتملة على عشر دقائق فقط.

وكانت شخصية الطنطاوي من إحدى مدرسة الإعلام الكهربائية، وداعية كبيرا عبر الشاشة التلفزيونية بلغته البسيطة المفهومة وخطابه للجمهور الرائع. وميزة علي الطنطاوي البارزة هي الدعوة والإصلاح والهم والحزن للأمة الإسلامية. وبرامجه من أنجح البرامج على الإطلاق من حيث المشاهدة والاستماع والقبول والنفع العام على حد قول الشيخ عائض القرني. ولم لا! لأنه يخاطب العام بلغة بليغة بسيطة سهلة ويبلغ رسالة خالقه إلى مخلوقه وعباده ويبشر الناس بالإسلام والجنة. وكان يدعو الناس بالدعابة والصفاء والمحبة إلى الله ورسوله غير متكلف ولا متزمت. وتبث هذه البرامج الطويلة على شاشة التلفزيون كل يوم الجمعة في مملكة العربية السعودية وعلى مائدة الإفطار كل يوم في رمضان. يتحدث عن هذه البرامج زميله وصديقه عبد القدوس أبو صالح في مقال له عنه: " أننا كنا نراه ونسمعه مع آلاف الناس في برنامجه الأسبوعي في الرائي السعودي، هذا البرنامج العجيب الذي استمر نحو من ربع قرن، ولا يماثله في استمراره في العالم إلا برامج معدودة على أصابع اليد الواحدة، وكان تعلق الناس بهذا البرنامج مع برنامجه

الآخر "على مائدة الإفطار" أمراً تحار العقول في تفسيره، إذ تعلق الناس به من مختلف الطبقات وشتى الأعمار"[1].

قد لقي مني صديقي أمس في المساء على مائدة الشاي، وكنا نتبادل أطراف الحديث، إذ سألني عن عنواني الرسالة، فأخبرته عن موضوعي المتعلق بالشيخ الطنطاوي، فقال: "إنه–الشيخ علي الطنطاوي– كان جاري في المملكة العربية السعودية، وقد كان بيته أقرب من بيتي، فرأيته وسمعت عنه وشاهدته على شاشة التلفزيون كل يوم الجمعة بكل مواظبة وانتظار شديد، وكنت أتابع برنامجه بلهف وشوق، بما كان يتكلم بلغة سهلة فصيحة يفهمهما العام والخاص، وكان كلامه عذبا، وفكاهته نادرة، وطريقته للعرض رائعة"[2].نرى من المناسب أن نتحدث قليلا عن هذين المشروعين التلفازية.

نور وهداية وعلى مائدة الإفطار:

كان الناس يطرحون عليه أسئلة متعلقة بالإسلام وأحكامه وعن الشعر والأدب والتاريخ فكان يفتي ويفسر ويوضح. وكان هذا البرنامج برنامج الجمهور كما قال في عرضه

---

[1] أبو صالح، عبد القدوس، الشيخ علي الطنطاوي كما عرفته، مجلة الأدب الإسلامي، ص5.

[2] حواري مع صديقي فواز أحمد عن الشيخ علي الطنطاوي. الأخ فواز إنه عالم هندي وباحث ممتاز، والحائز على شهادة الدكتوراه.

وكلامه –فيما معناه– يوجهون إلي أنتم الأسئلة فأجيب عما أعرف، وقد ضاعت كثير من شريط هذا البرنامج وإلا سيكون خزانة للفقه والفتوى والعلم والأدب والنقد والتاريخ.

وكذلك لبرنامجه "على مائدة الإفطار" أحاديث قصيرة تم النشر لها من قبل القناة الفضائية "الصحراء"، والفيديوهات موجودة على موقع يوتيوب بواسطة شبكة الألوكة. ولهذا البرنامج أربعة وعشرين شريطا مشتملة على أربع عشرة دقيقة أو أكثر منها بدقيق أو بدقيقتين. أما الموضوع كما يتجلى من عنوانه عن رمضان وأحكامه وما ورد في القرآن والحديث من ثواب وجزاء ومسائل وأحكام. ففيه الكلام عن العقيدة والعبادة والسلوك والحرام والكبائر والصغائر، والأخلاق الحسنة وعن البدر وأصحاب الرسول وتاريخ الإسلام، وما إلى ذلك من الموضوعات التي عالجها ولكن لم أدر لأنني ما شاهدت جميع الفيديوهات التي ألقاها شيخنا الطنطاوي بعدم وجودها على الموقع. يقول الشيخ علي الطنطاوي عن الصوتيات والفيديوهات: "أما أحاديثي في الإذاعة والرائي فإنها لو جمعت لجاءت في خمسين كتابا! ولكنني لا أملك صورا منها، وأكثرها ما كتبها أصلا. وأسأل الله أن يكتب لي بعض الثواب عليها[1]". ويقول عن برامجه التلفزيونية الدكتور عبد الرحمن بن صالح العشماوي في مقدمة كتاب "تشبيهات علي الطنطاوي": "إنه ذلك المتحدث الذي ظل سنوات عديدة يبث عبر شاشه التلفاز السعودي نوره وهدايته على

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، الجزء الثالث، ص 240.

مدى أحد عشر شهرا، ويبث على مائدة الإفطار الرمضاني علمه، وفقهه، وثقافته وأدبه، وطرائفه على مدى ثلاثين يوما هي أيام شهر رمضان المبارك"[1].

الشيخ علي الطنطاوي في مجال القضاء:

كان الشيخ الطنطاوي في وظيفة التدريس والتعليم حتى هيأت له حادثة دير الزرو دخوله في المحكمة–بما قدم الخطاب ضد الحكومة الفرنسية–، والإنسان في التدبير والرب في التقدير والتقدير يغلب على التدبير، كان الطنطاوي يريد أن يبقى مدرسا ومعلما ولكن الله أراد له أمرا آخر والخير فيما أراده الله وانسلك الشيخ الطنطاوي سلك القضاء، فبقي في المحكمة حتى هجرته إلى المملكة العربية السعودية سنة 1966م[2](حينما منع أن يركب موكب الاشتراكية الجديد في الشام)، وأخرجه الله من باب الضيق إلى أوسع الأبواب مما كان لا يتصوره وصار قاضيا في النبك ثم في دوما (من قرى دمشق) ثم قاضيا ممتازا في دمشق، فمستشاراً لمحكمة النقض في الشام ثم مستشار لمحكمة النقض في القاهرة أيام الوحدة مع مصر وكانت هذه السنوات من أخصب أيام حياته. وها أنا أترككم معه وتناولوا بعض ما يقول في هذا الباب: "لقد تنقلت في البلاد ورأيت أصنافاً من العباد، ولكني لم أخالطهم ولم أداخلهم، كنت ألقاهم من فوق أعواد المنابر أو من خلال أوراق

---

[1] الهذيلي، ناصر بن عبد العزيز، تشبيهات علي الطنطاوي، ص 10.

[2] علي الطنطاوي، ذكريات، الجزء الثامن، ص 69.

الصحف والمجلات أو من على منبر التدريس، والذين لقيتهم إنما كان لقائي بهم عارضا، ألامسهم ولا أداخلهم، فلما ولّيت القضاء رأيت ما لم أكن أعرف من قبل"[1].

وحينما نجح في امتحان القضاء وعين قاضيا في النبك لم يسارع أن يتولى إلى كرسي القضاء وإدارة أمور المحكمة بل طلب من وزارة العدل والمحكمة أن يمهله ويعطي وقتا للاستعداد قبل الخوض في أمور القضاء والمحكمة ليكون خبيرا عليما في الأمور الشرعية المتعلقة من عقد النكاح، والطلاق وحصر الإرث، وتنظيم الوصية إلى الحكم في قضايا الإرث والوقف والزواج وما إلى ذلك من الأمور المهمة للعائلة والأسرة.[2] وكان البدء خيرا سارا لائقا أن يحمد فحينما حاكم محاكمة سديدة في قضايا ضخمة معقدة جعل الناس يقدرونه ويبجلونه تبجيلا وتكريما.

وحينما رأى الرشوة والفساد قد تسرب إلى القضاء والمحكمة فأراد أن يزيله إزالة تامة ولكنه كان مقصرا عن محوه وإزالته مثله في هذا الخصوص كمثل رجل جالس في السيارة والسيارة تسير على غير هدى ولكن مقودها بيد غيره. فماذا يفعل كان يعرف الدواء للمريض ولكن ما وجد سبيلا إلى إيصاله إليه، ولكن حينما تم تعيينه قاضي دمشق الممتاز، وشغل هذا المنصب عشر سنين كاملات تامات من سنة 1943 إلى سنة

---

[1] نفس المصدر، 198/4.

[2] نفس المصدر، 166/4.

1953م حيث نقل مستشارا لمحكمة النقض، فجاء وقت الإصلاح ما أفسده القضاة والولاة والمحامون من الرشوة والظلم والفساد، وجاءت السيارة ومقودها بيده، فأزال ما أزال وأصلح ما أصلح وطالت يده القصيرة وهاكم قصته في المحكمة بلسانه وقلمه "وتسلمت أنا مقود السيارة، وفتح لي الباب لأحمل إلى المريض العلاج. إنها لذة من أكبر اللذاذات، أن ترى الباطل غالبا والحق مغلوبا وترى نفسك عاجزا ثم تعطى القوة على دحض الباطل وعلى نصرة الحق.. ولكن أترونه أكتفي بهذه الأفكار والتأملات؟ لقد أحس بالمسؤولية الجسمية التي ألقت عليه حين صار أثر المحكمة الشرعية، فلبث ليالي أرقا يفكر ماذا يصنع حتى اهتدى إلى فكرة عجيبة انتظم بها أمر المحكمة، وانقطع بها ما كان من علل التسويف على العامة أو المحاباة للخاضة، "ثم رأيت أن هذا كله علاج مؤقت لا يكاد يأتي منه الإصلاح المنشود، فعملت على إبدال من في الديوان واحدا بعد واحد، وأعانني الله أولا بإخلاص وبأنني لا أبتغي من ذلك جرّ منفعة لنفسي ولا درء مضرة عنها، والله يعلم ذلك مني[1]".

وبفضل الله عليه قد أعطاه فرصة سعيدة لوضع قانون الأحوال الشخصية، فكلّفه محكمة العدل وذلك بعام 1947م أيام الوحدة مع مصر للشام، والشيخ الطنطاوي كان قاضيا في دوما آنذاك، فأمضيا سنة كاملة في مصر مع القضاة أمثال نهاد القاسم،

[1] نفس المصدر، 275/4.

وأصبح أستاذا لمشروعات القوانين الجديدة للمواريث والوصية. وله فضل كبير أنه أعد مشروع قانون الأحوال الشخصية كله ونرى فيما بعد صار هذا المشروع أساسا للقانون الحالي في الشام. وكما كان طويل الباع حاضر البديهة صائب الرأي في المحاكمة في أية قضية ومسئلة وفقه الله لتعديل قانون الأوقاف ومناهج الثانويات. وترك الشيخ الطنطاوي إرثا عظيما كبيرا في مجال القضاء والإفتاء مما عرف بـ"فتاوى علي الطنطاوي" في مجلدات ضخمة.[1] يقول الدكتور عدنان النحوي "ولقد أبرز القضاء ناحية من مواهبه، وجلا قدرة من قدراته، فاشتهرت مواقفه وأحكامه وفتاواه عن علم حق وإيمان ثابت، لا ينحاز عن الحق مهما كلفه الأمر، ثابت كالطود، تنهار من حوله عوامل الفتنة وإغراءات الباطل وزخارف الضلال. فشق طريقه بقوة إلى مراتب القضاء العلياء عن جدارة وحق. وله في ميادين القضاء مواقف مشهورة، ونوادر مأثورة[2]".

ومن أوليات الشيخ علي الطنطاوي في مجال القضاء أنه وضع قانون الأحوال الشخصية وهو القانون الأول الجامع الذي استنبطه من الشريعة الإسلامية السمحاء.

---

[1] ديرانية، مجاهد مأمون، علي الطنطاوي :أديب الفقهاء وفقيه الأدباء، ص 25-26.

[2] عدنان النحوي، مجلة الأدب الإسلامي، إشراقة النبوغ في حياة العلامة الشيخ علي الطنطاوي، ص 29.

وكما وضع قانون الإفتاء بعد الوحدة مع مصر، وأوجد مجلس الإفتاء، كي لا تختلف آراء العلماء وأحكامهم[1].

مشاركة علي الطنطاوي في القضايا الوطنية:

شارك الشيخ علي الطنطاوي في حركة المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي في سوريا، فخاطب وناضل وحرك الجماهير وحرض الطلاب حتى ألغي الانتخابات المزورة بمساعدة الكتلة الوطنية، وقاد الشيخ الطنطاوي المسيرات الشعبية الطلابية وألهب حماسهم وأشعل غضبهم بخطبه النارية المجلجلة، وببيانه الساحر وأصابه ما أصاب لمثل هؤلاء فاعتقل وألقي في السجن. كان من المؤيدين للوحدة الاندماجية مع مصر مثل سائر السوريين وعلى رأسهم رئيس الجمهورية شكري القوتلي الذي تنازل عن منصبه ليصبح من المواطنين العربي الأول في الجمهورية العربية المتحدة، ولكن حينما آل الأمر إلى عهد عبد الناصر أحس الشعب السوري خطرا على حقوقهم وسلبا لحقوقهم فوقف الشيخ الطنطاوي مع شعب السوري مع الانفصال وتعاضده بخطبته التاريخية وكان لها صدى في التاريخ السوري، وأثرا بالغا على نفوس الجماهير ومن ثم ضاع الوحدة العربية. يقول صاحب المقال" مواقف من حياة الشيخ علي الطنطاوي" الشيخ علي الطنطاوي جند طوال

[1] آل مريع، أحمد بن علي، علي الطنطاوي كان يوم كنت، ص 84.

عمره قلمه ولسانه للذود عن حياض الإسلام، وحراسة قلاعه من المغيرين عليه سواء من أعدائه الصرحاء المكشوفين من الصاينة والصليبيين، والشيوعيين، وأمثالهم، أم من المقنعين الذين يلبسون لبوس المسلمين، ويتسمون بأسماء المسلمين، وليسوا على هدي من هذا الدين، وهؤلاء هم الأشد خطرا"[1]. ويقول عنه الأستاذ أحمد حسن الزيات "شارك (الشيخ علي الطنطاوي) في إيقاظ النهضة الفكرية والدينية والاجتماعية في سوريا مشاركة منتجة فله في قيادة الشباب محل، وفي توجيه الآداب طريقة، وفي سياسة الإصلاح مذهب[2]".

وفاته:

ويكاد يخبو سراج حياته وشمعته العلمية تكاد تذوب بعد ما أفاد قرنا كاملا للطلاب والباحثين والمستمعين والمشاهدين، واستمر تسعين عاما متحركا نشطا بالجد والجهد حافلا بالعطاء الفكري والفني إلى أن جاءت منيته ولبي نداء ربه ولحق بالرفيق الأعلى، ومضى إلى حيث يمضي كل حي وبشر، بعد صلوة يوم الجمعة المبارك الثامن من يونيو

---

[1] حسن، أحمد فؤاد، مواقف من حياة الشيخ علي الطنطاوي، مجلة الأدب الإسلامي، ص 118،.

[2] عدنان النحوي، إشراقة النبوغ في حياة العلامة الشيخ علي الطنطاوي، مجلة الأدب الإسلامي، ص 33.

عام 1999م، في قسم العناية المركزة بمستشفى الملك فهد بجدة. ودفن في أرض مقدسة في مكة المكرمة في اليوم اللاحق بعد ما صلي عليه في الحرم المكي الشريف[1].

المبحث الثالث: الطنطاوي آثاره ومؤلفاته

آثار علي الطنطاوي:

ترك علي الطنطاوي أثرا هائلا خالدا في باب الثقافة والأدب وفي مجال العلم والفكر والفن، وهو عبقري من عباقرة البيان العربي الفصيح، ومن الطبقة الأولى من رواد البيان والكلام في ذلك الزمان. يقول عنه صاحب المؤلف "تشبيهات علي الطنطاوي": "وهو- علي الطنطاوي- بما خلف من آثار خالدة في العلم والفكر والثقافة والأدب، عبقري من عباقرة البيان وفنان من فناني رسم الكلمات وصياغة العبارات، جعلته يحتل وبكل جدارة مكانا عليا في الطبقة الأولى من رواد الكلمة والبيان من أدباء وكتاب هذا الزمان"[2].

وإن الدارس والقارئ لأدب علي الطنطاوي ليجد نفسه يقرأ الأديب الذي ولج باب الأدب ناضج الفكرة، ومتسلحا بأدوات العلم والأدب، متصفا بالقرائح الفنية الأدبية قلما يوجد مثيله وشبهه في عصره. فقد وقف لسانه وقلمه وأدبه لمبادئ الخلقية الإسلامية

---

[1] علي الطنطاوي: أديب الفقهاء وفقيه الأدباء، ديرانية، مجاهد مأمون، ص 29.

[2] الهذيلي، ناصر بن عبد العزيز، تشبيهات علي الطنطاوي، ص 13-14.

وبقي طوال حياته خادما للقرآن والسنة والأدب الإسلامي الرفيع، وكان من رواد فكرة الأدب الإسلامية الذي صار مدرسة مستقلة في الأدب. فعنده فقه دقيق، وعلم عميق، وفكر عال، وأدب رفيع، وأسلوب رائع أخاذ لخدمة الإسلام والإنسانية والأدب. يقول عن نفسه وقلمه السيال:"لدي أشياء ما بدلتها قط، ولن أبدلها إن شاء الله، هي أني حاربت الاستعمار وأهله وأعوانه وعبيده دائما، ومجّدت العربية وسلائقها وأمجادها وبيانها دائما، وكنت مع الإسلام وقواعده وأخلاقه وآدابه دائما[1]".

ومعظم مؤلفاته ومقالاته في إطار إسلامي واسع، وجل مصنفاته كانت في صورة مقالة منشورة في الصحف والمجلات ثم جُمعت ورُتبت حسب المواضيع وطُبعت فيما بعد في صورة كتاب مستقل، ومن يقرأ كتاباته يجد هذه الظاهرة عامة، ومعظم كتبه ومصنفاته من منشورات دار المنارة للنشر والتوزيع لحفيده. وأول باكورة أعماله كان عنوانها "رسائل الإصلاح" نشرت سنة 1348هـ – 1930م[2]، ومنذ ذلك الحين لم ينقطع أبدا عن الكتابة والخطابة ولم يغب عن ساحة الأدب نشرا وتأليفا. يقول الناقد الدكتور أحمد بسام الساعي عن أدبه الإسلامي في كتابه الشهير "الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد": "أكاد لا أعرف قلما معاصرا ظلمته الأقلام، وأديبا عقه الأدباء، ومحدثا أغفله المحدثون، وقمة

---

[1] علي الطنطاوي، من حديث النفس، ص 7.

[2] آل مريع، أحمد بن علي، علي الطنطاوي كان يوم كنت، ص 86.

تجاهلها المتسلقون، كمثل الطنطاوي، وإن كنا على ثقة من أنه فوق أن يكترث بهذا الظلم أو ذلك العقوق، ما دام يدرك أية قمة تربع فوقها، وأي مكانة تسنمها في ريادة الحديث الإذاعي والواقعية الإسلامية، ثم لم يسمح لأحد بأن يمسها أو يصل إليها" مهما تجاهل عنها الجهلاء ومهما تغافل عنها الأدباء والمحدثون فإنه في الحقيقة تربع مكانة عالية في سماء العلم والأدب لم يسمح لأحد بعد أن يلمسها أو يشعر بها. لو تجد فرصة القراءة والمطالعة فاقرأ مصنفاته مثل "فصول إسلامية"، "في سبيل الإصلاح"، و"فتاوى الشيخ علي الطنطاوي" لتجد نفسك أمام مفكر إسلامي كبير، واقرأ من كتبه "أبو بكر الصديق"، و"أخبار عمر"، و"رجال من التاريخ" و"قصص من التاريخ" لتشاهد أمام أي مؤرخ يؤرخ لك هذه الوقائع والأحداث لهذه العظماء والأبطال، وادرس "فكر ومباحث"، و"صور وخواطر" و"هتاف المجد" و"صيد الخاطر" تجد نفسك أمام أديب مبدع يأخذ الأفكار من الناس والمجتمع ويردهم في أحسن صورة وفي أجود طريقة. إقرأ "من حديث النفس" و"مع الناس" و"نفحات الحرم" و"ذكريات" هذه الكتابات تحمل في طياتها ذكرياته الجميلة وهمه عن نفسه وعن مجتمعه وتحمل هذه المؤلفات بين دفتيها الأفراح والأحزان، والسكينة والاضطراب، والعلم والأدب والتاريخ.

وقد ألف الشيخ علي الطنطاوي في فنون الأدب جميعا: في المقالة، والقصة، والمسرحية، وأدب الأطفال، والسيرة الذاتية. ومن أوجب الواجبات الآن أن نميز مصنفات

علي الطنطاوي حسب الموضوعات الفنية العلمية، فمعظم كتاباته كما أسلفت ذكرها في أطر إسلامية في التاريخ والإسلام والأدب والسيرة الذاتية، حسب تقسيم وخطة وضعها حفيد الشيخ مجاهد مأمون ديرانية. فأنا أتبعها كما نظمها في أربع مجموعات: الأولي: الكتابات الإسلامية (الإسلاميات)، والثانية: والكتابات الأدبية (الأدبيات)، والثالثة: والكتابات التاريخية (التاريخيات)، والرابعة: السيرة الذاتية (الذكريات). وسأكتفي هنا بذكر الكتب حسب المواضيع فحسب، ومن يرد المطالعة والقراءة فليراجع كتبه للاطلاع المزيد عليها وفي مصنفاته معارف تاريخية ودينية وأدبية ووصفية وتربوية وعلمية[1].

الكتابات الأدبية: فكر ومباحث، صور وخواطر، مع الناس، هتاف المجد، مقالات في كلمات، قصص من الحياة، صيد الخاطر (تحقيق وتعليق مع أخيه ناجي الطنطاوي).

الكتابات التاريخية: أبو بكر الصديق، أخبار عمر، رجال من التاريخ، أعلام التاريخ (7 أجزاء)، قصص من التاريخ، حكايات من التاريخ (سلسلة ذهبية تصلح أن تكون أدب أطفال)، دمشق: صور من جمالها وعبر من نضالها، الجامع الأموي.

كتابات السيرة الذاتية: من حديث النفس، من نفحات الحرم، ذكريات علي الطنطاوي (8 أجزاء)، بغداد: مشاهدات وذكريات، في أندونيسيا.

---

[1] وفاء علي، وفاء، الاتجاه الإسلامي في أدب علي الطنطاوي، ص63.

الكتابات الإسلامية: فصول إسلامية، في سبيل الإصلاح، تعريف عام بدين الإسلام

فتاوى علي الطنطاوي (جمع وترتيب حفيده مجاهد ديرانية)[1]

أما من كتيباته ورسائله فهي كما يلي: يا بنتي ويا ابني (ترجمت هذا الكتيب إلى لغة عالمية حية)، قصتنا مع اليهود، موقفنا من الحضارة الغربية، ارحموا الشباب، من غزل الفقهاء، القضاء في الإسلام، طريق الجنة وطريق النار، الرزق مقسوم ولكن العمل له واجب، طريق الدعوة إلى الإسلام، صلاة ركعتين، من شوارد الشواهد، تعريف موجز بدين الإسلام[2].

وللشيخ أعمال جمة ما بين المقالات والروايات والقصص والمسرحيات وله مشاركات أدبية لم تنشر لسبب ضياعها أو لرفض الكاتب لنشرها. مثل كتابه (مناظرات وردود) وفيه معارك أدبية وفكرية دخل الشيخ في شبابه ونقد كتابا ومعاصرين، لم ينشره لأنه يرى أن أسلوب الكتاب غير صحيح ولا محمود. كما له رواية باسم (حسن الخراط) نشر بعض القصص والفصول منها في مجلة (الناقد) ثم أوقفت المجلة بأمر الفرنسيين، ويرى أن الأصول لهذا الكتاب قد ضاعت بعد. وللشيخ علي الطنطاوي مشاركات طيبة

---

[1] ديرانية، مجاهد مأمون، علي الطنطاوي أديب الفقهاء وفقيه الأدباء، ص 31.

[2] آل مريع، أحمد بن علي، علي الطنطاوي كان يوم كنت، ص 90-91.

في الإذاعة والتلفزيون كما سلف ذكرها في المبحث السابق، وله نشاطات ملموسة في المؤتمرات والندوات[1].

أدب علي الطنطاوي:

كان أدب الطنطاوي أدبا هادفا للإصلاح الاجتماعي والعود الجديد إلى الدين الحنيف والسعي الحثيث لخلق الجو للأدب البنائي أو بأصح تعبير ومصطلح للأدب الإسلامي القويم فكان غرضه الأصلي الدعوة إلى الله بقلمه ولسانه ومن خلال مقاله وكتاباته الأدبية، ودحض الأفكار الفاسدة الهدامة والنزعات اللادينية التي تسربت إلى أبناء الأمة الإسلامية عن طريق الرواية والمسرحية والمقالة والصحافة والمجلات والأفلام الماجنة. فكان الشيخ من أبرز الدعاة الإسلاميين عن طريق الأدب الهادف السليم، وهو أحد مؤسسي رابطة الأدب الإسلامي العالمية بمكة المكرمة مع الشيخ العلامة أبي الحسن الندوي أن يرى أبناء أمته قائدا في علم وأدب وفن."إن الشيخ علي الطنطاوي هو من العلماء البارزين الذين كانوا يؤمنون بواجب الدعوة إلى الله بالكلمة الطيبة والأدب الهادف، فالدعوة عنده بث الأفكار، وعرض الحقائق على أفراد الناس في المجالس،

[1] نفس المصدر ص 89.

والمجامع، والطرق وفي كل مكان بالأسلوب المناسب، والتعبير الموافق لما تقتضيه الحال من غير دخول في جدل، أو اشتباك مع مخالف"[1].

لقد كان الشيخ أديبا ومصلحا ومؤرخا وصحفيا وقاصا وكل هذا كان لخدمة الإسلام والتربية للجيل الجديد على خطة هادفة خطها لنفسه طول حياته فمهما كتب وصنف وعلم ودرس وخطب ونصح كانت نيته إرضاء الله تعالى وتبليغ دعوته ورسالته، وكان من مقاصده السامية أن ينبت من أبناء أمته نباتا حسنا، وتثمر تربيته بثمار تؤتي أكلها كل حين بإذن ربه للبشرية جمعاء يقول عن نفسه في كتابه "من حديث النفس" "أنا أكتب في المجلات والصحف وكتبت أكثر من عشرة آلاف صفحة[2]" والشيخ الطنطاوي "لقد كتب للصغار وكتب للكبار. كتب سلسلة حكايات من التاريخ "وهي من أدب الأطفال" وألف للكبار كتبا كان محورها الأساسي التوجيه والنقد الاجتماعي الذي ينبع من رؤية إسلامية واضحة وصحيحة بأسلوب أدبي سهل ورشيق يترك أثره في القارئ، وإنني أعتقد أن ما كتبه في طريق التربية والإصلاح، وعنوانه "في سبيل الإصلاح" وآخر بعنوان "رسائل الإصلاح"، صيغتهما كلمة الإصلاح والنقد الاجتماعي البناء وهذه النقطة وهذه

---

[1] با طاهر، ابن عيسى، أدبيات ابن الجوزي في منظور الشيخ علي الطنطاوي، مجلة الأدب الإسلامي، ص 73.

[2] علي الطنطاوي، من حديث النفس، ص 6.

هي الظاهر الطامة تنضوي تحتها كل مؤلفات الأستاذ الشيخ علي الطنطاوي- يرحمه الله-"[1].

لقد ألف الشيخ علي الطنطاوي في أكثر فنون الأدب، فمنها المقالة والقصة والمسرحية وأدب الأطفال، والسيرة الذاتية، فهذه المؤلفات محتوية على موضوعات مختلفة ومشتملة على مجالات متنوعة مما هي إحياء الدين والدعوة إلى الدين والإصلاح والفلاح، والدفاع عن حياض الإسلام والزود عنه، ومحاربة الضالين المفسدين والرد على المنحرفين والمبتدعين، والنقد اللاذع على المستعمرين واليهود، ومعالجة قضايا وهموم عامة الناس وحل عضلات الناس ومشكلاتهم. وكان رأيه السديد طول عمره أن الأدب "إنما هو لخدمة الدين والوطن والأخلاق، فإن خلا من أي من هذه فهو هذر لا قيمة له"[2].

وأما موقفه من الأدب فبما كان معتزا بالثقافة الإسلامية مفتخرا بمآثر الإسلامية فلم يركن ولم يجنح إلا إلى الأدب الإسلامي الرفيع، وكان يريد أن يجعل نفسه خير خلف لخير سلف، تم تربيتة وتثقيفه على أسس وضوابط إسلامية خاصة. فكان أثرها انعكست وتجلت في آثاره وميراثه الأدبي المجيد. "فله ما يزيد عن أربعين كتابا فإذا بدأت قراءة

---

[1] الخميسي، أحمد حسن، الشيخ علي الطنطاوي مربيا إسلاميا، مجلة الأدب الإسلامي، ص 116.

[2] ديرانية، مجاهد مأمون، علي الطنطاوي أديب الفقهاء وفقيه الأدباء، ص 36.

واحدا من هذه الكتب لا تكاد ترغب أن تتركه حتى لو هاجمك النعاس: قصص من التاريخ، رجال من التاريخ، في التحليل الأدبي، سلسلة أعلام التاريخ وغير ذلك ففي كل ما يكتب هو مؤرخ وأديب وناقد في وقت واحد"[1].

يقول الأستاذ الشيخ أبي الحسن الندوي عن أدبه" الأستاذ علي الطنطاوي من كبار الكتاب الذين أنجبتهم الأمة الإسلامية في هذا العصر تجمع بين الرشاقة والجزالة، ومحاسن القديم والجديد، وتدل على اقتداره على اللغة وبلاغته في التعبير، ويعتبر في طليعة أدباء العربية ومن أقدر كتابها، وصاحب طريقة وأسلوب فيها"[2]. ويقول عن أدبه الشيخ يوسف القرضاوي" لقد كان الطنطاوي مشعلا من مشاعل الهداية، ونجما من نجوم التنوير، ولسانا من ألسنة الصدق، وداعية من دعاة الحق، والخير والجمال، وكان يجمع في عظاته بين العلم والأدب، أو بين الإمتاع والإقناع، ويتجلى فيما سطره يراعه من كتب ومقالات"[3]. يقول عن أدبه وثقافته الدكتور عبد الرحمن صالح العشماوي في مقدمة على كتاب تشبيهات علي الطنطاوي: "إنه الشيخ علي الطنطاوي فقيه الأدباء وأديب الفقهاء،

---

[1] عدنان النحوي، إشراقة النبوغ في حياة العلامة الشيخ علي الطنطاوي، مجلة الأدب الإسلامي ص 32.

[2] الندوي، أبو الحسن، مختارات من أدب العرب، الجزء الأول، ص 149.

[3] مجلة المجتمع، العدد 1710، 2006، ص 40.

صاحب الثقافة الموسوعية، المؤيدة بأصالته العربية الإسلامية، الموشاة بروحه المرحة الأبية ونفسه القنوعة الرضية"[1].

استعراض مؤلفاته الأدبية:

والآن أريد تسليط الضوء على ثلاثة كتب أدبية للشيخ علي الطنطاوي اخترت هذه الكتب لأنني لمست في هذه المؤلفات نمطا خاصا خالصا للأدب لا غير من حيث المضمون والأسلوب، وأحسست بالذوق الأدبي في هذه الكتب الثلاثة.

صور وخواطر:

هذا الكتاب يضم خمسا وعشرين مقالة قيمة ذات فكر وبحث عميق كتبها الشيخ ونشرها في الصحف والمجلات في أزمنة مختلفة وفي ظروف متباينة وأذيعت بعض هذه المقالات في الإعلام الوطني، ومعظم المقالات التي كتبها الشيخ وما ناهز من عمره ثلاثين سنة. ومعظم كتب علي الطنطاوي هي مجموعة مقالات متناثرة في الجرائد والمجلات، ثم جمعها ورتبها ونسقها من ترتيب موضوعي أدبي ثم نشرها، ومن هذا الاستنتاج هذا الكتاب الذي بين أيدينا الآن، وهو من منشورات دار المنارة بجدة.

---

[1] الهذيلي، ناصر بن عبد العزيز، تشبيهات علي الطنطاوي، ص 10.

وهذا الكتاب "صور وخواطر" وسائر الكتب من الآداب سنتكلم عن بعضها في الصفحات الآتية بإذن الله قد طبعت من غير تبديل أو تعديل كما كتبت في بداية الأمر ولم يزد عليها ولم ينتقص منها شيئ[1]. ولكن بعدما مضت خمسون وستون عاما، نجد لهذه المقالات قيمة أدبية علمية عظيمة فمضامينها محكمة قوية ومعاني سامية جديدة وأحكامها وآرائها صحيحة وسديدة، وهذه الميزة دالة على النبوغ والكمال لعلي الطنطاوي.

وهذا الكتاب يتطلب من القارئ والدارس الإحساس العميق والتفكير البالغ في بعض المشاكل والصعوبات التي تعاني منها البشر عامة والعرب خاصة، وهذا الكتاب يحث على البحث والتفكير في موضوعات شتى من أمثال: اللغة العربية، والفقر والبؤس، ومشكلة الحب والزواج، والسعادة، وفلسفة العيد، وفن الكلام. وإن من معاناة القراء والباحثين مما تدعو صاحب الكتاب إلى التفكير فيها من جديد وإلى البحث فيها عن الطريق السوي المستقيم لحل المشاكل والمسائل. يقول الشيخ علي الطنطاوي بمقال عنوانها" لغتكم أيها العرب" "العربية في خطر يا أيها العرب، العربية في خطر يا من يعتز بالقومية، إن اللغة هي ركن القومية الركين، لقد عملت في بناء حضارتنا عوامل مختلفة منذ عهد العباسين، ودخلت فيها (في الفكر والعادات)، عناصر أجنبية يونانية وفارسية وهندية، ولكن بقي الإسلام دينا خالصا وبقيت اللغة عربية خالصة...ما لنا نهمل

---

[1] علي الطنطاوي، أديب الفقهاء وفقيه الأدباء، ديرانية، مجاهد مأمون، ص 42-43.

لغتنا وهي أكمل اللغات وأشرفها، وهي أوسعها، وهي أبلغها. فيا أيها العرب..عودوا إلى العربية فتعلموها وحافظوا عليها، وانشروها وأخلصوا لها. فإن من العار علينا أن تكون لنا هذه اللغة ونضيعها، من العار علينا أن يصل هذا الكنز إلى أيدينا وأن نفرط فيه".

ومن نفس المضمون والمحتوى هناك مقالات عديدة في هذا الكتاب بما فيها "مقالة في التحليل الأدبي" مقالة طويلة في عشر صفحات، وقد نشر هذا المقال مفردة في أوائل الزمان من الكتابة.

أما معظم محاور الكتاب فهي تدور حول النقد الاجتماعي، والحب وأنواعه، ومحاسبة النفس وتربيتها، والنقد على الثقافة الغربية والتحذير منه، وحول التعليم والتوجيه الديني والخلقي. فمن يقرأ هذه المقالات تجد نفسه أمام بحر فياض يسبح مع الشيخ الطنطاوي ويسير معه باتجاهه الخاص الذي يريده دون أن يعترضه صعوبات الفهم والتعقيد. والشيخ الطنطاوي صاحب أسلوب خاص يجتنب عن وعورة الكلمات والتعقيد المعنوي وخشونة الأسلوب. وفي هذا الكتاب صور للمجتمع وخواطر للشيخ علي الطنطاوي تجاه نفسه ودينه الحبيب.

يقول الشيخ درمش في مقاله المعنون بـ "الطنطاوي "صور وخواطر" قراءة ثانية" في ختام كلامه عن هذا الكتاب وكاتبه "فهذا هو شيخ الأدباء، وأديب الشيوخ علي الطنطاوي، كل كلمة يكتبها، ولك عبارة يصوغها، وكل فكرة يطرحها يهدف بها إلى غاية

الإصلاح..إصلاح الإنسان على أساس من الدين القويم، وأقرأ ما شئت فلست بواجد عنده العبارة الجافة ولا الأسلوب الجافي، ولا الفكرة الغامضة. فهو مع الناس كنفسه، وسره كعلانيته، ووعظه كأدبه، وأدبه مستمد من البيان القرآني والهدي النبوي[1]". فهذا الكتاب القيم في باب الأدب قد طبع مرارا وتكرارا يتناوله العام والخاص من الطلاب والباحثين والأساتذة والعلماء ففيه ما فيه من علم غزير وأدب رفيع ودعوة إلى الإصلاح الاجتماعي وإلى الأخلاق النبيلة القرآنية.

مع الناس:

وهذا الكتاب في باب الاجتماع كما يتبين من عنوان الكتاب، فجل مقالات هذا الكتاب يتحدث عن الناس ومشكلاتهم وصعوباتهم من الفقر والبؤس والاضطهاد السياسي الاستعماري، وكما قيل الأدب مرآة المجتمع فهذا الأدب الذي دبجه يراع الشيخ علي الطنطاوي فهو ينوب عن أحوال المجتمع الإنساني المتواجد في الشام عامة وفي العالم العربي خاصة.

أنقل فيما يلي حديثه عن الفقر ودعوته الناس لمساعدة الفقراء والمساكين ويقول في هذا الصدد متفلسفا: "ومهما كان المرء فقيرا فإنه يستطيع أن يعطي شيئا لمن هو أفقر منه،

---

[1] درمش، شمس الدين، الطنطاوي "صور وخواطر" قراءة ثانية، مجلة الأدب الإسلامي، ص 105.

إن أصغر موظف لا يتجاوز راتبه مئة وعشرين ليرة، لا يشعر بالحاجة ولا يمسه الفقر إذا تصدق بليرة واحدة على من ليس له شيئ، وصاحب الراتب الذي يبلغ أربعمئة ليرة لا يضره أن يدفع منها خمس ليرات ويقول: هذه لله. والذي يربح عشرة آلاف من التجارة في الشهر يستطيع أن يتصدق بمئتين منها في كل شهر. ولا تظنوا أن ما تعطونه يذهب بالمجان، لا والله أنكم تقبضون الثمن أضعافا، تقبضونه في الدنيا قبل الآخرة"[1].

ولا يقف الشيخ علي الطنطاوي إلى هذا الحد بل يحث القارئ على الإنفاق والصدقة على الفقراء والمساكين والمتسولين وبأن الله يعطي أرباحا كثيرة وأضعافا مضاعفة بما تعطونه أنتم يوم القيامة " مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة، والله يضاعف لمن يشاء[2]". ويشارك معهم تجارب حياته مع الفقر والبؤس بالعطاء والصدقة، ويتابع المزيد محشوا بالإيمان واليقين: "وما وقعت والله في ضيق قط إلا فرجه الله عني، ولا احتجت لشيئ إلا جاءني، وكلما زاد عني عندي وأحببت أن أحفظه وضعته في هذا (البنك)"[3].

---

[1] علي الطنطاوي، مع الناس، ص 9.

[2] القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية 261.

[3] نفس المصدر، ص 9.

ومعظم مقالات هذا الكتاب أذيعت من إذاعة دمشق حينما كان يلقي الطنطاوي حديثا أسبوعيا كل يوم الجمعة، هذه المقالات كلها تعالج قضايا المجتمع العربي والإسلامي من صعوبات ومشاكل سعيا إلى الإصلاح والتوجيه، وهذه المقالات مشتملة على النصائح القيمة والآراء السديدة والخبرات العملية وحث الشيخ الطنطاوي الجمهور عن طريق هذه المقالات على التعامل مع الناس بالرفق واللين والمحبة.

من أهم القضايا للأمة المسلمة وأبنائها أنهم لا يبالون بضياع الوقت، يخلفون الوعود والأحلاف، حتى معظمهم لا يفهمون أن هذا من باب الإثم والكبائر، والشيخ علي الطنطاوي قد شاهد أن هذا المرض قد عم وطم وانتشر في عامة الناس وخاصتهم لذلك اهتم بهذا الأمر ونصح بمقالاته الخاصة بهذا الصدد، ويدلي برأيه في هذا الباب، ومن مقالاته "لصوص الوقت" و"لا تؤجل" و"الوعد الشرقي" يقول فيه متعجبا وحيرانا : " أليس عجيبا أن صار اسم "الوعد الشرقي" علما على الوعود الكاذبة، واسم "الوعد الغربي" علما على الوعد الصادق؟ من علّم الغربيين هذه الفضائل إلا نحن؟..أو لم يجعل الإسلام إخلاف الوعد من علامات النفاق، وجعل المخلف ثلث منافق؟ فكيف نرى- بعد هذا- كثيرا من المسلمين لا يكادون يفون بموعد ولا يبالون بمن يخلف لهم وعدا،حتى صار

التقيد بالوعد والحرص عليه نادرة يتحدث بها الناس؟ فمتى يجيئ اليوم الذي نتكلم فيه كلام الشرف، ونعد وعد الصدق؟..فابدؤوا بإصلاح الأخلاق، فإنها أول الطريق[1]".

وفي هذا الكتاب حديث عن مشاكل الزواج والحب وعن النساء الكثيرات ومنها "مشكلة الزواج" و"الحب والزواج" و"في الزواج" و"السن المناسبة للزواج"، كما له مقالات طويلة وفتاوى سديدة تجاة مشكلات الشباب في كتاب فتاوى علي الطنطاوي[2]. يقول في "مشكلة الزواج" محللا وناقدا: "أما أسباب مشكلة الزواج فأولها نظام التعليم، إن هذا النظام يعارض فطرة الله، ويخالف طبائع النفوس..والسبب الثاني، هذه العادات الشنيعة في الزواج، إنها هي للتفاخر أمام الناس، وللتكاثر والتسابق إلى التبذير والسرف، من المباراة في زيادة المهور وشراء جهاز الفخم..والسبب الثالث، أن أكثر الأزواج تركوا الشرع، ولم يقفوا عند حدوده، والسبب الرابع الفساد الخلقي الذي هو نتيجة لقلة الزاواج. والسبب الخامس، هو نتيجة التعريف الذي بدأت به الحديث، أما قلت لكم إن مشكلة الزواج هي وجود آلاف مؤلفة من البنات بلا أزواج، ووجود آلاف مؤلفةمن الشباب بلا

---

[1] نفس المصدر ص 72-76.

[2] ديرانية ، مجاهد مأمون، فتاوى علي الطنطاوي، ص141-148.

زوجات. والخلاصة أن في البلد مشكلة زواج، وأن هذه المشكلة مرتبطة بمشكلة الفساد والأخلاق، ولا تحل أحداهما إلا بحل أخرى[1]".

وفي هذا الكتاب مقالات وأحاديث عن الدعوة إلى الخير والكرم بعنوان "أحسن كما أحسن الله إليك" و"رمضان" و"حديث العيد" كما نجد العناوين اللامعة على موضوع طريق السعادة الدنيوية والأخروية مثل "نحن المذنبون" و"طريق السعادة" و"الوصايا" و"هذا نذير للناس" يقول الطنطاوي مليئا بالغيرة الإيمانية وبالإحساس الشديد: "فهل استيقظنا؟ إذا لم توقظنا هذه المدافع المدوية، إن لم ينبهنا لذع النار، فما والله لا يوقظنا شيئ[2]".

وخلاصة القول أن هذا الكتاب يدعو إلى مكارم الأخلاق وترك المنكرات والخرافات، وحل المشاكل والعراقيل المتواجدة في المجتمع ومعالجة مشكلات الشباب والشابات من الحب والزواج، ففيه إنذار وتنبيه، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف. ويبدو خلال دراسة هذا الكتاب محبة الداعية الإسلامي الكبير وإخلاص الأديب الصالح. يضم هذا الكتاب بين دفتيه أربعين مقالة بين ما نشر كلها في الثلاثينيات إلى الخميسينيات، وهو يقع في 225 صفحة من القطع المعتاد، وهو من منشورات دار المنارة بجدة.

---

[1] المصدرنفسه، ص 83-86.

[2] نفس المصدر، ص 39.

هتاف المجد:

هذا الكتاب مجموعة مقالات من خطب ألقاها الشيخ علي الطنطاوي في المهرجانات والاحتفالات أو في المساجد، وكما في هذه المجموعة مقالات نشرت في الصحف والجرائد أم أذيعت في الإذاعة. ففيه خمس وثلاثون مقالة، أما ما يتعلق بزمان النشر لهذه المقالات فهو ممتد من الثلاثينات إلى الخمسينات من القرن العشرين. والكتاب يقع في 230 صفحة من القطع المعتاد، وهذا الكتاب من الطبعة الثالثة الذي بين أيدينا وهو من منشورات دار المنارة، جدة سنة 1996م.

لا يختلف إثنان في أن العالم العربي في مطلع القرن العشرين كان في قيد الكابوس للاحتلال الغربي الغاشم، وكان الناس يعيشون في ظلم وقهر، وبؤس وشقاء، وفقر ومجاعة، وجهل وظلام، فكان من أوجب الواجبات على مثل الأديب الشيخ علي الطنطاوي أن ينادي الكبار والصغار ويخاطب الجمهور ويوقظ عامة الناس ويدعو هم إلى التسلح أمام العدو المبين وإلى الاتحاد أمام القوة الشديدة المتينة. وقضية الأمة العربية كانت شغلا شاغلا لأدب علي الطنطاوي منذ وعييه إلى وفاته. أنقل هذه القطعة الحماسية التي وستقرأها كل امرأة ويتلوها كل رجل وهي مأخوذة من مقالة معنونة بـ"خطبة الحرب" يخاطب فيها الشيخ الطنطاوي: "إنها معركة الخير والشر قد عادت، ونحن أبدا حملة لواء الخير في الدنيا، نحن حماة الحق في الأرض، ما أضعنا الأمانة التي وضعها

على عواتقنا خمسة ملايين من شهدائنا نثرناهم في الأرض طوال القرون. هذا تاريخنا، ما سمعت أذن الزمان تاريخا أحفل منه بالمفاخر وأغنى بالنصر، وأملأ بالأمجاد – ووالله – الذي جعل العزة للمؤمنين وجعل الذلة لليهود، لنكتبنّ هذا التاريخ مرة ثانية، ولنتلون على الدنيا سفر مجد ينسى ما كتب الجدود، ولنجعلن أساسه ضربا لا تثبت له شوامخ الصم من أجلاد الكرمل ولا هام المردة من شياطين الجحيم، فكيف برؤوس اللصوص الغاصبين؟ ولنحاربنّ بالنار والحديد والبارود، وبالسيوف والخناجر والعصّى، فإن لم نجد السلاح حاربنا بأيدينا. ولنسوقن إلى الحرب شبابا أنضر من الزهر، وأبهى من الضحى، وأثبت من الجبل، وأمضى من العاصفة فإن لم نجد يوما شبابا سُقنا إليها الشيوخ والأطفال والنساء. فيا أيها العرب في كل أرض، يا أيها المسلمون تحت كل نجم، يا أيها الرجال ويا أيتها النساء لقد أزفت ساعة المعركة الفاصلة، فليحمل كل منكم نصيبه منها. واعلموا أن الظفر لكم، يا أيها المجاهدون في عمان والجزائر والقرى الأمامية، ويا أيها العاملون على تحطيم آخر صنم للاستعمار في بلاد العرب، اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون[1]".

إذا مسنا الضر يفرح به الغرب واليهود، وإذا مسنا الفرح يكاد يموت اليهود الجبان حقدا وحسدا من عند أنفسهم. وإذا ذهب أي وفد من المسلمين لوضع مرهم على جروح

[1] علي الطنطاوي، هتاف المجد، ص 27–29.

الفلسطينيين، ولإغاثة الملهوفين المظلومين الذين ينادون ويستغيثون. أين المسلمون؟ أين الناصرون؟ أين الطعام والشراب؟؟وأين الطبيب؟ وأين وأين!! فهؤلاء اليهود يعرقلون ويظلمون على الناصرين المساعدين ويمنعهم عن المدد والمساعدة.كم من رجال ماتوا بلا ذنب، وكم من نساء هتكت أعراضهن قهرا بدون أدنى لطف وكرم، وكم من أطفال لم يبلغوا الحلم وقتلوا تقتيلا، ومستشفيات أهل فلسطين دمرت، ومعاهدهم هدمت، وبيوتهم نسفت، فإلى متى يا أيها اليهودي اللعين تفعل هذا وذاك!!

أكثر من هذا الإحساس العميق والشعور الدقيق نجد عند الطنطاوي للقضية الكبرى والطامة العظمى، ألا وهي الحرية والاستقلال لأرض فلسطين، لم يزل يتذكر الطنطاوي هذه القضية طوال حياته، فطاف أرجاء المعمورة لهذه القضية، وشارك المؤتمرات والندوات لسد هذا الثغر. فكلما سنحت له الفرصة للخطابة أيقظ شعور الناس عن الفلسطينيين. وكلما وجد فرصة للكتابة كتب بكل صراحة ووضاحة عن المظلومين المقهورين الفلسطينيين، وكلما ذهب إلى الإذاعة أسمع الناس وأخبرهم عن مسئوليتهم العظيمة تجاه الفلسطين. فإن الطنطاوي يوقظنا في حين نسينا، وينبهنا في حين تغافلنا، في هذا السياق علينا أن نقرأ مقالا له، "لا تنسوا فلسطين" لقد تم إذاعة هذا المقال في سنة 1955م، فهو يقول فيه: "يا أيها السامعون، أمامي الآن عدد من جريدة ألف باء منذ نحو ربع قرن، منه مقالة لي أنبه فيها وأوقظ وأسأل العرب كيف يستمرئون لذيذ الطعام،

وكيف يستسيغون عذب الشراب، وكيف ينامون على لين الفراش، وفلسطين على فم البركان، وفلسطين على شفير الضياع. وهآنذا اليوم أعود فأسأل العرب: يا أيها العرب، إني لا أخشى شيئا كما أخشى أن تنسوا قضية فلسطين... لقد وقفنا في "قبية" على أنقاض المدرسة ضربها اليهود بالقنابل من سنتين، فمات المعلم والتلاميذ. ونبشنا الأنقاض، ورأينا هيكل طفل صغير يشير بيد من عظمٍ، يفتّش في الأرض عن عربي من الثمانين مليونا، عن مسلم من الخمس مأة مليون، ينقذه من الحفنة من شذاذ الآفاق فلم يجد"[1].

وفي مقالته المعنونة بـ"القول للسيف ليس القول للقلم" يقول: "ولن تدوم للصهيونيين دولة في فلسطين ما دام المسلمون في الأرض والله في السماء"[2]. كما له مقالات منثورة عن الفلسطين بنفس الكتاب مثل "أسبوع التسلح وفلسطين" و"في افتتاح التسلح" و"يا أهل فلسطين" و"في ليلة الإسراء" وهذه المقالات خير دليل على قلق الطنطاوي الشديد وفكره الدائم عن قضية الفلسطين.

وإنه ملأ الحماس والعزم القوي، والغيرة الإيمانية، والقوة الفكرية العالية في نفوس العرب الأقحاح الذين أصبحوا واهني العزم، خائري القوى، خاملي الذكر والفكر، أن

---

[1] نفس المصدر، ص 61-66

[2] نفس المصدر، ص 55-56.

يستعدوا ثقة أنفسهم تجاه مسئوليتهم أمام عدوهم المبين وتجاه مسئوليتهم الكبرى، ألا وهو التسلح والتجند أمام الغرب واليهود. يقول في مقال بكل رزانة وحلم وغيرة إيمانية شديدة تحت عنوان "إلى السلاح يا عرب": "دربوا الناس على القتال، إجعلوا من الشباب جنودا مستعدين ليوم الكريهة، وسخروا الصحف والمجلات لبث القوة والرجولة في صدور الرجال. إلى السلاح–ياعرب. إلى السلاح–فنحن في حرب ما بقي في فلسطين يهودي واحد. إلى السلاح–فنحن في حرب ما بقي في القناة إنكليزي واحد. إلى السلاح–فنحن في حرب ما بقي في تونس أو في مراكش أو أي قطر عربي أجنبي واحد. إلى السلاح–ياعرب"[1].

وله مقالات في هذا الباب بعناوين مختلفة مثل "إلى السلاح ياعرب(2)" "يا أيها العرب" "القول للسيف ليس القول للقلم" "إلى حامي الإسلام" "من حديث الجهاد" في مثل هذه المقالات إنه يحرض الشعب العربي على الجهد والجهاد وعلى التسلح والتجند للذود عن أنفسهم وحياتهم والشعوب الإسلامية المختلفة.

[1] نفس المصدر: ص 91.

الباب الثالث: فن السيرة الذاتية في الأدب العربي

المبحث الأول: فن السيرة الذاتية: لغة ومطلحا وفنا

المبحث الثاني:نشأة السيرة الذاتية وأصنافها

المبحث الثالث: تعريف بمؤلفات الطنطاوي في مجال السيرة الذاتية

المبحث الأول: فن السيرة الذاتية: لغة ومطلحا وفنا

السيرة لغة ونشأة:

أما كلمة السّيرة (بكسر السيين) فهي مأخوذة من المادة اللغوية السّير (س ي ر)، بمعنى المشي والذهاب. بعد هذا التوضيح علينا أن نلاحظ ما يقوله اللغويون بخصوص هذه الكلمة. ففي المعجم الوسيط: "سار سيرا، وسيرة، وتسيارا، ومسارا، ومسيرة: مشى. وسار السنة أو السّيرة: سلكها واتّبعها. وسيّر فلان سيرة: حدّث بأحاديث الأولين، وكما وردت السيرة بمعنى السنة والطريقة، والحالة التي يكون عليها الإنسان وغيره، أما الكلمة السيرة النبوية وكتب السير: فهي مأخوذة من السيرة بمعنى الطريقة وأُدخل فيها الغزوات وغير ذلك، ويقال قرأت سيرة فلان: قرأت تاريخ حياته، وجمع هذا المفرد سير[1].

ويقول صاحب تاج العروس: "السيرة (بكسر السين) السنة والطريقة، سارت سيرتها، والسيرة: الطريقة يقال: سار الوالي في الرعية سيرة حسنة أي طريقة حسنة. والسيرة: الهيئة، وبها قوله تعالى:"سنعيدها سيرتها الأولى". ويقال: هذا في سير الأولين أو هذه سيرة فلان أي طريقته وسنته"[2]. ويقول الفيروزآبادي صاحب القاموس المحيط بأن

---

[1] المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية القاهرة، مادة سير، ص 467.

[2] الزبيدي، السيد محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، الجزء الثاني عشر، ص 116-118.

"السيرة بالكسر السنة والطريقة والهيئة والميزة"[1]. فهذه اللغات تفيدنا علما بأن كلمة السيرة تأتي لغة بمعنى الطريقة التي ينهجها شخص في حياته. والسيرة هي تاريخ حياة شخص، مثل السيرة النبوية الشريفة وسير الخلفاء والأمراء والشعراء والفلاسفة.

كما جاء في معجم مصطلحات الأدب : "السيرة، تاريخ الحياة، ترجمة الحياة.

1-تاريخ مدون لحياة شخص ومثال ذلك، " حياة صلاح الدين الأيوبي" للدكتور أحمد بيلي.

2- فن ترجمة الحياة لشخص ما.

3- الجنس الأدبي لقص ترجمات الأشخاص"[2].

من قديم الزمان كان الناس يهتمون بسير العظماء وتاريخ الأمراء، ولكن اهتم المسلمون بهذا الفن كي يكتبوا سيرة أعظم البشر وأكبر صانع التاريخ ألا وهو محمد بن عبد الله الأمين صلّى الله عليه وسلم. في هذا الباب يظهر لنا أن السيرة اختصت أولا بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم و من ثم شاع استعمال كلمة السيرة بمعنى ترجمة الحياة وخاصة بحياة الرسول صلّى الله عليه وسلم. وسلّط الضوء صاحب الموسوعة فواز الشعار على اهتمام المسلمين بفن السيرة بعد بزوغ فجر الإسلام إلى نهاية عصرنا، فيقول

---

[1] الفيروز آبادي، مجد الدين، القاموس المحيط،، مادة سير ص 412.

[2] مجدي وهبة، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مادة السيرة، ص 205.

في الموسوعة الثقافية العامة: "كتابة السيرة قديمة العهد في الأدب العربي، وقد تناول الرواة والمؤرخون عظماء التاريخ، وصوّروا حياتهم لتكون منارة للأجيال لما فيها من طرافة ولذة وعبرة في آن معا. ومن أشهر السير: السّيرة النبوية التي تتضمن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم منذ حداثته إلى وفاته، مرورا بتلقيه الوحي، ونشر الدعوة، وأقواله وأفعاله وأخلاقه..كتبها ابن هشام (ت 218هـ834م)، مستندا إلى سيرة محمد بن إسحق (ت 153هـ769م)، ثم عباس محمود العقاد الذي كتب "عبقرية محمد" وطه حسين "على هامش السيرة"، وغيرهم. وفي خزائن التراث العربي كنوز من السير الرائعة التي عنيت بالمشاهير في مختلف الميادين. فبالإضافة إلى السيرة النبوية، نجد سير الصحابة، والفقهاء، والعلماء، والشعراء، والفلاسفة والحكماء والأطباء..."[1]

بيدما يرى محمد كامل حسين أن السيرة النبوية قد تأثرت بفن السيرة في مصر التي كانت شائعة فيها منذ زمن الفراعنة والأقباط الذين كتبوا سير من سبقوه من الآباء والقديسين. يقول الأستاذ في هذا الصدد: "وفي مصر الإسلامية ظهرت هذه الحلقات المتتابعة في فن السيرة، ولعل أولها ما قيل من أن ابن إسحاق صاحب السيرة النبوية وفد على مصر وروي بها السيرة، ووفد ابن هشام على مصر وروي بعض أجزاء السيرة عن المصريين. وبلغت عناية المصريين بالسير وكلفهم بهذا الفن أنهم وضعوا للشعب سيرا

[1] فواز الشعار، الموسوعة الثقافية العامة، الأدب العربي، ص 176.

عن أبطال أحبهم المصريون وردد الشعب هذه السير في اجتماعاته وحلقاتهم، مثل سيرة عنترة بن شداد وسيرة الهلالية[1]". وللعلماء كتب ومؤلفات كثيرة في السير. وهناك الحديث عنها بالتفصيل ليضيق به هذا المكان إذا حاولنا حصر وتصنيف العدد الكثير من الكتب والكتاب الذين أدلوا بدلائهم في باب السيرة والترجمة.

ونحن الآن بصدد السيرة الذاتية فقط. وأما السيرة الذاتية فهي فرع من السيرة الغيرية، وهي تعد شعبة من التراجم والسير، ففي السطور الآتية سنتحدث بقدر من التفسير عن السيرة الذاتية.

تعريف السيرة الذاتية:

السيرة الذاتية أو الترجمة الشخصية هي شرح الإنسان حياته وأعماله بقلمه. ولكن حينما نتصفح الكتب والدراسات حول السيرة الذاتية نجد التعريفات العديدة لها، فلا يوجد تعريف جامع قاطع متفق عليه لدى الأدباء والنقاد لهذا الفن. وهذا يوصلنا إلى أن نعتبر أن السيرة الذاتية مستعصية على التعريف. نذكر في السطور الآتية تعريف السيرة من المعاجم وكتب السيرة الذاتية.

---

[1] حسين ، محمد كامل، في أدب مصر الفاطمية ص 113.

يقدم صاحب معجم الأدبي جبور عبد النور تعريفا للسيرة الذاتية كما يلي: "كتاب يروي حياة المؤلف بقلمه، وهو يختلف مادة ومنهجا عن المذكرات أو اليوميات[1]" ويفسر معناها بقدر من التفصيل صاحب التراجم والسير عبد الغني : "التراجم الذاتية أو الشخصية: هي أن يكتب المرء بنفسه تاريخ نفسه، فيسجل حوادثه وأخباره، ويسرد أعماله وآثاره، ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته وما جرى له فيها من أحداث تعظم وتضؤل تبعا لأهميته[2]". ويقول أنيس المقدسي: "هو نوع من الأدب يجمع بين التحري التاريخي والإمتاع القصصي[3]". ولكن هذا تعريف وجيز وقصير إنه ساقه للسيرة الغيرية والذاتية في الصفحات القليلة لفن السييرة والتراجم. وذهب الدكتور عبد العزيز شرف إلى أن السيرة الذاتية هي "حياة إنسان كما يراها هو" ويتابع فيقول "إن السيرة الذاتية تعبير عن النشاط الذهني والنشاط العلمي في حياة الإنسان من خلال نشاط لغوي، الأمر الذي يجعل من السيرة الذاتية قصة حياة نرويها للآخرين، وكأن من طبيعة الحياة أن تتخذ طابع الرواية المسرودة أو القابلة للسرد[4]".

---

[1] عبد النور، جبور،المعجم الأدبي، ص143.

[2] عبد الغني، محمد حسن، التراجم والسير، ص 23.

[3] أنيس المقدسي، الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، ص 547.

[4] شرف، عبد العزير، أدب السيرة الذاتية، ص 27.

وجاء في معجم المعاني: بأن السيرة الذاتية في الأدب "هي أن يدون أحد الكتاب تفاصيل حياته وأعماله"[1]. ومن أسهل التعريفات للسيرة الذاتية "هي سيرة شخص يرويها بنفسه"[2] ولكن ليس معنى ذلك كلما يكتب شخص يكون سيرة ذاتية فنية، فلها حدود وقواعد وشروط، سنتكلم عنها لاحقا. لذلك يذهب إحسان عباس إلى أن السيرة الذاتية هي حديث عن النفس يكتبه الأديب أو الفنان ولكن هذا الحديث ليس حديثا ساذجا عن النفس ولا هي تدوين للمفاخر والمآثر[3]. وهناك تعريفات عديدة لهذا الجنس الأدبي، وبالرغم من هذه الشروط التي وضعها لا يقدم تعريفا محددا عن السيرة الذاتية. أما التعريف المختصر الجامع كما يقول وليم "السيرة الذاتية هي صورة الذات"[4]

ونجد في اللغة الإنجليزية كلمة autobiography بمعنى السيرة الذاتية، فهي التي يدونها الكاتب عن نفسه وحياته. لكننا لا نجد في اللغة العربية تحديدا وتعيينا للسيرة الذاتية مثل مصطلح خاص في اللغة الإنجليزية. فأحيانا نستخدم سيرة ذاتية أو نستعمل ترجمة شخصية. بينما نجد تحديد معنى autobiography في القاموس الإنجليزي:

---

[1] معجم المعاني، معجم إلكتروني. مادة سيرة.

[2] أبو معاذ، ماهية السيرة الذاتية، مجلة التلميذ، ص 28.

[3] إحسان عباس، فن السيرة، ص 91.

[4] William L. Howarth, Some principle of Autobiography,p 13.

السيرة الذاتية لشخص رواها نفسه[1].ولعلنا نجد تعريف السيرة الذاتية مختصرة جامعة إلى حد كبير في قول البروفيسور دي جي نائك في خاتمة البحث لكتابه Art of Auotbiography: فهو يكتب أن "السيرة الذاتية هي قصة حياة أو سيرة فرد مكتوبة من قبل الفرد نفسه"[2]. معنى ذلك إن السيرة الذاتية هي قصة حياة شخص يحكيها للآخرين ويتحدث فيها عن أفراحه وأحزانه وتجاربه العلمية ومواقفه الأدبية، لذلك السير الذاتية أكبر وسيلة لفهم شخصية الإنسان وطبيعته.

فن السيرة الذاتية:

إن الأدب فن مهم من الفنون اللطيفة، والسيرة فن من الفنون الأدبية النثرية، فألف الدكتور إحسان عباس كتابا على موضوع السيرة وسماه "فن السيرة" وكذلك ألف الدكتور كتابا باسم "أدب السيرة الذاتية" وما إلى ذلك من الكتب في هذا الباب. ويقول فواز الشعار في موسوعته بعنوان السيرة "هي من الفنون النثرية، تتناول حياة أحد المشاهير، فتصور مراحل حياته، والظروف التي أحاطت به، وما رافقها من تجارب وأحداث"[3].

---

[1] Merriam Webster, word: autobiography p. 83.

[2] Naik, D.G. Art of Autobiography, p.212.

[3] فواز الشعار، الموسوعة الثقافية العامة، الأدب العربي، ص 176.

والسيرة الذاتية إحدى شعبة من شعب السير والتراجم[1]. والسيرة الذاتية هي نوع خاص من أدب السيرة وهي حياة شخص كتبها بنفسه ولذلك لا تنته بعد[2].

وهي من أهم الوسائط التعبيرية، خاصة للتعبير عما في الضمير من أحاسيس ومشاعر تجاه حياته وتجاربه في مجالات شتى، من العلم والأدب والفن. فيسجل الأديب أو الشاعر أو الفيلسوف عن نشأته وتطوره وثقافته ووظيفته ودوره الملموس في بعض المهمات الأدبية أو الإدارية أو السياسية، وما إلى ذلك من الشؤون الشخصية أو الاجتماعية. ففي هذا الجنس الأدبي الكاتب يكتب عن نفسه ويدون مراحل الحياة المختلفة ويبين إنجازاته وأعماله.

وتحدث الأديب الأريب سيد قطب عن فن الترجمة الشخصية وفنيتها وعنصرها الأصلي في كتابه "النقد الأدبي أصوله ومناهجه" فهو يقول: "التراجم الشخصية فن حديث من فنون الأدب، انفصل عن علم التاريخ، ودخل عالم الأدب من باب الطاقة الشعورية التي يبثها الأديب في موضوعه، والقيم الفنية التي يضمنها تعبيره. والتراجم على هذا الوضع تشتمل العنصرين الأساسيين للعمل الأدبي: "التجربة الشعورية" و"العبارة الموحة عن هذه التجربة"..فإذا خلت الترجمة من هذين العنصرين، أو أحدهما، استحالت سيرة أو

---

[1] آرمن، سيد إبراهيم، السيرة الذاتية وملامحها في الأدب العربي المعاصر، مقالة، ص 9.

[2] Encyclopedia Britanica, p1010, word, biog.

تاريخا، بعيدا عن عالم الأدب. فمجرد سرد الحوادث والوقائع–مهما بلغ من الدقة والتفصيل والتحقيق– ليس هو "الترجمة" إنما هو المادة الخامة التي تصنع منها الترجمة، حينما يتناولها مؤلف موهوب، فينفخ فيها روحا وحياة، ويستنقذ من خلالها الكائن الإنساني الذي وقعت له، ويجعله تمثيلها كما لو كان حيا، وكنا نحن القراء نشهده مرة أخرى يقوم بما قام به في الحياة، ويعترض طريقه ما اعترض طريقه في الحياة"[1].

دوافع كتابة السير الذاتية:

إن التعبير عن الذات شيئ طبيعي يوجد لدى كل شخص وإنسان، فالإنسان حينما ينال خبرة وتجربة في مجال من مجالات الحياة فهو يريد أن يشارك ما يجد في نفسه من خواطر وذكريات مع أصحابه وذويه. ولو قصر في أداء حقوقه وواجباته يريد التبرير والإعتذار خلال كتابة سيرته الذاتية. وإن أصيب أي شخص في أي مشكلة ونجا منها يريد أن لا يقع فيها شخص آخر، وكذلك إن كان لديه أحلام وتحققت بعد جد وكد ومثابرة فهو يريد أن يرشد الناس إلى الطريق المختصر للوصول إلى الفوز والنجاح. إذا كان أديبا يريد أن يخبر الناس كيف أصبح أديبا وما هي كتبه النافعة التي صنفها؟ وما هو السبب وراء تأليف تلك الكتب أو ذلك؟. وإذا كان فيلسوفا يخبر الناس عن فلسفته الخاصة في مجال السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع، ويشارك مع الناس ما عانى من

[1] سيد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، ص 103.

المشاكل والعراقيل للوصول إلى النتائج في فلسفته الخاصة. وإذا كان سياسيا ينبأ الناس عن فوزه في الانتخابات وكيف وصل إلى العرش وكيف كان تجربته في مجال السياسة. فإذا وجد الإنسان هذا الإحساس الشديد في نفسه فهو يدفعه إلى كتابة السيرة الذاتية. يقول البروفيسور دي جي نائك تعريفا عن هذه العاطفة الصادقة المتواجدة في الإنسان. فهو يقول: "الرغبة في الكشف عن الذات هي عاطفة طبيعية تماما توجد لدى كل بشر تقريبا، والسيرة الذاتية شكل طبيعي وخير وسيلة ومناسبة للتعبير عن الذات. ونتيجة لذلك، ظهرت العديد من السيرة الذاتية في الماضي والحاضر[1]". تشترك الدوافع العديدة في كتابة السيرة الذاتية ذكرها عبد العزيز شرف ومنها الدافع الرئيسي الأساسي تخفيف عبئ الشعور بالذنب الذي اقترفه صاحبه فهو يريد الاعتراف به، والدافع الثاني هو من قبيل الدفاع عن نفسه وعن عمله ويبرر نفسه عن بعض الاتهامات الكاذبة التي لصقت به، كما يُكتب بعض السير الذاتية للاستكشاف عن الذات وإرضاء النفس[2].

وفي هذا الإطار يقول وليام ماثيوس كما يلي: "قد بدأ بعض الناس يكتبون عن حياتهم وتاريخ عائلاتهم، ولكن من المهم والضروري في كتابة السيرة الذاتية هو تسجيل التاريخ المعاصر الذي عاصره وعايشه ودوره الذي لعب فيه، وهذا هو المحرك العام

---

[1] Naik, D.G. Art of Autobiography, p 3.

[2] شرف، عبد العزيز، أدب السيرة الذاتية، ص 45.

لكتابة اليوميات والسير الذاتية[1]". يقول متحدثا عن الدوافع والبواعث التي تؤدي إلى كتابة السير الذاتية" من أقوى البواعث على كتابة السير الذاتية، وإذا كان متهما في أنظار الناس وعند الحقيقة، وإذا كان يحس بعظم الرسالة التي وكلت إليه، والناس من حوله لا يقدرونها ولا يأبهون بها، كان الكشف عن دخائل الأمور المتصلة بحياته، طريقه الطبيعي إلى إحقاق الحق وإعلان الصدق، ووراء كل سيرة هذا الدافع النفسي أو ذاك، وغاية مرصودة، لا يعلن صاحبها عنها، لأنها كالصورة الكلية للعمل الفني، تظل غائمة، حتى تكتمل السيرة"[2].

وبإمكان المؤلف أن يؤلف سيرته الذاتية متى يريد ويشاء في سن مبكرة أو في سن متأخرة، ليس هناك عمرا محددا معينا للكتابة السيرة الذاتية يقف عنده صاحبه للكتابة السيرة، فإن نيتشه كتب سيرته وكان عمره لم يناهز الأربعين، ودبج سلامه موسى حياته وسيرته الذاتية حين بلغ من عمره الستين، وأحمد أمين فعل كذا، ولكن يعتقد معظم الأدباء أن الإسراع في كتابة السير الذاتية في سن مبكرة يفوت كثيرا من الأشياء والتجارب وقبل أن تتجلى أمامه عينيه الدنيا بمخاطرها ومصائبها وأفراحها وأحزانها.[3]

---

[1] William Matthews, Ralph, W. Rader, Autobiography, Biography and the novel, p 5.

[2] إحسان عباس، فن السيرة، ص 100.

[3] نفس المصدر ص 100-101.

المشابهة والمفارقة بين السيرة الذاتية والسيرة الغيرية:

المفكر الإنجليزي توماس كار لايل يقول: "السيرة حياة الإنسان"[1]. ولكن هناك فرق ما كتبه شخص عن نفسه وماكتب شخص عن غيره. فمن كتب حياته بنفسه فهي السيرة الذاتية. ومن كتب حياة الآخر فهي السيرة الغيرية. ونجد في اللغة الإنجليزية مصطلحا واضحا autobiography للسيرة الذاتية التي يدونها الكاتب عن نفسه وحياته، بينما نرى مصطلح biography[2] السيرة التي يدونها كاتب عن شخص آخر. كما نجد تحديد معنى autobiography في القاموس الإنجليزي : السيرة الذاتية لشخص رواها نفسه[3]. ونجد معنى كلمة biography في القاموس الإنجليزي: تاريخ لحياة شخص[4].

لكننا لا نجد في اللغة العربية تحديدا وتعيينا بذلك الضبط والوضوح للسيرة الذاتية، فأحيانا نستخدم سيرة ذاتية أو نستعمل ترجمة ذاتية. ونستعمل إصطلاح سيرة أو ترجمة بصفة عامة إذا كانت سيرة الإنسان مكتوبة بكاتب سواه.

---

[1] نبيل راغب، فنون الأدب العالمي، ص 46، .

[2] Oxford collocations dictionary for students of English, p 47

[3] Merriam Webster, word: autobiography, p 83.

[4] Oxford collocations dictionary for students of English, p 66.

وهناك تشابه وتفارق بينهما، أما التشابه فكلاهما يتحدثان عن المحيط بهما والأحداث والوقائع التي أثرت فيهما، كما يتحدثان عن الولادة والثقافة والوظيفة والأعمال والإنجازات العلمية والأدبية وغيرها، وكلاهما يكتبان في فن واحد والمواد واحدة. ولكن مع ذلك هنا فروق مميزة بينهما فأحدهما يتكلم بصيغة المتكلم والآخر يتكلم بصيغة الغائب. والسيرة الذاتية نقل مباشر عن الذات وأما السيرة الغيرية نقل غير مباشر بكونها سيرة الآخرين. فصاحب السيرة الذاتية ينقل الأحداث والوقائع كما شاهد وعاين وعاصر. أما صاحب السيرة الغيرية فهو يتحدث بناءا على الوثائق وعن طريق الشواهد، كما يقف صاحب السيرة الذاتية مثل الشاهد والقاضي، أما صاحب السيرة الغيرية فهو يقف موقف الشاهد لا القاضي، ونجاح المترجم الذاتي مبني بنسبة الذاتية فيما كتب،ونجاح صاحب السيرة الغيرية مبني بمقدار موضوعيته للبحث وتجرده فيما يكتب، فشتان بينهما. ثم إن الصفات والميزات التي تجعل السيرة الذاتية عظيمة ليست الصفات التي تجعل السيرة الغيرية عظيمة وتجعلها ذات أهمية كبرى و"في رأس تلك الصفات أن يكون كاتب السيرة موضوعيا، يلمح بسرعة ويفهم بأحكام ويلم الحقائق، ويحكم عليها ويمزجها مزجا متعادلا منسجما ويصبغها بأسلوبه. أما كاتب السيرة الذاتية فإنه ذاتي قبل كل شيئ، ينظر إلى نفسه ويسلط أضواء النقد ودقة الملاحظة على شخصيته، ومترجم غيره يقف موقف الشاهد لا القاضي، أما مترجم نفسه فإنه يجمع الصفتين. فليس للأول أن يحمل فكرة

مقررة سابقة عمن يترجم له، وإنما من واجبه أن ينقل صورته إلى الخلف، كما كانت تلك الصورة معروفة بين معاصريه"[1].

يقول شوقي ضيف "لكل أمة تراجمها–الترجمة الشخصية– الممتازة، بحيث يؤلف هذا الفن عند القوم، كل في محيطه وبيئته، سلسلة متلاحقة من الآثار[2]". ومن أروع وأشهر السير الذاتية العالمية فهي "اعترافات" لقديس أغسطينوس "الاعترافات" لجان جاك روسّو، والأيام لعميد الأدب العربي طه حسين، و"سبعون" للناقد ميخائيل نعيمة[3]. فندري نجاح كتابه في السيرة الذاتية "الأيام" وكتابه في فن السيرة الغيرية "على هامش السيرة" بأن طه حسين عبر عن خاطره وضميره وتكلم عن تجاربه ومشاهدته في الأول، وفي الثاني كان مثل الشاهد لا القاضي. فتقبل الناس أوله ولم يتقبل آخره، كما كل منا يدري ويعرف. فمعنى ذلك السيرة الذاتية أكثر قبولا وعامة لو يكتب شخص عن نفسه بكل صداقة وجراءة مع جميع التجارب والمشاهدات في مجالاته الخاصة. ونجاح السيرة الذاتية منوطة بذاتيته وصداقته واعترافته أما نجاح السيرة الغيرية فنجاحها منوطة بمقدار تجرده وغيرته وموضوعيته.

---

[1] إحسان عباس،الدكتور، فن السيرة، ص 103–104.

[2] شوقي ضيف، الترجمة الشخصية–فن الأدب العربي، الفن القصصي–، ص 9.

[3] فواز الشعار، الموسوعة الثقافية العامة، الأدب العربي، ص 178.

شروط السيرة الذاتية:

إذا كانت السيرة الذاتية تتطلب من القراء قبولا ورواجا فعلى صاحبها أن يستوفي هذه الشروط الآتية:الأولى: أن يكون بطل السيرة الذاتية صاحب تميز واضح أو دور بارز في ناحية من نواحي الحياة وفي مجال من المجالات السياسية أو الأدبية أو الدينية. والثانية: أن يكون صاحبها ذات صلة عميقة ودقيقة بالأحداث الكبرى التي مرت به أو عايشها أو لعب دوره فيها. والثالثة: أن يكون صاحبها ذا نظرة خاصة إلى الحياة وحقائق الكون، حتى تجعله متقدما على أبناء عصره ومصره، أو ذا غاية عظمى أو صاحب أخطاء جسيمة في مضمار الحياة[1].

فهذه المستلزمات والشروط التي تجذب القراء والدارسين إلى قراءة السير الذاتية "فإن الجواذب التي تجذب القراء إليه إنسانية أولا ظاهرة ساطعة ثانيا. ولذلك يموت كثير من السير الذاتية لأنها لا تستطيع أن تحيا في نفوس الناس لا من جانبها الإنساني ولا من جانبها الفني"[2].

---

[1]إحسان عباس، فن السيرة، ص 96.

[2]نفس المصدر ص 96.

المبحث الثاني: نشأة السيرة الذاتية وأصنافها

نشأة السيرة الذاتية وتطورها في الأدب العربي:

إن البذرة الأولى لكتابة السيرة الذاتية قبل الإسلام كانت في صورة أخبار يحكيها الناس مع أناس وأصدقاء، ويقولونها "أخبار". فإن مهرة الأنساب يضيفون إلى هذه الأخبار شيئا من الحقائق المتعلقة بالقبائل والأنساب والوقائع، فالشاعر يرويها والناس يحكيها حتى تكون حديث الناس في الحل والترحال. وهكذا كان الأمر إلى القرن السادس والتاسع الميلادي، حتى نصل إلى العصر الأموي ففيها نجد خليفة أراد أن يحتفظ على آثار ماقبل الإسلام من الأحاديث التي كانت متعلقة بالوقائع والأحداث والأنساب والأشعار والأسماء وما إلى ذلك من العلوم والفنون، فتم تجميعها مباشرة من المصادر الشفوية. وبعد ذلك في القرن العاشر نرى كتاب فهرست لابن النديم الذي يجمع هذه الآثار والعلوم والفنون.[1]

ولكن الدكتور شوقي ضيف يذهب إلى أن أول صورة للترجمة الشخصية هي آثار القدماء الذين كتبوا ونقشوا على أحجار قبورهم بعض مآثرهم وحياتهم وأعمالهم. وفي

---

[1] F.Reynolds, Dwight, Interpreting the self (Autobiography in the Arabic literary Traditoin) p 36-37.

عصر الفراعنة كان من عادة الناس أنهم كانوا ينقشون حياتهم بالاختصار على قبورهم وأهراماتهم ومعابدهم.

وأُثر وصايا ملوك الفرس لأبنائهم وأحبائهم توضح سياستهم وفهمهم الدقيق للأمور السياسية، فنقل أهل العرب تاريخ الفرس وأخبارهم. وللمسكويه كتاب باسم "تجارب الأمم" فيه حديث كثير عن أنوشروان، يقول فيه مسكويه: أن أنوشروان قد ألف كتابا عن حياته وسياسته. وقد خصص المؤلف بعض الصفحات لبيان الحروب والانتصارات لملك أنو شروان على الروم والترك، وصور سياسته وعدالته على الرعية[1].

مع مر الدهر وكر الأيام جاء المؤرخون ونشأ علم التاريخ، وظهرت طبقات مختلفة من المفكرين والفلاسفة، وألفوا كتبا كثيرة على موضوعات شتى وأخبروا فيها عن بعض أحوالهم وتجاربهم. وكان من أهم ما قرأه العرب في هذا الباب فصولا طويلة في حياة جالينوس الفيلسوف الطبيب اليوناني الشهير. فإنه ترجم لنفسه في مؤلفاته المختلفة مثل "مراتب قراءة كتبه" و"فينكس كتبه" يعني فهرسها الخاص. ففيهما تحدث عن حياته وتعليمه وشغفه الزائد للطب والفلسفة. وبعد قراءة حياة جالينوس وأنوشروان وقعت في أيدي العرب كتاب "كليلة ودمنة" الذي ترجمه عبد الله بن المقفع في العصر العباسي الأول، ففيه ترجمة لبرزويه رأس أطباء الفارس الذي نقل هذا الكتاب للفرس عن أصله

---

[1] شوقي ضيف، الترجمة الشخصية، ص 7.

من اللغة السنسكرتية. وفي العصر العباسي حينما عرف العرب آداب الأمم الأجانب من هذه التراجم والسير كما عرفوا التراجم في العصر الحديث.

والسير الذاتية لدى جميع الأمم كثيرة ومتنوعة لا يمكن إحصاءها وعدها، وللأمم تراجم ممتازة حيث يؤلف الأدباء عن القوم والمحيط والبيئة والسياسة وغيرها، ومن أروع التراجم لدى الغرب "الاعترافات"لجان، ولمعاصره "جيته" ترجمة شخصية سماها "الشعر والحقيقة" قدمها بأسلوب أخاذ رائع[1].

وهكذا مشينا خطوات وخطوات حتى جاء عصر أسامة بن منقذ "ففي القرن الثاني عشر الميلادي كان كتاب "الاعتبار" للفارس العربي المسلم أسامة بن منقذ (488هـ584) يعد نموذجا عاليا للمذكرات والتراجم الذاتية. قبل أن يكتب Pepys الإنجليزي وريتز Retzالفرنسي مذكراتهما بقرون. وفي القرن نفسه كان الشاعر عمارة اليمني يؤلف كتاب "النكت العصرية" ويترجم فيه لنفسه، كما يترجم لغيره من الوزراء ورجال الحكم في أخريات العصر الفاطمي"[2].

بينما يقول الأستاذ الجندي بأن الأولى من المذكرات كتبها الإمام الغزالي رحمه الله تعالى تحت عنوان "المنقذ من الضلال". ويقول فيلب حتى ونيكتا إليسف بأن أسامة بن

---

[1] شوقي ضيف، الترجمة الشخصية،ص 8.

[2] شرف، عبد العزيز، أدب السيرة الذاتية، ص 47.

منقذ (ت1188م) هو الرائد في هذا المجال. وكما يعتقد عبدالواحد وطه حسين أن ابن خلدون كان أول من ألف كتابا في باب السيرة الذاتية. ويقول فيلب تهامس: أن تواجد السيرة الذاتية في الأدب العربي قبل القرن العشرين شيئ محال ومستحيل."[1] وهذا القول الأخير يدل على جهل تهامس من الأدب العربي وفنونه.

السيرة الذاتية في الأدب العربي المعاصر:

ولعل أول سيرة ذاتية ظهرت في العصر الحديث وهي "الساق على الساق فيما هو الفارياق" ذكر فيه أحمد فارس الشدياق عن أحوال الحياة وتنقلاته ورحلاته[2]. وفي العصر الراهن قد أتقن بعض الأدباء في اللغات الأجنبية واطّلعوا على ما لدى الغرب من ترجمات شخصية وسير ذاتية فحذا حذوهم في هذا الباب. ومن أهم السير الذاتية في القرن الماضي: "الخطط التوفيقية" لعلي مبارك، وهي رسالة تحدث فيها عن حياته وأعماله.

وفي القرن العشرين تكاثرت الترجمة الذاتية في العالم العربي كله، فمن أشهر من كتبوا حياتهم محمد كرد علي العالم الأديب السوري فقط ترجم لنفسه في كتابه "خطط الشام" في الجزء السادس المطبوع سنة 1927م. ثم تتابعت المذكرات للأدباء من أمثال

---

[1]Reynolds, Dwight F., Interpreting the Self-Autobiography in the Arabic Literary Tradition- P 72.

[2] إحسان عباس، الدكتور، فن السيرة، ص 130.

المؤرخ أحمد شفيق، والأمير عمر طوسون، وقليني فهمي، وإسماعيل صدقي، والدكتور محمد بهي الدين بركات، والدكتور محمد حسين هيكل، فأغنت مكتبة العربية بألوان السير الذاتية، وتكلم معظمهم عن حياتهم ومجتمعهم وعن السياسية التي عاصرها هؤلاء الأدباء.

واحتلت فن السيرة الذاتية مكانة الصدراة في الفنون الأدبية في العصر الحاضر، وخاصة من خلال كتاب طه حسين المعروف الشهير باسم "الأيام"، و للعقاد "أنا" و"حياة قلم"، ولتوفيق الحكيم "زهرة العمر" ولأحمد أمين "حياتي" ولإبراهيم عبد القادر المازني "قصة حياة" ولميخائيل نعيمة "سبعون" وللشاعر إلياس فرحات "قال الراوي" وللدكتور لويس عوض "في صالون العقاد" ولأنيس منصور "إلا قليلا" وما عدا ذلك الكثير مما نجد من النماذج الرائعة في فن السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث[1].

كما نرى لونا آخر في السيرة الذاتية المعنونة بـ "معي" للدكتور شوقي ضيف، يقدم الدكتور شوقي ضيف نفسه فيها باحثا عن الحقيقة على مسرح الأحداث من خلال رحلة خصبة في الحياة. و"مواكب الحياة" و"الخفاجيون" لمحمد عبد المنعم الخفاجي مقدّما نموذجا للبحث عن الجذور. وكما يقدم نموذجا جديدا في باب الاعتراف في السيرة الذاتية الدكتور سمير سرحان بكتابه "على مقهى الحياة" ونرى سيرة ذاتية أخرى لثروت أباظة

---

[1] شرف، عبد العزيز، أدب السيرة الذاتية، ص 58.

باسم "ذكريات لا مذكرات" و"على الجسر" لبنت الشاطئ، و"حياتي مع الشعر" لصلاح عبد الصور، و"ذكريات" للشيخ علي الطنطاوي وغير ذلك الكثير ممن كتبوا سير ذاتهم وأحوال حياتهم.[1]

أصناف السيرة الذاتية:

إننا نجد أصنافا عديدة من السير الذاتية في الأدب العربي ولها أساليب متنوعة، وموضوعات جديدة، فالكتب القيمة في باب السير الذاتية عديدة المواضيع، رائعة التعبير، ولكن من حسن حظنا أن الأدباء والنقاد قد وضعوها في أصناف متعددة، حتى ألف الدكتور شوقي ضيف كتيبا هاما في هذا الموضوع باسم "الترجمة الشخصية" ففيه ذكر المؤلف أصناف السيرة الذاتية من حيث الموضوع، ففي الصفحات الآتية نذكرها بإيجاز واختصار:[2]

1. تراجم فلسفية:

وقد قرأ بعض العرب ترجمة برزويه الطبيب، وجالينوس وكان في كتبهما وكتب الآخرين من الحديث عن تربيتهم وسلوكهم ومؤلفاتهم وما صادفهم من الشدائد والمحن في هذا السبيل. فهذه التراجم الفلسفية ألفها الفلاسفة الكبار عن فلسفتهم الطبية والعلمية، فها هي

---

[1] نفس المصدر، ص58.

[2] شوقي ضيف، الترجمة الشخصية، ص 12.

الترجمة الذاتية لإمام الفلاسفة الطبيب الفيلسوف حنين بن إسحاق المتوفى 260هـ 873م، التي كتبها في رسالة عن حياة ومؤلفات وخدمات جالينوس الطبيب اليوناني وتأثر بكتب جالينوس فكتب سيرة حياته التي وردت في كتابه "طبقات الأطباء: لابن أبي إصبعة. واقتفى أثره أكبر أطباء العرب والفيلسوف الإسلامي الإمام الرازي المتوفى سنة313هـ 925م والذي ترك آثارا نافعة خالدة في مجال الطب والفلسفة، وقد ترجم مؤلفاته إلى اللغة اللاتينية، وظل كتبه ومؤلفاته تدرس وتطبع وتعلم في الجامعات إلى القرن السادس عشر، ولاتزال تبقى حجة في الطب بالعالم الشرقي والغربي معا، ألف كتيبا أخبر فيه بسيرته وحاول الدفاع فيه عن نفسه وردت سيرته الذاتية في "طبقات الأطباء". كما لا يسعنا الآن أن لا نهتم بذكر أعظم فلاسفة الإسلام على الإطلاق الشيخ الرئيس ابن سيناء 428هـ 1036م، وله أثر عميق في مجال الفكر الإسلامي، وذكرت ترجمة حياته وخدماته في كتاب "طبقات الأطباء" أيضا. وكما ترك الفيلسوف الكبير ابن الهيثم اعترافات جريئة نقلها ابن أبي أصبعة في كتابه عن رسالته المكتوبة بخط يده. ومن المحقق أن الكثير قد ضاعت بأيدي الزمان وما أورثناها فهي قليلة من الكثير الوفير عن حياتهم وفلسفتهم. وما إلى ذلك من الفلاسفة الذين ترجموا لأنفسهم مثلا علي بن

رضوان الطبيب المصري، وعبد اللطيف البغدادي ذكرهما ابن أبي أصيبعة في كتابه المذكور أعلاه[1].

2. تراجم علمية وأدبية:

ولعل أقدم مثال لذلك نجد عند العرب القدامى الذين نقلوا آثار الشعراء الجاهليين في الفخر والحماسة ومدح سيدهم والحديث عن قبائلهم ووقائعهم. فهذا الحديث الشائع للشعراء الأوليين لا يراد به إلا المبالغة والتهويل والتبجيل، فأحاديثهم وديوان شعرهم موجودة في أصمعيات، وفي الكتاب الأغاني للأبي الفرج الأصبهاني. وظل هذا العنصر مسيطرا على الشعراء إلى العصور الإسلامية[2].

وفي هذا الباب يترجم الأدباء والعلماء أحوال حياتهم وتجاربهم مثل ابن حبان التوحيدي في كتابه "مثالب الوزيرين" وتحدث فيه عن شؤون حياته وتجربته القاسية المريرة مع الوزيرين ابن العميد والصاحب بن عباد. وسجل ابن حزم الأندلسي صاحب المؤلفات في الفقه وأصوله وفي الملل والنحل، يتحدث عن المحبة والألفة في كتابه الشهير "طوق الحمامة في الألفة والألاف". وهذا الواعظ الفقيه ابن الجوزي يكتب رسالة لابنه العزيز، ويسميها "لفتة الكبد في نصح الولد" ينصح فيها لابنه ويحثه على كسب العلوم الفنون

---

[1] نفس المصدر، ص 21-30.

[2] نفس المصدر، ص 37-44.

ويخبره عن حياته. وكيف أخذ العلوم والفنون؟ وإلى مدى اهتم بالعلم والفن، وفيه يذكر عن مؤلفاته الشهيرة وحياته الدعوية والتبليغية خلال الوعظ والإرشاد. يقول "وقد علمت يا بني أن قد صنفت مائة كتاب، فمنها التفسير الكبير عشرون مجلدا، وتهذيب المسند عشرون مجلدا، وباقي الكتب من كبار وصغار تكون خمسة مجلدات ومجلدين وثلاثة وأربعة وأقل وأكثر. كفيتك بهذه التصانيف عن استعارة الكتب وجمع الهمم في التأليف، فعليك بالحفظ، وإنما الحفظ رأس المال"[1].

وها هو معنا الإمام السخاوي ترجم لحياته وآثاره في كتابه "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع" وهذا الأديب العالم ابن طولون الذي يترجم نفسه في كتابه وسماه "الفلك المشحون في أحوال محمد بن طولون" وهذا الإمام السيوطي صاحب المؤلفات الشهيرة في أبواب الشرعية واللسانية والتاريخية، ترجم لنفسه في كتاب "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة"، وغيرهم الكثير مثل الإمام الجزري والإمام السخاوي، والإمام المؤرخ أبو شامة المقدسي الدمشقي تركوا أثرا نافعا في التراجم والسير الذاتية[2].

---

[1] نفس المصدر، ص 48.

[2] نفس المصدر، ص 54-58.

3. تراجم صوفية:

هي التراجم الصوفية التي كتبها الصوفيون والزهاد والعباد ويصفون فيها تجاربهم وسلوكهم ومشاهداتهم ومقاماتهم بلسان لا يعرفه إلا لمن تبع دينهم وطريقتهم، والتي تعد غريبة وتعتقد مستحلية. وخاصة حينما يبدأون الحديث عن مكاشفاتهم وكراماتهم ومشاهداتهم. بدأت هذه الطريقة منذ مجاهدات وتجارب رابعة العدوية، وفي العشق الإلهي تنسب إليها هذه الأبيات:

أحبك حبين حب الهوى وحب لأنك أهل لذاكا

فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمن سواكا

وأما الحب انت أهل له فكشفت لي الحبيب حتى أراكا[1]

ومن أشهر المتصوفين إبراهيم أدهم الذي كان أميرا ورئيسا في بلخ فتزهد وتنسك، وأبو سليمان الداراني، والحارث بن أسد المحاسبي، وذوالنون المصري، وأبو يزيد البسطامي فتركوا هؤلاء لنا النصائح الغالية في التعلق بالله وطرق ترك الشهوات وأخذ الطريق الرباني الإلهي الذي يقود بنا إلى الجنة وينقذنا من النار اللهم إلا القليل منهم الذين بالغوا أشد المبالغة والشدة فأقوالهم موجودة في كتب شتى ونصائحهم مكتوبة في الرسائل

[1] نفس المصدر، ص 59-60.

المختلفة[1]. ومن الأشهر المتصوفين الذين تركوا لنا ترجمة حياتهم ودرجوا مدارج التصوف والتزكية هو حجة الإسلام الغزالي الذي سجل تجربته المستعصية من الشك إلى اليقين الكامل باسم "المنقذ من الضلال"، وهنا نذكر قول الإمام الغزالي في باب التصوف كما يلي: "إني علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أذكى الأخلاق. بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشريعة من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة[2]". فالإمام الغزالي طهّر التصوف من الأدران والأوساخ التي علقت به من أمثال الحلول والإيمان بوحدة الوجود، وتعطيل فرائض الإسلام. وقد شبه هنريك فريك كتاب الغزالي باعترافات القديس أوغستين.

وجاء بعد الغزالي ابن الفارض المتوفى 632هـ1234م، وابن عربي المتوفى 638هـ1240م، والشعراني المتوفى سنة 938هـ1565م. أما الحديث عن ابن الفارض فقرض قصيدة سماها نظم السلوك، وهي تائية الكبرى ويصور فيها معراجه الروحي. والثاني ابن العربي الأندلسي وكتابه "الفتوحات المكية" فهو أوسع كتبه وأجمعها لآرائه

---

[1] نفس المصدر، ص 60-66.

[2] نفس المصدر ص 75.

ومكاشفاته وأحلامه. والشيخ الشعراني ترجم لنفسه في كتابه "لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق" وغيرهم من المتصوفين الكثيرين[1].

4. تراجم سياسية:

كان من عادة العرب أن يتفاخروا عن مغامراتهم الحربية السياسية وكانوا يقصون قصص أبطالهم في المحافل والمجالس وما قاموا ببطولة وشجاعة في المعارك والوقائع. واحتفظ لنا كتب التاريخ وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرا من هذه القصص البطولية الرائعة. حيث نجد الرواة ينقلون الأخبار ويروون الأحاديث عن أصحابهم واصفين الأحداث الحربية والوقائع التاريخية. فمن يقرأ كتب التاريخ أمثال الطبري ومسكويه والبلاذري واليعقوبي والمسعودي وابن الأثير يجد الكثير الوفير من هذه التراجم السياسية باسم أبطال أو بدون أسمائهم[2].

والساسة والأمراء ما يكتبونه عن تجاربهم ويترجمون لحياتهم يقال له التراجم السياسية. ففي العصر العباسي ظهر أول مُصَنّف كامل في هذا الباب واسم هذا الكتاب "سيرة المؤيد في الدّين داعي الدعاة" علي يد المؤيد في الدين داعي الدعاة الفاطمي (المتوفي 470هـ 1078م) وهذه الرسالة تعد من أهم الوثائق السياسية لذلك العصر الذي

---

[1] نفس المصدر، ص77-84.

[2] نفس المصدر، ص 85.

عاصره المؤلف، كما يخبرنا هذا الكتاب بنشاط المؤلف السياسي وحرصه الكثير في سبيل الدعوة الفاطمية في شيراز وفارس والعراق والشام[1].

ومن المصنفات الجليلة في باب التراجم السياسية نجد مؤلفا لعبد الله بن بلقين آخر أمراء بني زيري في غرناطة، نشر هذا الكتاب المستشرق ليفي بروفنسال تحت عنوان "مذكرات الأمير عبد الله" وذكر فيه عبد الله عن حياته السياسية وأيام حكمه التي كانت من عام 416هـ1073 إلى عام 483هـ 1090م.[2]

ومن المذكرات المهمة كتاب أسامة بن منقذ الذي عنونه "الاعتبار" وهو مذكرات بديعة حكى لنا صاحبه الفروسية العربية والبطولة الإسلامية في حملة الصليبيين. كما صور لنا أسامة حياة المسلمين لعصره ومدينته. فهذا الكتاب صورة صادقة وتصوير دقيق لتلك الحقبة، وهو وثيقة سياسية قيمة لمن أراد العلم والمعرفة لذلك العهد[3].

وفي الختام في تراجم باب السياسة كتاب ابن خلدون تحت عنوان "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا" سجل المؤلف حياته السياسية وما رأى وشاهد في الدول والمدن حيث تولى المناصب المختلفة في الدول المختلفة، وقام برحلاته العديدة وجولاته السياسية إلى

---

[1] نفس المصدر، ص 86-88.

[2] نفس المصدر، ص 88-91.

[3] نفس المصدر، ص 93-99.

الشرق والغرب، فحياته حافلة بالأحداث والوقائع والتاريخ. فهذا الكتاب أيضا مذكرة قيمة ووثيقة نافعة في التراجم السياسية[1].

أقسام السيرة الذاتية:

قد سلك الدكتور إحسان عباس طريقا آخر في تقسيم السيرة الذاتية حسب عناصرها وغايتها إلى الأقسام التالية. فذكر أولا الصنف الإخباري، وثانيا الصنف التفسيري، وثالثا صنف الصراع الروحي، ورابعا صنف المغامرات. ففي هذه الأصناف ذكر الدكتور إحسان عباس ما خلفه أدباؤنا وعلماؤنا من الكتب والمصنفات في مجال السيرة الذاتية[2].

الأول، الصنف الإخباري:

هذا الصنف الإخباري يضم الحكايات التي تم حفظها وتسجيلها في شكل تجربة أو خبر أو مشاهدة مثل الحكايات للجاحظ وأبو حيان والصولي وغيرهم الذين يحكوون لنا حكايات عن أنفسهم ويتحدثون عن الأحداث والوقائع التي وقعت بهم. وفي هذا الإطار يأتي المذكرات التي كتبها المؤلفون لأجل غاية التاريخية مثل "مياومات القاضي الفاضل"، وكما تشمل كتب الرحلة تحت هذا العنوان التي تضم العناصر الذاتية مثل رحلة ابن جبير والشيخ خالد البلوي وابن رشيد والعبدري، ومجموعة من السير الذاتية مثل سيرة بابن

---

[1] نفس المصدر، ص 100-104.

[2] إحسان عباس ، فن السيرة، ص114-129.

سينا وموفق الدين البغدادي، وعلي بن رضوان الطبيب المصري. وتمتاز السير الذاتية التي تشمل تحت هذا الصنف الإخباري بالتأكيد على ذكر ولادته ونشأته وتعليمه وأساتذته وشيوخه، وما هي الكتب التي ألفها والبلاد التي زارها وسافر إليها[1].

الثاني، الصنف التفسيري:

في هذا القسم يكتب المؤلف سيرهم الذاتية للاعتذار والتبرير والتوضيح والتعليل. وفي هذا الباب يأتي سيرة مؤيد في الدين هبة الله شيرازي، ومذكرات الملك عبد الله ، وسيرة ابن خلدون، فكتب هؤلاء الكتاب سيرهم الذاتية لينصفوا أنفسهم أمام التاريخ، ولكي يبرروا أنفسهم ما ارتكبوا من الأخطاء الجسيمة من زاويتهم الذاتية.

فمعظم هؤلاء الكتاب كانوا على منصب عال ومكانة مرموقة لا يمكن الوصول إليها لعامة الناس، فصور هؤلاء المؤلفون المشاكل والعراقيل التي اعترتهم في سبيلهم وما أحاطت بهم الظروف القاسية، وما نالوا من التجارب المريرة أو التجارب المفيدة، ففيه مجال للأخذ والرد والبحث والجدل. فبعد تأليف مذكراتهم التفسيرية وذكرياتهم الجميلة أو السيئة فقد أنصفوا مع التاريخ الإنساني بحديثهم عن الخبرات والتجارب في حياتهم، فأراحوا أنفسهم وأزالوا العبئ الثقيل الذي كان في رؤوسهم ودماغهم[2].

---

[1] نفس المصدر، ص 114-115.

[2] نفس المصدر، ص 118-119.

الثالث، صنف يصور الصراع الروحي:

وفي هذا الصنف صاحب السير الذاتية يذكر الصراع الروحي الداخلي الذي يحول بينه وبين ربه، فالشهوات تدعو الإنسان إلى المعاصي والذنوب، بينما يدعو أهل الخير إلى الإيمان وإلى الطاعات وعبادة الله. فالشك لا يزول إلا بعد ممارسة ومزاولة، والإيمان لا يأتي إلا بعد جد وصبر. فهذا الصراع الروحي يدوم في نفس الإنسان، فمن حكى لنا حكاياتهم للصراع الروحي نطلق على مثل هذه الحكايات للسير الذاتية سير الذاتية التي يصور الصراع الروحي. فمنها "كتاب النصائح" للمحاسبي، و"المنقذ من الضلال" للإمام الغزالي، وما نجد من الصراع الروحي في سيرة ابن الهيثم[1].

الرابع، صنف يقص المغامرات في الحياة:

وفي هذا الصنف من السيرة الذاتية يقص لنا صاحبه عن قصص المغامرات والبطولات وما لقي من التجارب والعبر في هذا السبيل. ولكن الدكتور إحسان عباس لا يذكر إلا كتابا واحدا في هذا الصنف وهو كتاب أسامة بن منقذ تحت عنوان "كتاب الاعتبار". وبعد ذكر هذا الكتاب يقول الدكتور إحسان عباس كما يلي: "ليس لدينا من

[1] نفس المصدر، ص 126-127.

الصنف سيرة ذاتية بالمعنى الدقيق ولكن من أقرب النماذج إليها، مذكرات أسامة بن منقذ"[1].

وهو الكتاب الشهير الذي ذكرته في السطر أعلاه. فأسلوب الكتاب بسيط ينقل الكاتب الحوار باللغة الدارجة التي تتحدث في ذلك العصر، كما يتحدث أسامة بن منقذ قصص حياته التي حافلة بالتجارب والمشاهدات والمغامرات والبطولات.

وبعد ذكر هذه السير الذاتية وأصنافها يقول الدكتور إحسان عباس "هناك سير ذاتية أخرى بعضها إخباري محض أورد ياقوت منها في معجمه نماذج كثيرة. ولحنين بن إسحاق رسالة تحدث فيها ما أصابه من المحن، وقد ذكرها ابن أبي أصيبعة في ترجمة حنين، ولكن الأستاذ روزنتال يرى أنها منحولة. وللرازي سيرة سماها فيما سماها "السيرة الفلسفية"، ولعمارة اليمني سيرة فيما سماه "النكت العصرية" أما السيرة لسان الدين الخطيب التي صور فيها دوره في الحياة السياسية والأدبية فإنها لا تزال مخطوطة، وهناك سير ذاتية أخرى ذكرها الأستاذ روزنتال وسير أخرى ذكرها السخاوي في "الدر" ولا نعرف عنها ومصيرها شيئا"[2].

---

[1] نفس المصدر، ص 128.

[2] نفس المصدر ص 130.

أما ما يتعلق برأي الباحث فأرى أن التقسيم والتصنيف للدكتور شوقي ضيف جامع وشامل لجميع الموضوعات والأساليب للسيرة الذاتية، أما تقسيم الدكتور إحسان عباس ففي نظري ناقص غير كامل ولا شامل ولا يشمل جميع الموضوعات والأساليب للسيرة الذاتية.

أشكال السيرة الذاتية:

فكل ما يكتبه الإنسان عن نفسه وحياته وأعماله ينقسم إلى أشكال متعددة كما ذكرها نبيل راغب في كتاب "فنون الأدب العالمي" مثل المذكرات، واليوميات، والمفكرة، والخطابات المتبادلة، والانطباعات في الماضي وانعكاساتها في الحاضر، وغير ذلك من الصيغ والأشكال التي تكتب تحت بند أدب السير الذاتية[1]. أما تقسيم الدكتور عبد العزيز شرف تحت عنوان "السيرة وأشكال أدبية أخرى" فقسمها إلى ثلاثة أقسام: اليوميات diary، والمفكرة اليومية day book، والمذكرات memoirs[2].

المبحث الثالث: تعريف بمؤلفات الشيخ علي الطنطاوي في مجال السيرة الذاتية

---

[1] نبيل راغب، فنون الأدب العالمي، ص 46.

[2] شرف، عبد العزيز، أدب السيرة الذاتية، ص43-44.

أحاديث السيرة الذاتية لعلي الطنطاوي:

قد توقفنا إلى حد كبير عند الحياة والأعمال والإنجازات للشيخ علي الطنطاوي في الباب الثاني، ولاحظنا مشاركته الفعالة في الأمور العلمية والأدبية والاجتماعية. كم تأثر من المجتمع وأثر في المجتمع، وكم شارك وناضل في المسيرات والمجالس، كم خطب وأذاع من الإذاعات والمنابر، كم كتب وصنف ونشر من المؤلفات، فأين يذهب بهذه التجارب والحكم لو لم يودعها في كتابه الذكريات ومصنفاته للسيرة الذاتية.

تفتح زهرة حياته ولم تكن في دمشق ولا في البلاد العربية كلها سيارة ولا طيارة، وشاهد في آخر حياته أن بعض أبناء آدم يتجولون على سطح القمر. فتح عينيه ولم تكن في الشام كلها ولو في بيت واحد الكهرباء، ولم يكد يبلغ من عمره الخمسين حتى يرى أبناء أمته لا يتحملون العيش بلا كهرباء. التحق بالمكتب وكانت الدولة للأتراك والتعليم كان بلسانهم وعلى طريقتهم، وما لبث إلا بضع سنوات أن تغيرت الحكومة وآل الأمر إلى أيدي الفرنسيين، وشاهد تقسيم أراضي المسلمين بين الإنجليز والفرنسيين. ثم عاش ردحة من الدهر بعد، وذاق طعم الحرية والاستقلال ووجد نفسه حرا طلقا من أيدي المستعمرين الغاشمين الخادعين. وكما ولدت الشيوعية وماتت، وولدت الدولة وماتت، خلال حياته المليئة بالأحداث والوقائع. فهذه الأشياء من خير الأدلة والبراهين أن خياله أن يكتب

المصنف باسم "ذكريات نصف قرن"[1] ما كان حلم أحمق وما كانت أضغاث أحلام، بل في الحقيقة إنه يستحق لذلك ويجدر به، لأنه شاهدً للقرن العشرين وإنه أقدم المعلمين والإذاعيين، صاحب الفقه والفتوى، وسائح الشرق والغرب، فله حق كل الحق أن يكتب ذكرياته الجميلة وسيرته الذاتية.

عبر الشيخ الطنطاوي عن تجاربه ورحلته إلى الحجاز باسم " نفحات الحرم" وحدثنا وفسرنا ما عاشه وشاهده في بغداد والعراق باسم "بغداد :ذكريات مشاهدات"، ثم حكي لنا القصص والوقائع عن الشرق وخاصة عن إندونيسيا داعيا المسلمين لقضية الفلسطين باسم "صور من الشرق". ولم يزل يحلم عن كتابة ذكرياته وتجارب حياته حتى وفقه الله لإكمال هذا المشروع فولدت "ذكريات علي الطنطاوي" فنشرها في خمس سنين باستمرار في الجريدة "المسلمون" حلقتين فقط وجميع ما بعدها في جريدة "الشرق الأوسط"، ثم طبعت هذه الحلقات المنشورة في صورة كتاب في ثمانية أجزاء.

شيخنا علي الطنطاوي كتب بعض المؤلفات المتعلقة بحياته ورحلاته وتجاربه ما عدا ذكريات، مثل: "من حديث النفس"، و"من نفحات الحرم" و"بغداد :ذكريات مشاهدات" و"صور من الشرق" وجميع هذه المؤلفات تأتي في إطار فن السيرة الذاتية، ولكن من أهم المهم الكتاب الذي طار بسببه صيته في الآفاق في هذا الفن هو كتابه "ذكريات علي

---

[1] علي الطنطاوي، من حديث النفس، مقدمة الكتاب، ص 7.

الطنطاوي" في ثمانية أجزاء. وهذا المصنف الأخير سجل أدبي، ووثيقة تاريخية، وموسوعة ثقافية علمية. في هذا المبحث نتكلم عن جميع مصنفاته في فن السيرة الذاتية سوى "ذكريات علي الطنطاوي" وسنتحدث عنه بالتفصيل في الباب الذي يليه.

من حديث النفس:

في هذا الكتاب ست وثلاثون مقالة، كتبها الشيخ علي الطنطاوي في عقود ثلاثة من عامي 1931 و 1959م. وفيه 312 صفحة من القطع المعتاد، وهذه طبعة ثامنة للكتاب، وهو من منشورات دار المنارة، جدة، سنة 2011م. وقد تم النشر لهذا الكتاب مع المراجعة والتعليق لحفيد المؤلف مجاهد مأمون ديرانية.

"أول مقالة نشرتها وأول درس ألقيتها" هذا هو عنوان المقال للحديث عن نفسه وذكريات حياته، يقول فيه متذكرا أيامه الجميلة فهو يقول: "وكانت طريقتي في المطالعة أني إذا فرغت من دروس المدرسة دخلت مكتبتنا فتخيرت كتابا فأخذته فنظرت فيه لأدعه حتى أتمه، وإلا أخذت غيره. وكنا نأخذ الأدب عن الأديب الضليع المتفنن الأستاذ سليم الجندي، وكان يحذرنا –جزاه الله خيرا– أن نقرأ الجرائد والمجلات وكتابات أهل العصر خشية أن نسيئ الاختيار فتصيبنا عدوى الركاكة، وهي شر من عدوى الكوليرا والجذام"

ويتابع المزيد "على أني لم أنس المنفلوطي وترجمت عن شكري له ولأستاذي الجندي والمبارك بإهداء الثلاثة كتابي "الهيثميات" وهو أول كتاب ألفته سنة 1930م"[1].

ثم يتابع المزيد ويحدث عن مقاله الأول في صحيفة محمد كرد علي فحينما قُبل للنشر فكأنما يجد بجنبيه الجناحين يطير بهما في الهواء من شدة الفرح وفرط السرور، وما نام تلك الليلة من شدة ترقبه وانتظار نشر مقالته كأنه يتجول في الجنة على فراشه في الخيال، وحينما انبثق الصبح أخذ الجريدة، فإذا وجد فيها المقال وبين يديه كلمات الثناء والتقدير يقول: "لو قيلت للجاحظ لرآها كبيرة!"[2] ويتكلم الطنطاوي فيما بعد عن حياته التدريسية والتعليمية في مقال: "وكيف أجمع في مقالة واحدة ما تفرق من قلبي في جنات دمشق، وقد علمت في كل مدرسة فيها، وفي بيروت حيث الكلية الشرعية، وعلى الشاطئ الوداع من دجلة حيث الثانوية المركزية، وفيها طريق الأبلّة إحدى منتزهات الدنيا الأربعة حيث الثانوية البصرية، وعلى سيف الفضاء الأرحب من كركوك بلد الذهب الأسود الذي يشتعل أبدا، وعلى ضفة الفرات الجميل في دير الزور، البلد الكريم أهله...وحيث أذكر ولا أذكر؟.. بل إني لأبصر الآن الآلاف من وجوه زملائي في التعليم وتلاميذي الذين أحببتهم..يا رحمة الله للمعلمين، لمن كان له منهم قلب! وسلام على أيامي التي صرمتها

---

[1] علي الطنطاوي، من حديث النفس، ص 204.

[2] نفس المصدر، ص 205.

معلما، وعلى كل من يقرأ هذا الفصل من زملائي وتلاميذي، ولهم مني أوفى حبي، وتحيات قلبي"[1].

وفي هذا الكتاب مقالات عن أساتذته، ومدرسته وشهادته المسماة بـ ليسانس، وصورته بقلمه، وعن حياته التعلمية والقضاء، وحياته القلمية الأدبية، مثل : "أنا" و"في الكتاب" و"في معهد الحقوق" و"شهادة ليسانس للبيع" و"قصة معلم" و"صورة المؤلف بقلمه" و"ذكريات" و"مما حدث لي" و"أستاذنا الجندي" و"أول مقالة نشرتها وأول درس ألقيته" و" من التعليم إلى القضاء" و"أنا والقلم" و"على عتبة الأربعين" و"عدد 1000من الرسالة" و"الدرس الأخير" بعد الخمسين" فهذه العناوين كلها تدل دلالة واضحة على أن هذا المؤلف مرآة لحياة علي الطنطاوي ونشاطاته في مجال التعليم والصحافة والقضاء فهو يحدثنا عن طفولته ودراسته ومعهده ومعلميه، وفيه ما عدا ذلك من المقالات التي لا تمت بصلة قوية بهذا الكتاب وعنوانه وهي: "بيوتنا هدمناها بأيدينا" و"من رسائل الصيف" و"في لج البحر" و"كتاب مفتوح إلى الأستاذ أحمد أمين" و"مقدمة ديوان".

يتكلم الشيخ في مقال المعنون بـ"شكوى" عن المجد الأدبي وعن الشهرة، وما المقصود من المجد والشهرة سوى المال والجاه، ولكنه يريد وينوي بعد أخذ المال حسن ثواب الآخرة. يقول صادقا: "إن الحقيقة الوحيدة من ثمار الأدب هي أجور المقالات وما

---

[1] نفس المصدر، ص 208-209.

نرجو من ثواب الله! ولقد أخذت على مقالتي أكبر أجر أخذه كاتب عربي، قبضت غير مرة ثلاثمئة ليرة على المقالة الواحدة، وقبضت ألف ليرة على المحاضرة الواحدة...والمال حقيقة ليس سرابا، ولكن ماذا أصنع بهذا المال، وأنا لا أدخر مالا ولا أريد أن أكون من كبار المثرين، فلماذا الحرص على المال؟ وهل يعدل المال الذي آخذه الراحة التي أفقدهاوالنوم الذي أشتهيه فلا أجده؟ أما ثواب الله فأرجو أن يكون لي من الإخلاص ما أستحقه به أولا،وأرجو ثانيا أن لا يحرمني الله الثواب إن استرحت حينا لأجم النفس وأجدد العمل[1]".

وأختم حديثي هذا بعد تقديم صورة للمؤلف الطنطاوي بقلمه الذي "كان معروفا بالشذوذ والخروج عن المألوف، لا يبالي –إذاتجه له الرأي– ما يقول فيه الناس، ولا يحفل– إذا أزمع الأمر– نهي ناه ولا نصيحة ناصح. وكان يعرف ذلك من نفسه ولا يغضبه أن يوصف به، بل كثيرا ما سمعناه يتحدث به ويطيل الحديث، يجد في كشف دخيلته للناس لذة وارتياحا، كأنما هو يلقي عن عاتقه حملا ثقيلا... إنه رجل شاذ الطباع متناقض العواطف، يشتاق إلى بلده، فإن عاد ندم على العودة، وإن أقام هاجه الشوق،

[1] نفس المصدر ص 298–299.

وإن لجأ إلى عقله ثارت عاطفته، وإن اتبع عاطفته أبى عقله... لا يفهمه أحد، ولا يفهم هو نفسه...إنه أديب!" [1].

طبعا إننا عرفناه حتى الآن إنه أديب شامي، وصحفي عربي، وإذاعي شهير، وقاض إسلامي وقور، ومعلم للجيل الجديد. الطنطاوي كان مرهف الحس، رقيق الشعور، حاضر البديهة، صاحب الفكاهة والنادرة، محب الوحدة والانعزال، مكبا على الدراسة والمطالعة والكتابة، عاشق العلم والأدب، رحم الله عليه رحمة واسعة. إقرأ جميع فصول هذا الكتاب مع تاريخه الذي كتبه لتجد علي الطنطاوي الذي كان في تلك الأيام في فتوته وشبابه وعاطفته القوية، بل المؤلف شخصية واحدة بل إنه فيه جماعة في واحد، مع تجربة حكيم وخيال أديب.

بغداد ذكريات ومشاهدات:

بين يدي الآن كتاب الشيخ علي الطنطاوي باسم " بغداد ذكريات ومشاهدات" الذي طبع بعام 1960م وهي الطبعة الأولى،من القطع المعتاد. فهو مشتمل على 160 صفحة. وكما في هذا الكتاب تسع عشرة مقالة، نشرها الشيخ ما بين عام 1936إلى 1947م. وهو من منشورات دار الفكر بدمشق.

---

[1] نفس المصدر ص 105-110.

قام الشيخ علي الطنطاوي بزيارة العراق في عام 1936م، كما مر ذكرها في الباب الثاني، فدرّس في الثانوية المركزية ببغداد، ودار العلوم الشرعية في الأعظمية، وراح يتنقل أحيانا إلى كركوك وأحيانا إلى البصرة، وبقي في العراق إلى سنة 1939م غير سنة واحدة قضاها في بيروت وهي سنة 1937م.[1]

وهذه الفترة القصيرة تركت أثرا كبيرا في نفس علي الطنطاوي، حتى خلد العراق بكتابه وذكرياته، وأحب العراق حبا جما فمهما أتى ذكر العراق في مجلس انبثقت من نفسه ذكرياتها العطرة، يقول في المقدمة "ماكنت أقدر أني أقدم بغداد، وأني أعيش فيها سنين من عمري، وأني أتخذ فيها أصدقاء وأحبة، أعدهم من أدنى أحبائي إلى قلبي.. أين مني تلك الأيام؟ الأيام التي مضت ولن تعود. أحن إليها ولا أدري لماذا الحنين إليها؟ أحن إليها لأني فقدتها، والشريف الرضي يقول:

وقائلة في الركب:ما أنت مشته غداة جزعنا الرمل، قلت أعود

وهيهات، فلا الماضي يرجع، ولا الشباب يعود[2]".

---

[1] ديرانية، مجاهد مأمون، علي الطنطاوي أديب الفقهاء وفقيه الأدباء، ص 120.

[2] نفس المصدر ص 120.

يقول الشيخ علي الطنطاوي لأهل بغداد في مقال معنون بـ"فلم بغداد": "فسلام على بغداد، على بغداد المنصور والرشيد، على بغداد الأئمة والمحدثين، على حاضرة الدنيا ومثابة الدين، على بغداد الجديدة المتوثبة وملئ أهلها العزم والإيمان، على بغداد التي ستكتب قصتها مرة أخرى، في صحائف القوة والعلم والمجد[1]".

"من ذكريات بغداد" ما الذي هاج في نفسي، –هذه العشية–ذكر بغداد، ونشر أمام عيني ما انطوى من ذكرياتها وما مات من أيامها؟ ما الذي رجعني إلى تلك الليالي، ليالي في بغداد سنة 1936م، حتى كأني– لفرط ما تشوقت إليها وأوغلت في ذكراها– أعيش فيها؟ أي سحر فيك يا بغداد جذب قلبي إليك، فلم أنسك إذ أنا في بلدي الحبيب، ولم أزل أحن إليك وأشتاقك؟ بغداد..يا بغداد، يا بغداد، عليك مني سلام الود والحب والوفاء[2]".

شاهد هذا المشهد الطنطاوي يغادر ويرحل من بغداد ويودعها وكادت النفس تزهقه، إقرأوا في السطور الآتية المشاعر النبيلة عن البلد –البغداد– وأحبائه: "وداع بغداد" قال فيها: "ودعتها والسيارة تشتد بي إلى المحطة تسلك إليها شوارع ذات بهجة وجمال، وعانيت الوداع فأيقنت أني مفارق بغداد عما قليل، وجعلت أذكر كم ودّعت من أجباب، وكم فارقت من منازل، وكم قطعت قلبي قطعا نثرتها في أرض الله الواسعة التي لا تحفظ

---

[1] علي الطنطاوي، بغداد ذكريات ومشاهدات، ص 15.

[2] نفس المصدر ص 70.

ذكرى، ولا ترثى لبائس!" وفيها: "الوداع يا بغداد... يا بلد المنصور والرشيد، يا منزل القوّاد والخلفاء، والمحدثين والفقهاء والزهّاد والأتقياء، والمغنيين والشعراء.... الوداع يا دار السلام، ويا موئل العربية. يا بلدا أحببته قبل أن أراه وأحببته بعد ما رأيته، لقد عشت فيك زمانا مرّ كحلم النائم، صحوت منه على صوت الداعي يؤذن بالفراق، فلم أجد منه في يدي إلا لذع الكرى وهل تخلف الأحلام إلا الأسى والآلام؟ ولكني.... على ذلك. راضٍ، فالوداع يا بغداد، واسلمي على الزمان! [1]".

أما العناوين المتعلقة ببغداد فهي كثيرة ومتنوعة "فلم بغداد"، و"من دمشق إلى بغداد"، و"سر من رأى"، و"ثورة دجلة"، و"يوم الفتوة في بغداد"، و"من ذكريات بغداد"، و"يوم من أيام بغداد"، و"تحية وشكر"، و"نوري السعيد"، و"نداء لم يجد مجيبا"، و" صورة سوداء من بغداد"، و"للذكرى والتاريخ: بغداد في يوم غازي"، و"من دمشق إلى دير الزور"، و"وداع بغداد". فهذه المقالات تدل أن هذا الكتاب تاريخ بغداد، وذكريات بغداد، وبغداد علي الطنطاوي.

[1] علي الطنطاوي، بغداد مشاهدات وذكريات ص 151-156.

صور من الشرق: في أندونيسيا:

هذا الكتاب سجل تاريخي لأندونيسيا لإخواننا العرب الذين لم يزوروا هذا الأرخبيل ولم تسنح لهم فرصة للرحلة ولا للزيارة إلى هذا البلد الإسلامي. فلهم فرصة سعيدة لقراءة هذا الكتاب ففيه متعة سياحية ومعلومات وحقائق عن إندونيسيا، ووصف دقيق للأماكن، وبيان عادات الناس وتقاليدهم في الأعراس والاحتفالات، وتاريخ مجيد لأهل الإسلام في هذا البلد المبارك. ومن الممكن أن يسأل أحد لماذا وضعت هذا الكتاب في ضمن سيرته الذاتية؟ فجوابي لهم أن الطنطاوي مر ببعض الأحداث والوقائع في هذه الرحلة الإسلامية، فوصفها وحكى لنا حكايتها وروي لنا أحاديثها وقصصها، لذا وضعت هذا المؤلف في ضمن السيرة الذاتية وما السيرة الذاتية إلا حديث عن الوقائع والأحداث والتاريخ. يقول الشيخ علي الطنطاوي في المقدمة لهذا الكتاب موضحا أهميته وقيمته ومدى جهده في التصنيف والتأليف: "فلما قعدت أكتب مقدمة هذه الطبعة من كتاب إندونيسيا عدت إليه فنظرت فيه، فإذا أنا أقرأ كتابا جديدا، كتابا لا يصف إندونيسيا اليوم، ولكن يؤرخ لبعض ماكانت عليه بالأمس. أفأدع الكتاب لا أعيد طبعه، فيخسر القراء ما فيه من وصف، وما جاء فيه من حقائق، وإن منها لصفحات تعبت في إعدادها، وأرجو من الله الثواب عليها، كفصل دخول الإسلام إلى إندونيسيا، وفصل عن تاريخ الحركات

الإسلامية فيها، جمعته من أفواه الرجال الذين شاركوا في صنعه، وما أحسبه موجودا مثله في غير هذا الكتاب، لا لن أدعه ولكن أنشره على أنه كتاب تاريخ[1]".

وأما قصة بدء هذه الرحلة المباركة التي تمخضت عنها هذا الكتاب المنير لتاريخ إندونيسيا فهي أن في سنة 1954م قد عقد مؤتمر كبير في القدس لنصرة قضية فلسطين، فحضر الناس فيه من أقصاه إلى أقصاه، ووفد الناس إليه فوجا فوجا من جميع بلاد المسلمين من مراكش إلى إندونيسيا. وهذا المؤتمر قد جعلت لجانا عديدة ومن بينها كانت لجنة الدعاية عن قضية فلسطين، والإنعاش الروحي في نفوس المسلمين في جميع الأقطار الإسلامية، ودعوة الناس إلى نصرة الفلسطين وأهلها ماديا ومعنويا. وكان الشيخ علي الطنطاوي قد عين رئيسا للجنة المكونة من خمسة أعضاء، اثنين من العراق، الشيخ الزهاوي، والأستاذ الصواف، واثنين من الجزائر، والشيخ علي الطنطاوي. فاعتذر أهل الجزائر، وكان الأستاذ الصواف في حالة حرجة في كراتشي فلم يشارك، فبقي إثنان الشيخ الطنطاوي والشيخ أمجد الزهاوي. فطافا ثمانية أشهر في بلاد المسلمين، منها الباكستان والهند وماليزيا وأندونيسيا وغيرها. وكانا يشرحان للناس القضية الفلسطينية ويصفان لهم مأساة المسلمين في أرض المقدسة فلسطين، ويطلبان من الناس العون والمدد معنويا. أما العون المادي فآثرا السلامة في شرح القضية فقط. ألا يقول عنهما الناس الخائنين

---

[1] علي الطنطاوي، صور من الشرق في إندونيسيا ، ص 6.

والسارقين. فاحتالا حيلة علمية، فكانا يؤلفان اللجنة في كل بلد لجمع التبرعات وبعث المال مع الأمناء إلى الفلسطين.

أما الذكريات والأحاديث لجميع هذه البلاد التي زارها الشيخ وسافر إليها، يا حبذا لو كتُبت وجمُعت لكانت سجلا تاريخيا وأكبر موسوعة تاريخية سياحية بعد ابن بطوطة. فلا أدري لماذا اقتصر الشيخ على إندونيسيا فحسب ولم يتجاوز، أعتقد أنه ظن أن العرب يعرفون الهند وباكستان من أول يومها فلذلك إنه فضل الحديث لإندونيسيا على الهند وماليزيا وبما أنه أقام فيها أكثر مدة بمقابل بلد آخر فهذا ظني وتخميني والله أعلم.

يحكي لنا الشيخ الطنطاوي قصة دخول الإسلام في هذه المعمورة ويقول: "والذي يغلب على الظن، أن الإسلام قد دخل إلى هذه الجزائر قبل أن يصل إليها ابن بطوطة بأكثر من قرن ونصف القرن، حمله إليها التجار المسلمون، من طريقين: من بلاد العرب، ولا سيما من حضرموت، ومن بلاد الهند، ولا سيما من كجرات في الشاطئ الغربي. بدأ الناس في شمالي سومطرة يدخلون في الإسلام أفرادا، ثم صاروا يدخلون فيه أفواجا، ثم ألّفوا حكومة قوية هي (مملكة أتشيه) التي زارها ابن بطوطة، والتي لبثت

تجاهد المستعمرين البرتغاليين أولا، ثم الهولانديين حتى قضى عليها سنة 1904م أي بعد زيارة ابن بطوطة بأكثر من خمسمئة وخمسين سنة"[1].

أما القصص المتعلقة بهذا الباب فاكتفي بذكر بعض العناوين الشيقة التي تدعو الدارسين إلى قراءة الكتاب ومطالعته، وهي "إسلام أندونيسيا" و"الحركة الإسلامية في أندونيسيا" و"لمحات من تاريخ الدين والوطنية" إندونيسيا كما رآها ابن بطوطة" "يوم في الجنة".

يقول الشيخ متحدثا عن عمله في إندونيسيا "كان معنا في المؤتمر وفد إندونيسي فيه من كبار رجالهم..عقدنا المؤتمرات الصحفية شرحنا فيها قضية فلسطينية، فنشرت أخبار القضية في الصفحات الأولى من الصحف الأندونيسية، وألقينا سلاسل المحاضرات، وأقيمت لنا عشرات من الولائم والحفلات، منها حفلة وزارة الخارجية، وحفلة وزارة الشؤون الدينية، وأعدت لنا رحلة رسمية إلى جاوا الوسطى وجاوا الشرقية. وكانت ثمرة مسعانا أن الحكومة الأندونيسية كانت على وشك عقد المؤتمر الاقتصادي، وكان من أعضائه مندوب إسرائيل،فعملنا على منع هذا المؤتمر، فاستجابت الحكومة ومنعته.وكانت الثمرة الثانية ان استطعنا جمع الجبهتين الإسلاميتين في إندونيسيا

---

[1] نفس المصدر ص 106-107.

ماشومي، ومسلم ليك، فحضر رئيساهما الاجتماع الكبير، الذي عقدناه وتعانقا أمام الآلاف المؤلفة من الحاضرين، وتألفت لجنة مساعدة فلسطين من خمسة عشر عضوا[1]".

ويقول الشيخ مودعا أهل إندونيسيا وشاكرا على حسن إستقبالهم الحارة وضيافتهم الكريمة "لا يسعنا ونحن نفارق هذا البلد الحر، وهذا الشعب المجاهد، إلا أن نشكر للأمة الإندونيسية ما لقينا منها من صدق الإيمان، والحماسة للحق، والعطف على قضية فلسطين، ونشكر للحكومة الإندونيسية ما أولتنا من الرعاية والإكرام. ويتابع قائلا: "إننا إذ نودعكم، واثقين من إيمانكم، ومن بذلكم ومن نصركم، نكرر الشكر لكم حكومة وشعبا وأفرادا وجماعات ونذكركم بأن فلسطين تستصرخكم تدعوكم باسم الحق الذي سلب، باسم المساجد التي دنست، باسم الأعراض التي انتهكت، باسم البلاد التي دمرت، باسم المسجد الأقصى، باسم الشرف، باسم الإسلام، فلبوا الدعوة، التفوا حول اللجنة التي ألفت في جاكرتا، وانصروا الله في فلسطين ينصركم دائما والسلام عليكم[2]"

---

[1] نفس المصدر ص 195.

[2] نفس المصدر ص 197.

من نفحات الحرم:

وهذا الكتاب أيضا مجموعة المقالات –كما هو شأن معظم المؤلفات– التي كتبها الشيخ علي الطنطاوي في أزمنة مختلفة منها ما نشرت بين أعوام 1935 إلى 1965م، ومنها المقالات التي لم تنشر في الصحف والجرائد. ثم طبعت لأول مرة في سنة 1960م، ثم طبع مرة أخرى مع إضافات جديدة سنة 1980م.[1] وهو مشتمل على 144 صفحة من القطع المعتاد المعروف. والنسخة التي وجدتها أنا فهي من منشورات دار الفكر بدمشق عام 1400هـ1980م، معنى ذلك هذه الطبعة مع الإضافات.

ومن المعلوم أن الناس يقصدون إلى هذا البيت الحرام العتيق المقدس ويأتون إليه ذرافات ووحدانا في القر والحر في الليل والنهار في السلم والحرب داعيين وباكيين ومتلبين ومكبرين لله جل ثناءه وطائفين وعاكفين له مدى الأيام وكر الليالي. بدأ يسير هذا الموكب العظيم بسيدنا إبراهيم ولم ينقطع أبدا إلى يومنا هذا. ولو علم الأدباء والشعراء ما في هذا الدار من جمال صنعة، وزينة بنية، وصفاء منظر، لعجزت أقلامهم عن وصف هذا البيت المبارك. ولو شاهد الشعراء الناس ما يلمسون من جدران هذا البيت ويقبّلون أحجاره الكريمة ويتعلقون بأستاره المشرفة وما يجدون فيه من لذة الروح وبهجة السرور لتحير عقلهم ولطاش فكرهم من هذا المنظر الغريب والمشهد العظيم ويجد

[1] ديرانية مجاهد مأمون، علي الطنطاوي أديب الفقهاء وفقيه الأدباء، ص 117.

الشعراء أنفسهم عاجزين قاصرين عن التعبير عن هذه المشاعر النبيلة والعواطف الشريفة.

الشيخ علي الطنطاوي كان من الأدباء المعروفين فالناس لقبوه بأديب الفقهاء وفقيه الأدباء، حاول الشيخ الطنطاوي في هذا الكتاب وصف دار الحرم اختار لهذا الغرض تعبيرات جميلة وأوضح فيه علاقة المسلم الحقيقية بهذا الدار. وصف هذا الأديب الأريب شعوره العميق تجاه الحرم المكي وقال: "أحس –المسلم–[1] كأن قد حل عنه قيد الزمان والمكان. فرأى الزمان كله قد اجتمع هنا، والمكان كله هنا، الشام هنا، ومصر هنا، والعراق وفارس، وهنا أفريقية والمغرب، والسند والهند وجاوة، والأرض المسلمة كلها هنا. والماضي هنا، والحاضر هنا. في هذا الموكب يمشي إبراهيم أبو الأنبياء. ومحمد سيد الرسل (صلى الله عليه وسلم) والصحابة والتابعون. والخلفاء والأئمة والفاتحون. والمسلمون كلهم من كان منهم ومن سيكون. فما مسلم يطوف حول الكعبة إلا أحس أن وطنه الحق ها هنا. لا البلد الذي ولد فيه وشهد مدارج طفولته وملاعب صباه. فهل تراه يفكر في غيره ليستطيع أن يبحث عن "الصلات الروحية بينه وبين ذلك الوطن" يتابع المزيد ويقول: "فماذا أكتب عن المملكة التي فيها (الحجاز) منزل الوحي ومبعث الدين.

[1] هذه إضافة الباحث لفهم المعنى والكلام.

وفيها (نجد) مثابة العروبة ومهوى القلوب. وفيها الدين والدنيا. والإسلام والعروبة وأمجاد الماضي وآمال المستقبل[1]".

فإن الشيخ علي الطنطاوي قد عبر عن مشاعره وأحاسيسه وعواطفه للحرم الشريف. كنت قلقا ومضطربا أين أنا أضع هذا الكتاب؟ في باب التاريخ أو في باب الأدب، أو في باب الإسلاميات؟ فبعد التفكير ووضعته في باب سيرته الذاتية. لأن فيه وصف وذكريات وتاريخ، لذلك أذكره في ضمن سيرته الذاتية، وكما فعله حفيده مجاهد ديرانيه في تصنيف مؤلفاته وقد مر ذكره في الباب الثاني في المبحث الثالث.

إنه وصف في هذا الكتاب التاريخ النبوي والسيرة النبوية الشريفة والأماكن المقدسة، بحيث تتجلي فيه روحه الوثابة وإيمانه الكامل بدينه وقرآنه ونبيه، فهو يقول: "وما سعيت بين الصفا والمروة، وما صعدت جبل الرحمة، وما قمت في الروضة، أو وقفت على البقيع، أو مررت العدوة الدنيا والعدوة القصوى إلا شعرت كأني أعود إلى تاريخ السمو الإنساني، تاريخ السيرة النبوية، هذه هي المنازل التي نزل بذكرها جبريل وقدسها الكتاب[2]".

---

[1] علي الطنطاوي، من نفحات الحرم، ص 9.

[2] نفس المصدر، ص 15.

وقد وصف فيه الشيخ الطنطاوي أهمية أم القرى، وأهمية الإيمان تفضل بقراءة هذه القطعة "لقد كانت مكة قرية صغيرة متوارية بين الأخشبين ولم تدر بها رومة، ولم تحفل بها القسطنطينية، فلما دوّى فيها صوت محمد صلى الله عليه وسلم ينادي: لا إله إلا الله، ولا رب سواه، لا كسرى ولا قيصر، ولا اللات والعزى، وأنها خابت وخسرت الأصنام كلها. أصنام الحجارة وأصنام القبور، وأصنام اللحم والدم، وأن الفضل بالتقوى والعاقبة للمتقين. وقعت معجزة المعجزات، كبرت هذه القرية حتى أكلت مدن الباطل، ثم كبرت حتى ولدت مدن الخير والحق، ثم كبرت حتى صارت أم الأرض كلها[1]".

نذكر فيما يأتي بعض العناوين الممتعة الشيقة المذكورة في هذا الكتاب وهي "على غار حراء" و"وقفة في العقيق" و"في البقيع" و"في تبوك" و"عرفات" و"في طريق المدينة" و"على باب السلام" و"المدينة" و"إلى أرض النبوة" ستغني من جوعك العلمي.

كلما نقرأ وصفه الدقيق وتشبيه الجميل للصحراء لنظن كأنها تتماثل أمام عيوننا بمنظرها الرهيب، فهو يكتب في هذا الصدد : "تختصر صفتها ويوجز تاريخها في كلمتين اثنتين هما: الحب والحرب، فليلها للحب، ونهارها للحرب، حرب مع الشمس اللاهبة والرمال المشتعلة، والضلال والموت، حرب مع الناس، فإذا أدركك المساء، ولا يدرك مساءها إلا كل بطل صبار قوي متين، تفتح للحب قلبك، فأحسست فيه بشوق إلى الهيام

[1] نفس المصدر ص 15.

كشوق الظمآن إلى الماء الزلال، وشعرت كأن البادية كلها ملكك، فأنت في روضة وغدير، تعانق بدوها إن لم تجد من تعانقه، وتسامر نجمها إن أعوزك من تسامره، ويقبل عارضيك نسيمها الرخي الحبيب الذي يصور لك أنفاس الأحبة. أشهد لقد نقت ليالي الصحراء نفسي وصفتها وعلمتها الشعور بجمال القبح وأنس الوحشة وأغاني الصمت، فعرفت جمال الكون، فأوصلها إلى معرفة كمال المكون[1]".

وهذا الكتاب من عطاء رحلة الشيخ علي الطنطاوي من دمشق إلى مكة التي اختارها لكشف طريق الحج البري من بلده دمشق إلى مكة المكرمة. وهذه الرحلة كانت محفوفة بالغرائب ومليئة بالمخاطر. والمقالات فيه معنونة كما يلي: "من دمشق إلى مكة" و"الصحراء" "وليالي الصحراء" و"مخطط الرحلة" و"بعد القريات" والمقالة المدهشة المخيفة "فر من الموت وفي الموت وقع "خير شاهدة على ذلك. وإن من يقرأ صفحات هذا الكتاب ليجد فيه متعة أدبية، وصورة دقيقة من تبوك، وجبل أحد، والصحراء، والقريات والبوادي، ولمكة المكرمة والمدينة المنورة. كما فيه المقالات المتعلقة عن ذكريات علي الطنطاوي عن الحج ومشاعره وأحاسيسه عن المدينة والأماكن المقدسة مثل "في البقيع" "إلى غار حراء" وغير ذلك. يقول الشيخ علي الطنطاوي في إحدى إذاعاته من دمشق متذكرا أيام حجته: "يا أيها السامعون والسامعات، إنه ليس الخبر كالعيان، وأنا–مهما أوتيت من

---

[1] نفس المصدر، ص 98.

البيان- لا أستطيع أن أصف لكم ما يحس به الحاج عندما يقف أمام باب الحرم ويرى الكعبة لأول مرة[1]" ويقول في إحدى مقالاته "إنه المؤتمر الإسلامي الأكبر. أسأل الله أن يكتبه لمن لم ينعم به منكم، وأن يجعل لي ولمن حج معادا إليه[2]".

تعريف بـ"ذكريات":

ومجموعة "ذكريات علي الطنطاوي" مشتملة على ثمانية أجزاء، وفي كل جزء ثلاث مئة صفحة ونيف حتى يبلغ عددها ألفين وخمس مئة صفحة تقريبا من القطع المعتاد، وتحتوي المجموعة على مئتين وأربع وأربعين حلقة منشورة في مجلة "المسلمون" وجريدة "الشرق الأوسط"، وفي بعض الأجزاء من الذكريات نجد ملف الصور للطنطاوي ولإخوانه الصغار وأساتذته وشيوخه وزملائه وأصدقائه الكثير. وهذا الكتاب من منشورات دار المنارة بجدة. وها هي الطبعة الثالثة بين أيدينا لـ"ذكريات".

وفي المقدمة الشيخ علي الطنطاوي يعبّر عن شوقه وحلمه وأمله لكتابة الـ"ذكريات "فهذه ذكرياتي، حملتها طول حياتي، وكنت أعدها أغلى مقتنياتي، لأجد فيها يوما نفسي، وأسترجع أمسي، كما يحمل قربة الماء سالك المفازة، لترد عنه الموت عطشا، ولكن طال

---

[1] ديرانية مجاهد مأمون، علي الطنطاوي أديب الفقهاء وفقيه الأدباء، ص 119.

[2] نفس المصدر ص، 119.

الطريق، وانثقبت القربة. فكلما خطوت خطوة قطرت منها قطرة، حتى إذا قارب ماؤها النفاد، وثقل علي الحمل، وكل مني الساعد، جاء من يرتق خرقها، ويحمل عني ثقلها، ويحفظ لي ما بقي فيها من مائها، وكان اسمه (زهير الأيوبي) [1]".

أما مطالعة جميع الأجزاء من حيث الموضوع والأسلوب سنرى الكلام عنها في الباب الخامس في المبحث الثالث بإذن الله، فإنني وضعت الحديث عن "ذكريات" بكل تفصيل وتطويل، فنرجو من القراء الكرام أن يراجعوا الباب الخامس للمزيد عن المعلومة عن "ذكريات".

الباب الرابع:"ذكريات" من منظور تاريخي

المبحث الأول: ذكرياته الاجتماعية

المبحث الثاني: ذكرياته الثقافية

المبحث الثالث: ذكرياته السياسية

---

[1] علي الطنطاوي، ذكريات 5/1.

المبحث الأول: ذكرياته الاجتماعية

التاريخ في ذكريات:

ما كان في طفولة الشيخ علي الطنطاوي المطبعة ولا آلات الكتابة والنسخ مثل ما نرى هذه التسهيلات اليوم في الجامعات والمدارس، فكان الطلاب ينقلون نص الكتب بأيديهم على الأوراق وكانوا يخطون بأيديهم. فنسخ الشيخ علي الطنطاوي كتب كثيرة يزداد عددها آلافا من التاريخ القديم والحديث والجغرافيا والعلوم، ثم عكف عليها ودرسها بكل إهتمام ورغبة، حتى صار عالما موسوعيا وأديبا كبيرا ومؤرخا ممتازا وكما تحدث عن نفسه قائلا بأنه قد قرأ ما وقع تحت يديه عن موضوعات مختلفة. ولأجل سرعان ما كان تنفد عنده الأوراق والقراطيس ويكاد يملّ القراء والدارسون ولكن ذكرياته ما انتهت وكلماته ما نفدت. يحكي لنا الشيخ علي الطنطاوي حكايته الدراسية: "هو أننا كنا نأخذ أمالي المدرسين ممن سبقنا من الطلاب، فننسخها بأيدينا. ولقد كتبت آلافا (آلافا حقيقية لا مبالغة) من الصفحات، في التاريخ القديم والأوسط والحديث والجغرافيا والطبيعية والسياسية والاقتصادية والكيمياء المعدنية والعضوية والفيزياء وعلم الحيوان والنبات والجبر والمثلثات والهندسة المسطحة والفراغية والنسبية، وسائر العلوم"[1].

---

[1] علي الطنطاوي، ذكريات 162/1.

وكان له شغف زائد بالتاريخ فكان جوالا في رحاب التاريخ الإسلامي ومكبا على أمهات الكتب التاريخية الإسلامية للطبري وابن الأثير وابن كثير، فاستشف عبيرها، واستخلص عبرها ودروسها، وكتاباته التاريخية–"قصص من التاريخ"، و"رجال من التاريخ"، و"حكايات من التاريخ"– خير شاهدة على ذلك[1]. يقول عن أهمية التاريخ الإسلامي مع بيان عيب أمته تجاه التاريخ متحذرا: "إن تاريخنا أعظم تاريخ، ولكننا أمة تجهل تاريخها، وهذا التاريخ الذي ليس لأمة مثله، هذا التاريخ الذي يفيض بالحب والنبل والتضحية والبطولة والإيمان[2]". يقول متحذرا الشباب عن اهتمامهم بتاريخ الأمم الأخرى: "إنه أخصب تاريخ في الدنيا وأحفله بالعظماء، ولكن عيبنا أننا لا نعرف تاريخنا ولا نقدر عظماءنا، ونتسابق إلى اقتناء الزجاج من عند غيرنا ونزهد بالألماس الذي تفيض به خزائننا. فيا أيها الشباب لا يخدعكم زجاج غيركم عن جوهركم"[3] ويقول مرة عن نفسه بأنه يكتب التاريخ للتاريخ لا للفخر والمجد "وأنا أقرر للتاريخ لا للفخر[4]" و يواصل مزيدا وهو

---

[1] هيشور، محمد أحمد، علي الطنطاوي كما يمثله لي الخيال من خلال كتاباته، مجلة الأدب الإسلامي، ص 60،

[2] علي الطنطاوي، رجال من التاريخ، ص 9.

[3] علي الطنطاوي، ذكريات الجزء الثاني ، ص 195.

[4] نفس المصدر 36/2.

يقول بأنه يلتزم الصدق والأمانة في حين كتابة التاريخ كما يلي: "ما دمت أكتب تاريخا، لا أتنكب فيه إن شاء الله، جادة الصدق"[1].

ففي كتاب "ذكريات" ليس فيه حديث عن الطنطاوي فقط، بل لو تصفحنا جميع الأجزاء وقرأناه وقارناه كم كتب عن نفسه، وكم كتب عن دمشق، وعن البلدان الأخرى وعن الأحداث والوقائع والأساتذة والشيوخ، فعرفنا أن مجلدا أو مجلدين لكفى لحياته وأحداث حياته، وأما الحديث الآخر والذكريات الأخريات فهي عن أحوال الناس المختلفة من السياسة والثقافة والاجتماع والأدب والدين[2]. كما فعل صديقه العقاد في سيرته الذاتية "أنا" وتحدث عن حياته الأدبية والسياسية والاجتماعية المتصلة به[3]. فالذكريات هي مرآة للمجتمع وللزمان الذي عايشه صاحبه، وصورة صادقة لأهل زمانه. ويقول الكاتب بأن السير الذاتية مقيد بقيد التاريخ والثقافة يقول: "وأنا أوافق تماما على أن جميع السيرة الذاتية مرتبطة بسجن التاريخ والثقافة".[4]

---

[1] نفس المصدر 55/2.

[2] آل مريع، أحمد بن علي، علي الطنطاوي كان يوم كنت (صناعة الفقه والأدب)ص 104.

[3] العقاد، عباس محمود، أنا، المجلد الثاني والعشرون، ص8.

[4] Mcdowell, Deborah E. A brief history of autobiography, Research paper, p.3

وهذه "ذكريات علي الطنطاوي" هي سجل تاريخي مهم بأنه يهتم بالتاريخ كثيرا يقول: "فأنا أسجل تاريخا، وأكتب عما كان[1]". وفي هذا الإطار يذكر وليام ماثيوس بأن من الواجب على صاحب السير الذاتية أن يكتب التاريخ المعاصر يقول: "قد بدأ بعض الناس يكتبون عن حياتهم وتاريخ عائلتهم، ولكن من المهم والضروري في كتابة السيرة الذاتية هو تسجيل التاريخ المعاصر الذي عاصره وعايشه ودوره الذي لعب فيه، وهذا هو المحرك العام لكتابة اليوميات والسير الذاتية[2]". وهذا التاريخ المعاصر نجد عند الشيخ علي الطنطاوي في ذكرياته.

يقول إحسان عباس متحدثا عن الدوافع التي تؤدي إلى كتابة السير الذاتية "من أقوى البواعث على كتابة السير الذاتية، وإذا كان متهما في أنظار الناس وعند الحقيقة، وإذا كان يحس بعظم الرسالة التي وكّلت إليه، والناس من حوله لا يقدرونها، ولا يأبهون بها، كان الكشف عن دخائل الأمور المتصلة بحياته، طريقه الطبيعي إلى إحقاق الحق وإعلان الصدق، ووراء كل سيرة هذا الدافع النفسي أو ذاك، وغاية مرصودة، لا يعلن صاحبها عنها، لأنها كالصورة الكلية للعمل الفني، تظل غائمة، حتى تكتمل السيرة[3]".

---

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، الجزء الثالث، ص 28.

[2] William Matthews, Ralph, W. Rader, Autobiography, Biography and the novel, p. 5.

[3] إحسان عباس، فن السيرة، ص 100.

فنجد أن هذه الدوافع كانت موجودة لدى الشيخ علي الطنطاوي التي دفعته إلى الكتابة إلى إحقاق الحق وإعلان الصدق. وكان يحس بعظم الرسالة التي أسندت إليه بحيث كان معلما وكاتبا وصحفيا وقاضيا فرأى من المناسب أن يشارك تجربته مع الناس، ولأجل ذلك كتب ذكريات وملأها بحديث الناس وأحوال الناس وأوصاف الناس وأحاديث الزمان والمكان.

والسيرة الذاتية هي جزء من التاريخ، وليس التاريخ إلا ذكر الزمان والمكان والشخصيات، يقول الكاتب الإسلامي والمفسر العظيم والناقد الكبير سيد قطب معبرا عن أهمية السير الذاتية: "التراجم الشخصية فن حديث من فنون الأدب، انفصل عن علم التاريخ، ودخل عالم الأدب من باب الطاقة الشعورية التي يبثها الأديب في موضوعه، والقيم الفنية التي يضمنها تعبيره[1]." وللشيخ علي الطنطاوي حق أن يشارك مع الناس ما شاهد في البلد من العسر واليسر ومن الفقر والغناء ومن تقلبات الدهر في بلده وخارجه. فحياته كحياة الناس وحياته مرآة لحياة عامة الناس، لذلك أودع ذكرياته الحلوة أو المرة الجميلة أو القبيحة في هذا الكتاب ذكريات. يقول ميك داول بأن الكتاب When

[1] سيد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، ص 103.

Memory Speaks فإن صاحب الكتاب يروي الحوادث والوقائع للقرون الماضية ويعبر عن رأيه فيها[1].

نقدم صراحة الشيخ الطنطاوي عن نفسه بأنه يحس الخجل والندامة الذكر الكثير عن نفسه والناس يملون بقراءة الكثير عن شخص واحد الذي يتحدث عن نفسه فقط، ولايجاوز الحديث عن أقرانه وأصدقائه وعن بلده وعن الكتب والأساتذة وعن العلماء والوجهاء. ويقول الشيخ الطنطاوي في هذا الصدد: "لوكانت ذكريات ملك أو أمير، أو قائد كبير، لغذت التاريخ بإظهار الخفايا وكشف المخبآت، ولكنها ذكريات واحد من الناس، كل الذي عمله أنه قرأ وأقرا، وأنه كتب وخطب، وما أكثر الكتاب والخطباء. وإني لأخجل حين أشغل القراء بنفسي، لذلك أفر إلى وصف أحداث البلد وأخبار الناس، وهذا ما لامني عليه رئيس التحرير"[2].

وهذا عصر الديمقراطية، وذهبت الأرستقراطية من غير عودة[3]، ففيه أهمية عامة الناس كالخاصة، فكل صغير وكبير ووضيع ووجيه له أهمية في التاريخ. وكان الناس في قديم الناس يصور أحوال الملوك والرؤساء وكان ذكر الفقراء في مجالس الملوك والأمراء

---

[1] Mcdowell, Deborah E. A brief history of autobiography p.2.

[2] علي الطنطاوي، ذكريات الجزء الأول، ص 116.

[3] أحمد أمين، حياتي، الجزء الأول، ص 8.

لإضحاك الأغنياء والرؤساء، وكان المؤرخون يؤرخون للملوك والوزراء ولا يهتمون بالفقراء والضعفاء والجمهور. ثم دار الزمان دورته، ثم صار كل شيئ موضوعا للرواية والقصة والتاريخ فبدأ الأدباء يصورون كوخ الفقير مثل قصر الأمير وشرع المؤرخون يؤرخون الزراعة كما يؤرخون الإمارة، فحياة العامة والخاصة أصبحت حديث المؤرخين والكاتبين. يقول أحمد أمين: "لست بشيئ من ذلك –السياسي العظيم، أو المغامر، والزعيم المصلح– ولا قريب من ذلك، ففيم أنشر "حياتي"؟ ولكن سرعان ما أجيب بأن عصر الأرستقراطية كاد يزول من غير رجعة، وينقضي من غير عودة، وأزهرت الديمقراطية فحلت محلها ونشرت سلطانها، وتغلغلت حتى في الفن والأدب. كان الشعر في الشرق لا يعيش إلا في قصور الخلفاء والأمراء فعاش في الناس بعيدا عن القصور. وكانت أهم موضوعاته المديح وخير أساليبه المزوق المطرز، فصارت مواضيعه كل شيئ إلا الإفراط في الزينة، وكانت الروايات التمثيلية في الغرب لا تتخذ موضوعها إلا من حياة الملوك والأمراء. ولا تعرج على شيئ من حياة الفقراء إلا لإضحاك الأغنياء. ثم دارت الزمن دورته، فصار كل شيئ موضوعا للرواية كوخ الفقير وقصر الأمير،–وكان المؤرخ للخلفاء وأعمالهم، ومبانيهم وحروبهم وإقطاعهم، ومن اتصل بهم، وما صدر عنهم من فعل، وما روي لهم من قول، ولا شيئ غير ذلك، ثم صار المؤرخ يؤرخ للشعب كما يؤرخ للسلطان. ويؤرخ الفقر كما يؤرخ الغني. ويؤرخ الزراعة كما يؤرخ الإمارة، فحياة المغمورين مهمة كحياة

المشهورين. فلماذا –إذا– لا أورخ "حياتي" لعلها تصور جانبا من جوانب جيلنا وتصف من أنماط حياتنا. ولعلها تفيد قارئا، وتعين غدا مؤرخا"[1].

وأحمد أمين كان معاصرا للشيخ علي الطنطاوي وكان بينهما مراسلات ومكالمات[2]، فمارسا الصحافة وعملا في القضاء وعلّما الجيل وهما تركا سيرة ذاتية ونجد فيهما تاريخا وأدبا ومتعة وتسلية. وفي السيرة الذاتية للشيخ علي الطنطاوي قصص عن دمشق وعن الاستعمار وحكايات غريبة عن الحرب والضرب وورايات عن العلم والعلماء وقصص وأحداث. ففي الحقيقة هي ذكريات عن دمشق وعن العصر الذي عاشه وشاهده، وعن العلماء الذين جالسهم وعن الملوك الذين لاقاهم "فهي وثيقة تاريخية واجتماعية وعقلية مهمة تكشف أحوال الناس المختلفة سياسية وثقافية واجتماعية وأدبية ودينية في فترة حرجة جدا من تاريخ أمتنا المعاصر، أي: منذ عام 1914م–1332هـ أو قبلها بقليل إلى أواخر عام 1408هـ–1988/1987م وهذه الفترة تعد امتدادا لما يسمى بعصر النهضة وبالذات في نصفها الأول، وهي من أخصب الحقب الزمانية التي اجتازتها الأمة العربية الإسلامية ففيها أفاقت من سباتها العميق الذي كانت تغط فيه، واصطدمت بمعطيات ثقافية غربية، ومدنية وقيم أيديولوجيات غربية استطاعت أن تؤثر

---

[1] نفس المصدر، ص 8–9.

[2] علي الطنطاوي، ذكريات، الجزء الخامس، ص5.

إلى حد كبير في تكوين العقلية العربية الحديثة وما ورثته من أخلاق وأفكار وعادات. وتجود الذكريات إلى هذا بالكثير من الحقائق التاريخية الخافية، وتحتفظ لنا ببعض التراجم لأعلام كبار أسهموا في خدمة الدين واللغة العربية، ونافحوا عنها موجة التغريب بالتعريب، وكان لهم يد في غرس حبها في نفوس الناشئة وتطويعها للحياة الجديدة. وتقدم إلى ذلك كله رؤية حضارية وتربوية لمفكر وأديب وداعية، شارك بما يستطيع في الدعوة إلى تحقيق مفهوم حضاري إسلامي ملتزم بالقيم والثوابت، ومرن في تقبل الوافد والجديد مادام قادرا على الصمود والمقاومة والمساهمة في رفاهية الحياة ومثاليتها وتقدمها"[1].

ففي السطور الآتية نتحدث بقدر من التفصيل عن ذكرياته في باب الاجتماع والثقافة والسياسة وبتعبير آخر عن محيطه ووسطه، وثقافته وأساتذته، وعن سياسة الاستعمار والحرب. أما الحديث وذكرياته في باب الأدب والنقد والشعر فسيأتي في الباب الخامس والأخير بإذن الله ولكن سيكون كل هذا وذاك من منظور فن السيرة الذاتية وأصوله.

[1] آل مريع، أحمد بن علي، علي الطنطاوي كان يوم كنت ص 104-105.

ذكرياته عن جبل قاسيون والغوطة ومقبرة الدحداح:

قضى الشيخ علي الطنطاوي حياته من الطفولة إلى الكهولة في بلد دمشق، فولد ونشأ وترعرع في بيئة علمية دينية لدمشق وفي أحضان العلماء والأفاضل المتواجدة في دمشق ولعب وتلاعب وجلس وتجالس على ضفاف نهر بردى وذروة جبل قاسيون وعلى عتبة المدارس والمحافل. وترك كل هذا أثرا كبيرا في حياته، حتى انعكس آثار دمشق في دماغه، وبقيت طوال حياته حتى ذكرها في ذكرياته بناء على ذهنه وذكريات.

في هذه السطور الكاتب يذكر جبل قاسيون، وكان يعيش بجواره، وكانت الغوطة إحدى بساتين الجنة على الأرض في بلد دمشق حيث يقف الكاتب على هذه الديار ويذكر أيام طفولته وشبابه كما يذكر أهله وأصحابه وأصدقائه وأترابه ومن كان فيها من الناس. ثم يتساءل عن نفسه هل تعود هذه الأيام بمجرد الذكرى وبسرد الذكريات؟؟ كلا! ثم يعرج الكاتب على مقبرة الدحداح ففيها قبر أمه وأبيه وهما كانا مسرات حياته وموطن أحلامه. وفي الدحداح قبر الشهيدة بنان بنت علي الطنطاوي، وهي أعز عليه من الأبوين الكريمين، نجد في هذه القطعة الأدبية تشبيها رائعا وعاطفة صادقة، فكيف شبه الكاتب دموعه أنه يسيل الدموع كل يوم لإرواء صاحبة هذا القبر. إنها استشهدت في بلد الألمان على يد بعض الشرار، وكان الشيخ علي الطنطاوي يذكرها دائما آناء الليل وأطراف النهار ويبكي دما حين يذكرها.

"وإلى قاسيون وداري فيه؟ وهل أرى الربيع في الغوطة؟ والثلج على شعفات جبال المزة؟ أم انقطع به عهدي فلا أمل لي فيه؟ هبوني عدت فهل أرى في الشام دار شبابي؟ ومنازل أهلي وأصحابي؟ إن عدت إليها فهل تعود أيامي فيها؟ هل أقف على القبرين المتجاورين النائمين متعانقين على كتف الساقية في "الدحداح" كما كان يتعانق ساكناهما في الحياة؟ إن فيها أبي وأمي، لقد دفنت مسرّات حياتي في هذين الجدثين، أصبحت كنبتة قطعت جذورها، وجدث ثالث فيه من هو أعز علي منهما، ما عرفت الطريق إليه حتى أقف عليه، وماذا يفيدني إن أقف عليه وقد حال التراب بيني وبين قطعة عزيزة من قلبي أودعت هذا القبر؟ إني لأريق الدمع كل ليلة أسقي بها هذا القبر البعيد في طرف بلاد الألمان، حيث لا يراني أحد، ثم أنتبه فأجد أنه لا الدمع ينفع فيه ولا الأحزان، ما ينفعني ولا ينفعها إلا الرحمة من الله والغفران، فاللهم قد أكرمتها بالشهادة، فارزقها ثواب الشهداء، وارزقناالصبر على البلاء"[1].

ذكرياته عن الغوطة:

الغوطة حديقة وبستان أو بأصح تعبير جنة على أرض دمشق، لها ذكريات جميلة وحلوة على وجدان الشيخ علي الطنطاوي، ولأشجارها الباسقة أثر مثل الجوز والزيتون والرمان، ولأزهارها بصمة مثل الورد والفل والياسمين. كيف يكون المنظر الخلاب الجميل للغوطة

[1] علي الطنطاوي، ذكريات،4/105-106.

إذا حل فصل الربيع فيها. يقول الشيخ الطنطاوي واصفا هذا المنظر: "و(الحور) لم يبق منه إلا عيدان، فكأن (الحور) فتية أذاب جسومهم الغرام، فأضحوا من جواه جلودا على عظام، و (المشمشات) كأنهن معشوقات هجرهن الأحبة، أخذوهن عذارى طاهرات، فقطفوا (زهراتهن) وتركوهن فأبن بلوعة ولبسن عارا، و(الجوز) العاري يقف صابرا، عظيما في نعمته. أما (الزيتون) فلا يرى إلا لابسا ثيابه، لا هو يلقيها عنه ولا هي تبلى عليه، ثابتا على حاله لا يحس بالغير، ولا تستخفه الأحداث، فلا يضحك بالزهر إن أقبل الربيع، ولا يأسى إن جاء الشتاء وبكت السماء، فهو الفيلسوف الذي لا يبالي من الحياة أفراحها وأتراحها ولا يحس نعمها ولا نقمها"[1].

وبعد برهة من الزمن سنح له فرصة سعيدة بعد غياب طويل لزيارة دمشق، فالشيخ الطنطاوي يمر بالغوطة بسيارته الفاخرة وراح يذكرها في ذكرياته العطرة يقول متنزها:" وتوجهت بي السيارة إلى البلد، تمشي خمسا وعشرين كيلا في بستان واحد، وهو ما بقي من الغوطة الشرقية، تتماسك أشجاره تماسك أيدي الأصدقاء ساعة اللقاء، وتتعانق فروعها تعانق العشاق بعد طول الفراق، حتى بلغنا دمشق"[2].

---

[1] نفس المصدر 247/2.

[2] نفس المصدر 18/1

ذكرياته عن بعض أسماء الأحياء والبلاد:

كان الشيخ علي الطنطاوي عالما موسوعيا له في كل باب معرفة وله في كل ميدان تجربة. بدأ حديثه بمكتب عنبر، ثم طال الحديث باستطرادات مختلفة نافعة علمية، وفي باب الاستطرادات يذكر حكاية الأسماء للأحياء والبلاد."سألني الإخوان عن (عنبر) هذا، الذي سميت باسمه هذه المدرسة العظيمة، التي كانت وحدها فصلا كاملا من تاريخ الشام الحديث، ما عنبر هذا؟ فضحكت لأن عنبر لم يكن عبقريا ولا عظيما بل هو اسم الرجل الذي بنى هذه الدار، وهكذا ترون أن الشهرة وبقاء الاسم، ليسا دليل عظمة الرجال. في جدة حي من أفخم أحيائها الجديدة، اسمه (حي عنيكش) فاسألوا من (عنيكش) الذي كرمناه فسمينا باسمه حيا كاملا، والناس إن كرموا عظيما سموا به شارعا واحدا.؟ وباب إبراهيم، من أشهر أبواب الحرم ما سمي باسم سيدنا إبراهيم الخليل، كما ظن من أطلق اسمه على الشارع، بل باسم خياط كان (دكانه) عند هذا الباب وأميركا، ما سميت باسم كريستوف كولومبس الذي اكتشفها بل باسم بحار اسمه (اميركو فيسبو سيو) كان من أوائل من أبحر إليها بعد اكتشافها بخمس عشرة سنة"[1].

[1] نفس المصدر 111/1.

الرقص الصوفي في دمشق:

إن الشيخ علي الطنطاوي شاهد الأناس أصحاب طريقة صوفية يرقصون ويطربون ليل السابع والعشرين من رمضان، فكتب نكيرا لهم وبما هذا العمل خلافا للشرع الشريف، مالهم بذلك من علم، وليس عندهم سلطان ولا برهان. وبعد قراءة هذه السطور إن القاري يظن أنه على قبر نظام الدين الأولياء رحمه الله (في دلهي) والناس يرقصون ويطربون مثل ذلك، وبعد قراءة هذه الصفحات من الذكريات إن الصور التي شاهدتها أنا على قبر نظام الدين الأولياء تماثل أمامي تماما بهذا الوصف الذي وصفه الشيخ علي الطنطاوي للصوفيين في دمشق، يقول الشيخ الطنطاوي ويذكر ذكرياته عن أهل التصوف في دمشق، ترى كيف يصف لباسهم وزيهم وطريقتهم:

"وهم يتخذون إزارا ضيقا من أعلاه من عند الخصر، واسعا من تحت، ثم يدورون فيه لا دورة ولا دورتين، ولا تستمر دوراتهم دقيقة ولا دقيقتين، بل نصف ساعة أو ساعة لا يقفون ولا يستريحون، والإزار ينفتح حتى يصير مثل المخروط الناقص في الهندسة، وعلى رؤوسهم قلانس طويلة مثل علب اللبن التي كانت على أيامنا بشكلها ولونها، ولقد كتبت أنكر صنيعهم هذا"[1].

[1] نفس المصدر 193/7.

ذكرياته عن أهل دمشق في عهد الفرنسيين:

في الشام بقي الفرنسيون خمسا وعشرين سنة، وكان الشيخ علي الطنطاوي يجادلهم ويناظرهم ويناضلهم عن طريق الكتابة والخطابة طلبا للحرية والكرامة ورفضا للانتداب فكتب عن المستعمرين كثيرا ولكنه يقول عن طباع بعض الناس في الشام في زمن الفرنسيين المستعمرين الذين باعوا دينهم بعرض من الدنيا قليل وكانوا يميلون إليهم ميلا عظيما ويسايرون معهم كل السير لكي ينالوا منصبا أو مالا، هذه الطبقة من المنافقين الفاسقين أضرت دوحة الإسلام الباسقة ضررا فادحا في كل عصر ومصر حتى في دمشق. ولكن بقي الشيخ علي الطنطاوي صابرا مناضلا مجادلا. يذكر ذكرياته قبل نصف قرن وكما يذكر معاملة الناس المنافقين الفاسقين من أهل دمشق في زمن عهد الفرنسيين "ما كففنا يوما منها عن جدالهم (الفرنسيين) وجلادهم، طلبا للحرية التي استلبت منا، ورفضا لهذا الانتداب الذي فرض علينا، ولكن كان فينا(كما يكون في كل أمة من الناس) من مالأهم، ومال معهم أو سايرهم وداراهم، باع دينه بعرض من الدنيا قليل : بمنصب أو بوجاهة أو بمال، فأعانهم بمنصبه– أو بقلمه أو بلسانه، أما أنا فما قابلت (والحمد لله) من الفرنسيين"[1].

[1] نفس المصدر 15/2.

المجتمعات ظالمات على البنات:

إن المجتمعات الإنسانية مكونة من أب وأم وابن وبنت، ولكن يعامل الآباء والأمهات مع الابن مع تسامح وتراحم وتعاطف، وأما بالنسبة إلى البنت فليس لها تسامح ولا تراحم ولا تعاطف من قبل الأبوين. والمجتمعات ظالمة في هذا الشأن مهما كان المجتمع عربيا أم غير عربي شرقيا أم غربيا. فيذكر الشيخ علي الطنطاوي وقعة في استطراداته في مقال له بعنوان "جريدة الأيام" أن بعض الشبان في الشام كانوا يتعرضون البنات، والصحف والمجلات والروايات تذكي هذه النار في الشبان كثيرا عن طريق الصور والإعلانات، وقانون العقوبات ليست بيدها شيئ ما يحمي البنت ويردع الشباب عن هذا الفعل القبيح. فمرة أمر الشعبة الأخلاقية بأن الشرطي يمسك كل شاب يعرض لفتاة ويريد مس عرضها وشرفها ويجلده عشر جلدات غير مؤذيات حتى يمتنع عن فعله. ثم إنه يذكر أن بريئا ضُرب بيد شرطي وضربه الشرطي ضربا مبرحا حتى جعله عبرة للناس وعظة للأشرار، وارتدع الشبان السفهاء وأمنت البنات من إغراء الشبان ومكر الرجال. وبعد ذكر هذه الوقعة بدأ الشيخ علي الطنطاوي ينصح للبنات، بأن البنات مسؤولات بأنفسهن أولا، لو لم يخرجن متبرجات بزينتهن ومتكشفات بجسمهن ولم يختلطن بالشبان لما وقعت ما يقع كل يوم وليلة. ولو سترن اللحم ما شم ريحه ولا طمع فيه القط، ولكن البنات تخضع بالقول اللين فيطمع الشبان الذي في نفسه مرض وشهوة، وهذه البنات تبدي الرضا فيزيد هذا

الشاب كلاما وحوارا ونظرا إلى جمالها ثم ينوي أن يسد جوعه الجنسي بها. ولو حجبت هذه البنت صورتها لما وقعت بيده ولما عرضت، ولو سدت في وجهه الطريق أول مرة ولو عن طريق الجوال والرسائل لما بلغ منها شيئا مما كان يريد ويشاء الشبان. وإن المجلات والروايات والأفلام كلها تدعو الشبان والشابات إلى السفور والاختلاط وينشرن الصور العاريات، والكلام الفاحش، وهي أيضا مسؤولة ثانية، كما هناك مسؤول كبير ألا وهو دعاة التكشف والاختلاط عن طريق الروايات والأفلام والمهرجانات. يقول الشيخ تهكما وسخريا لهؤلاء الدعاة من أمثال قاسم أمين وتوفيق الحكيم أن معظمهم من أشرار الناس عزاب غير متزوجين ليس لهم أولاد يخافون عليهم الفساد، ولا بنات يخشون على عفافهن الضياع لعرضهن. "إننا في أنظارهم رجعيون وجامدون ومتعصبون لأننا لم نقل لهم: تفضلوا انتقوا من تشاؤون من بناتنا، لتصاحبوها في السينمات وتراقصوها في السهرات"[1].

يقول الشيخ الطنطاوي ناصحا ونذيرا: "المجتمعات يا بنات ظالمات، تسامح الشباب، تقول: (شاب أذنب وتاب) ولا تسامح الفتيات، إنها تغفر له زلته وتنسى حوبته، ويبقى أثر الذلة في البنت، ثقلا في بطنها. ووصمة على جبينها، لا تفارقها حتى تفارق حياتها. إن الذين يزينون لك السفور والحسور، والعمل مع الرجال، وكشف الجسد بحجة

[1] علي الطنطاوي، صور وخواطر، ص 207.

الرياضة أو الفن، أو الكشف الطبي بلا ضرورة، أو الخلوة الأجنبي بلا داع، إنهم لا يريدون رياضة ولا فنا ولا شيئا مما يدعونه، ما يريدون إلا أن تكشفي عن جسدك، ليستمتعوا بجمالك، ولو بالنظر أو اللمس، إن لم يقدروا على أكثر من ذلك، فلا تكوني عونا لهم على نفسك، ولا تمتعيهم بشيئ منه، إلا أن تربطي أحدهم من عنقه برباط الزواج، وإلا أخذ منك أعز ما لديك وهرب. إن حب الشاب يا بنتي (خطف) لذة دقائق، يخطفها ويهرب خفيفا، وحب الفتاة (بقاء) أثر هذه اللذة تسعة أشهر، ثم القيام عليها طول العمر، يلبس لك جلد الحمل، يلقي عليك مثل هديل الحمام، يذل لك، يطعمك ويعدك، فإذا نال الذي يريده منك، نزع جلد الحمل فبدا الذئب، وسكت هديل الحمام وسمع فحيح الحية ونعيق الغراب، ثم أعرض عنك، وتعالى عليك، وأنكرك وأنكر ولده منك، ثم تركك مع ألمك وندمك، وذهب يفتش عن حمقاء أخرى يعيد المسرحية من أولها. إن أكثر من عرفنا من دعاة التكشف والاختلاط ما لهم زوجات، ولا أولاد، وأنا رجل لي بنات ولي حفيدات، ولحفيداتي أولاد، فأنا أنصحكن وأدافع عنكن كما أنصح بناتي وأدافع عن حفيداتي..وإنها تذكرة لمن شاءت من البنات أن تذّكر"[1].

[1] نفس المصدر 2/83-84.

الأخلاق الفاضلة للإصلاح الاجتماعي:

هنا نريد أن نعرض أمامكم حادثة عجيبة وقصة طريفة تبين لكم أن أسلافنا كانوا على قمة الصبر وعلى أوج الأخلاق العالية، وهذا المثال يأتي في باب الأخلاق الفاضلة أضرب لكم من كتاب "ذكريات" للشيخ علي الطنطاوي الذي فيه قصص ممتعة وحكايات كثيرة ذات نصائح وعبر بدون حساب. ففي هذه القصة عبرة ونصيحة للدعاة والعلماء العاملين في تحسين وضع الأمة الإسلامية. وهذه القصة الشائقة تقول لما كان يطوف – السر سيد أحمد خان– أرجاء الهند، ليجمع المال لإنشاء الجامعة وفد على ولاية نوابها (واليها) مسلم، ولكنه معارض لمشروع الجامعة، وكاره لأحمد خان، فسأله أن يشارك في هذا التبرع، فوعده بأن يرسل إليه ما يقدر عليه. فلما عاد أحمد خان إلى بلده ومضت أيام جاءه في البريد صندوق صغير من قبل هذا النواب، فحسب أن فيه هدية ثمينة، أو مبلغ من المال، فلما فتحه وجد فيه حذاء قديما! أفتدرون ما الذي فعله أحمد خان؟ لم يعلن غضبه عليه ولم يرد الحذاء إليه، ولم يشهر به بين الناس، ولكنه باع هذا الحذاء بقروش قليلة معدودة، وبعث إليه سند إيصال بهذا المبلغ، ومع الإيصال كلمة شكر. فاستحيا النواب وتبرع بخمسة وعشرين ألف ربية للجامعة[1]". فالصبر سلاح وجنة للداعيين وحلم وحكمة أسلحة للمجددين والمبلغين.

---

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، 207/5.

ذكرياته الرمضانية في أندونيسيا:

زار الشيخ الطنطاوي أندونيسيا وقضى فيها شهر رمضان، وإن الشيخ يصف لنا صورة المائدة عند الإفطار في شهر رمضان المبارك في بلد أندونيسيا، ويذكر لذة طعامه معهم وحلاوة رمضانه مع أهل أندونيسيا، وكيف تعاون معه سفراء مصر وهو يقول: "ومن ذكريات رمضان في أندونيسيا صورة لا تزال واضحة خطوطها، هي أني كنت كما مر بكم في الفندق الكبير جدا، في الجناح الفخم جدا، ولكني كنت ضيق الصدر جدا، أصوم ثم لا أجد على مائدة الإفطار ما آكله، لا لقلة الطعام، بل لأني لا أجد طعاما أعرفه وآلفه، ثم إنه مملوء بهذه (الشطة) التي تلهب الفم، وتحرق الصدر، وقد أوصيتهم على طعام يعدونه لي فما أحسنوا إعداده، ولا أسغت طعمه، في هذه الشدة سخر الله لي اثنين كريمين، رجلين دبلوماسيين، سفير مصر الأستاذ العمروسي، والقائم بالأعمال السعودي الأستاذ عزت الكتبي ففتحا لي داريهما فعرفت كيف آكل وأعرف الآن كيف أشكر. ولمائدة الإفطار سحر، ولها فلسفة وهي أن الناس كلهم فيها كطلاب المدرسة الداخلية، أو أبناء الأسرة الواحدة، حين يجتمعون على المائدة في وقت واحد، يأكلون طعاما قد لا يكون واحدا في نوعه ولكنه بعد هذا الصيام يكون واحدا في لذته"[1].

---

[1] نفس المصدر 199/7.

ذكرياته عن الهند وتاريخها وأهلها:

لقد قام الشيخ الطنطاوي بزيارته للهند في سفره المبارك لدعاية قضية المسجد الأقصى، يروي لنا الشيخ علي الطنطاوي ذكرياته الحلوة عن الهند وحضارتها القديمة وثقافتها الباهرة يقول الشيخ الطنطاوي: "أعرض عليكم خلاصة لما بقي في ذهني بعد أن زرت الهند وقرأت تاريخها.هذه القارة التي يعيش فيها خمس سكان الأرض، والتي تحوي من الأديان واللغات ضعف ما في أوربا كلها وأمريكا، قارة الهند، بلد الماضي البعيد الحافل بالأحداث، بلد الحضارات والمجد التالد، بلد العجائب والغرائب.. لقد فتحناها ثلاث مرات: مرة على يد القائد العربي الشاب محمد بن القاسم، ومرة على يد الملك الأفغاني السلطان محمود الغزنوي، والثالثة على يد الفاتح المغولي المسلم بابر حفيد تيمور لنك (أي الأعرج)[1].

أما آثار الإسلام في الهند فهي كثيرة، فظلت تحكمها ملوك المسلمين أكثر من ثمان مئة سنة، يذكر هذا التاريخ الهندي ومن ذاكرته القوية ندرج هذا النص التالي: "إن للإسلام في الهند أندلسا كبرى يقف المسلم في آثارها، في دهلي ولكنو وعليغار، وهاتيك الديار..على المساجد التي لم يعد يسيطر عليها أهلوها، على القلاع التي خلت من جنودها، على العروش التي غاب عنها أصحابها، على الإسلامية الضخمة، على مسجد

[1] نفس المصدر 203/5

قبة الإسلام، (الذي يدعونه قوة الإسلام) على منارة قطب، على القلعة الحمراء، على المسجد الجامع، وكل ذلك في دهلي، على تاج محل القريبة من دهلي، يقف المسلم على ذلك فيحس أنه يعصر قلبه دموعا، ويزلزل جوانحه أسى"[1].

ذكرياته عن بلاد أوربا وأهلها:

إن الشيخ علي الطنطاوي قام بزيارة بعض البلدان الأوربية بما فيها ألمانيا وبلجيكا وهولندا، إنه ذكر في البداية عن ألم وهم وحزن الذي ألم به طوال حياته بما استشهدت بنته بنان في ألمانيا، ولكن بعد ذلك يميل الشيخ إلى ذكرياته الأوربية بأن الأيام التي قضاها كانت من أمتع الأيام في حياته وكما يذكر إقبال الناس إلى الإسلام في أوربا، وتواجد المنظمات الإسلامية للدعوة الإسلامية، وكما يسلط الضوء على هذه الظاهرة العامة أن شبان الإنجليز ينفرون من المسيحية وطريقتها. يقول:

"لقد كانت الأيام التي قضيناها في ألمانيا وبلجيكا وهولندا، من أمتع أيام حياتي، وكانت مصدر متعتها، ومبعث جمالها، كانت المصباح الذي ينور لي ما حولي فأراه، فماذا أصف بعدما انطفأ المصباح وانكسر زجاجه،-ماتت بنت علي الطنطاوي- لذلك أدع الحديث عنها، وأستبقي ألمي لنفسي، وإن ضاق به صدري، وعجز عنه احتمالي، ذلك

---

[1] نفس المصدر 203/5.

لأنني مؤمن بأنها مع الشهداء، والشهداء أحياء عند ربهم، ولكن لا نشعر نحن بحياتهم، أدع الحديث عنها وأتحدث عن عملها، حديثا لعل فيه للقراء نعفا، ذلك لأن الشبان والشابات في أوربا على حافة الدخول في الإسلام.

إن إدخال هؤلاء إلى الإسلام أهون من أن ترد إليه من نشأ مسلما في أسرة مسلمة، ثم امتلأ قلبه بمذهب إلحادي، أو انتحل نحلة مكفرة، أخلص لها، ومشى معها وصار من أهلها. مثل دعوة هؤلاء كمن يشتري الدار القديمة ليقيم في مكانها بناء جديدا، فهو يحتاج إلى هدمها، ونقل أنقاضها، وإخلاء أرضها، والأولون (أي أكثر شباب أوربا) كمن يجد الأرض خالية، لا يحوجه البناء عليها إلا شقها وإرساء الأساس فيها، ثم إقامة الدعائم على هذا الأساس"[1].

ثم يصف في السطور التي تليها أحوال الشبان والشابات في أوربا، بأن قلوبهم خالية ليس فيها عقيدة راسخة ولا إيمان قوي ولا دين ثابت في قلوبهم وعقولهم، فالنصرانية غابت وبارت في أسواق أوربا. فالكنائس خالية ولا تذهب إليها الناس، ولا لنا حاجة إلى الخوف والوجل من بعثات التبشير بل هو التزوير والتكفير يقول واصفا أحوال أهل أوربا: "قلوب أكثر الشبان والشابات في أوربا، أو من عرفت منهم، خالية ليست فيها عقيدة دينية راسخة، فالنصرانية بارت في أوربا سوقها، والكنائس خلت أو كادت من أهلها، والذين

[1] نفس المصدر 7/220-221.

يرتادونها إنما يدخلونها بأجسادهم وقلوبهم وراء أبوابها. وهي على ما أحدثوا فيها من الوسائل الجديدة، التي يغرون بها الناشئة للدخول إليها، وأكثر هذه الوسائل لا يرضى الدين بها. وقد رأيت كنائس تخلى عنها أصحابها. ".[1]

الإسلام في أوربا:

بعد ذكر هذه الأحوال والكوائف إن الشيخ علي الطنطاوي يذكر بأنه وجد بعض الجمعيات الإسلامية ومراكز الدعوة والتبليغ في بلاد الأوربية. فكان صهره داعيا في ألمانيا وبنته كانت داعية ومعلمة كذلك. يقول خبيرا: "ليس بين الناشئة في تلك الديار وبين اتباع الحق الذي هو الإسلام إلا أن يجدوا هذا الذي يعرفهم به ويجلو لهم. ولقد قام بذلك كثير في أوربا وفي أمريكا جزاهم الله خيرا، فأنشؤوا المراكز الإسلامية، وفتحوا للناس أبوابها، وكان من هؤلاء عصام العطار، وكانت-بنت الشيخ علي الطنطاوي-هي عونا لعصام، كانت تتولى هي أمر النساء، على حين يتولى هو أمر الرجال[2]".

ثم يخبرنا الشيخ علي الطنطاوي بأنه لقي أناسا طيبين راسخين في الإسلام ثابتين على دين الله وقابضين على حبل الله المتين، كما شاهد الفتات والشابات متحجبات مؤمنات

---

[1] نفس المصدر 221/7.

[2] نفس المصدر 221/7-222.

ذاكرات، فتماثل أمام عينيه سير الصحابة والصحابيات بهذا المنظر العجيب في بلد غير عربي. يقول الشيخ علي الطنطاوي وهو شاهد عيان: "ورأيت في المجالس التي حضرتها وحضرها الشباب مع زوجاتهم، وهن متحجبات، رأيت من ذكرني والله بما قرأت من سير شباب الصحابة، لا أقول هذا مبالغة، بل أسرده حقا واقعا، ولا يضرهم أن يعيشوا في بلد غير مسلم، فرارا من البلد المسلم الذي تسلط عليه غير المسلمين، وآذوا فيه أهل الدين، فإن لهم سالفة في الهجرة إلى الحبشة حيث الحرية مصونة، واللسان طليق، والقلم حر[1]".

المبحث الثاني: ذكرياته الثقافية

ذكرياته عن مكتب عنبر:

وكانت المدرسة عنبر الثانوية الوحيدة في عصر علي الطنطاوي، فتلمذ عند أساتذتها الكبار، واستفاد من بيئتها العلمية. وللشيخ علي الطنطاوي فيها ذكريات جميلة، حتى يقول لديه ذكريات عند كل فصل ولدى كل زاوية في مدرسة عنبر، يقول: "كانت ذكرياتي هناك قليلة فلم أجد منها ما يصلح لمقال، وهي اليوم كثيرة جدا لا أدري ما الذي أدعه منها، وما الذي أختاره لهذا المقال. مكتب عنبر، في دار شامية جميلة، في مدخلها رحبة فسيحة فيها شجرات كبار، حولها رواق تحتها مقاعد، كنا نلعب وسط الرحبة أو نستريح

---

[1] نفس المصدر 227/7.

على المقاعد من حولها، فإذا جزتها رأيت الدار، في صدرها الإيوان، قد ازينت جدرانها بعبقري النقوش والألوان، قد قام من حولها بركتها (الشمشير) وعرشت على جدرانها دوالي العنب تبلغ السطح والياسمين والمليسا، وأبهى وأعطر ما خلق الله من النبات، فتحس حين تدخلها أنها تضحك لك. لقد درت غرفها كلها وأبهاءها، لأن كل غرفة منها لطلاب صف من الصفوف، فلي لكل غرفة منها ذكرى، وفي كل زاوية قطعة من حياتي التي ذهبت ولن تعود..."

ويتابع ذكر مكتب عنبر مزيدا فهو يقول: "سألني الإخوان عن (عنبر) هذا، الذي سميت باسمه هذه المدرسة العظيمة، التي كانت وحدها فصلا كاملا من تاريخ الشام الحديث، ما عنبر هذا؟ فضحكت لأن عنبر لم يكن عبقريا ولا عظيما بل هو اسم الرجل الذي بنى هذه الدار، وهكذا ترون أن الشهرة وبقاء الإسم، ليسا دليل عظمة الرجال"[1].

نقد على المدارس:

إن الشيخ علي الطنطاوي قد درس وتعلم في مدرسة كانت صغيرة بحجمها ولكن كانت كبيرة بعطائها العلمي والفكري، وكانت الغرف غير منقوشة ولكن الأساتذة كانوا ينقشون الفن في أذهان الطلاب ويثبتون العلم في أدمغة طلابهم كالقول الثابت. ولكن بعد مدة

---

[1] نفس المصدر 1/110-111.

من الزمان جاء الأساتذة بالشهادات العالية لا بالعلم ولا بالفن، جاءوا بالطرافة ولا بالطراز الجديد للعلم والفن. يقول الشيخ الطنطاوي ناقدا ثم ناصحا: "وسترون أنهم اختاروا لهذه المدرسة–مكتب عنبر– الواحدة، لكل مادة كبار أساتذتها في البلد. فلما كثرت المدارس اليوم وازدات، هبطت درجتها وصار يدرس فيها أصحاب شهادات، وقد كان المدرسون على عهدنا أصحاب علم، صرفوا في تحصيله أعمارهم، وأحيوا فيه لياليهم، وأتعبوا فيه أبصارهم، وصار كل منهم هو المرجع في المادة التي يدرسها،كانت المدارس كالبئر، ضيقة الفوهة، ولكنها عميقة القرار، فصارت كالبركة الضحلة واسعة الوقعة، لكنها قليلة العمق"[1].

ويذكر أسباب ضعف الطالب بسبب اهتمام الأساتذة ما لايهمهم يقول الشيخ: "وشيئ آخر لعله من أسباب ضعف الطلاب في الدروس كلها وفي العربية على التخصيص، أخشى إن قلت الحق فيه أن أغضب ناسا ما لي إلى إغضابهم هو أن الاهتمام بالشيئ بمقدار الحاجة إليه، وتعرف الحاجة إليه بمقدار الخسارة في فقده، ونحن نحتاج إلى من يعلم أولادنا، ومن يداوي مرضانا، ومن يضمن إقامة العدل فينا، ويؤدب الجانحين والمجرمين منا. ونحتاج قبل ذلك إلى من يدلنا طريق النجاة في آخرتنا، والوصول إلى رضى ربنا، فهل إدخال الكرة في شبكة في الملعب أهم من هذا كله؟هذا

---

[1] نفس المصدر 114/1.

هو السؤال، فلا تغضبوا إن سألتكم، فما أريد إلا أن أتعلم، فلماذا لا نهتم بهذا اللاعب أكثر من اهتمامنا بالطبيب والمدرس، وبالأستاذ وبالواعظ؟ وكيف نرغب الطلاب في القواعد والإملاء، وهم يرون هؤلاء ينالون من التكريم أكثر مما يناله الخليل والمبرد وأئمة اللغة أجمعين، لو بعثهم الله القادر على كل شيئ من قبورهم فمشوا بيننا وعاشوا معنا؟ وأنا لا أقول لكم أتركوا العناية بالرياضة فإنها من القوة التي أمر الإسلام بإعدادها، والقوة زينة الرجال، قوة العلم، وقوة الجسم وقوة الإيمان، ولكن الذي أقوله لكم أن لا تدفعوا ثلاثمئة ريال مثلا في بضاعة مهما غلت لا تساوي إلا خمسة عشر ريالا؟[1]".

ثلاثة شروط لنجاح المعلم:

كان الشيخ علي الطنطاوي قضى حياته في الدرس والتدريس والاستفادة والإفادة، وكان معلما ناجحا في المدارس والجامعات. طاف البلاد ودرّس وأفاد خلق لا يحصى ولا يعد. وعلى أساس خبرة نالها خلال هذه السنوات في مجال التدريس. يخبرنا بالميزات البارزة والخصائص الكبرى للمعلم الناجح وهي ثلاثة شروط فمن يرد أن يجعل نفسه معلما ناجحا فليختار هذه الميزات القيمة. "أولها: استيعاب المادة التي يدرسها، والإحاطة بها والرجوع إلى كل كتاب يصل إليه من كتبها، لا يقتصر على الكتاب المقرر، أما في الجامعة فلا يجوز أبدا أن يقرر للطلاب كتاب بعينه، لا يرجعون إلا إليه، ولا يأخذون إلا

[1] نفس المصدر 335/8.

منه، ومن يفعل ذلك من الأساتذة يكن معلم مدرسة إبتدائيةلا أستاذا في جامعة. الثاني: أن يسلك إلى أفهام الطلاب كل سبيل، فإن ساق المسئلة بعبارة لم يفهموها بدل العبارات حتى يصل إلى العبارة التي يستطيعون أن يفهموها، وما دامت مسائل العلم في ذهنه، وكلمات اللغة بين يديه، سهل ذلك عليه. أما الشرط الثالث فهو: أن يكون طبيعيا، فإن لم يعرف المسألة قال للطلاب: إني لا أعرفها، وإن أخطأ قال لهم: إني أخطأت فيها[1]".

طريق التدريس:

الشيخ علي الطنطاوي كان من أقدم المعلمين في العالم بسبب بعض الأحوال التي طرأت عليه. كان تلميذا صغيرا ولكنه اضطر إلى كسب القوت فكان يعلم في المدارس الابتدائية، فاكتسب خبرة كثيرة وتجربة نافعة في مجال التدريس. وكان أستاذا مقبولا محبوبا لدى تلاميذه، ما كان معلما بل كان مرشدا وشيخا ومربيا لتلاميذه. فترك آلافا من التلامذة في المدراس والجامعات. في ذكرياته إنه يشارك معنا ويخبرنا بتجربته التدريسية. يخبرنا عن طريق التدريس المحبب لديه للأستاذ سليم الجندي ثم يقلده هذا الطريق النافع حينما هو يدرّس ويلقي المحاضرة أمام الطلاب. يقول الشيخ الطنطاوي في هذا الشأن:"اختار لنا الأستاذ سليم الجندي أول قدومه علينا، في مكتب عنبر، سنة 1923م، قصيدة (واحر قلباه ممن قلبه شبم) التي ودع بها المتنبي سيف الدولة لما فارق حلب

[1] نفس المصدر 237/6.

قاصدا مصر، وشرحها لنا، لا كما يشرح المدرسون اليوم، يفسرون مثلا كلمة (يتعاضدون) بأنهم يتعاونون، بل يمر بنا على تاريخ الكلمة، كيف وضعت، وما هو الجذر الذي اشتقت منه، وكيف تحول معناها عن طريق التوسع والمجاز، والعرف، فيقول مثلا: "أن أصلها من العضد، لأن الاسم أسبق دائما في الوضع من الفعل، ولأن صيغة تفاعلوا تدل على المشاركة، فالتعاضد لف العضد على العضد، والكاتف إسناد الكتف بالكتف، و(أعرض عنه) أي أعطاه عرضه فلم يقبل عليه بوجهه، و(صفح عنه) منحه صفحه خده أي لم يواجهه باللوم، وأمثال ذلك. ومشيت أنا في تدريس الطلاب على هذه الطريقة، ولو وجدت من تلاميذي أو لو وجد الأستاذ الجندي أو زميله المبارك منا نحن تلاميذه من يدوّن ما يقول لكان من ذلك كتب في الأمالي كأمالي الأولين"[1]

يخبرنا في مقام آخر بميزة المعلم البارزة عن طريق بيان تجربته الخاصة "لقد نصحت لهم ولم أدّخر وسعاً في تقويمهم وتربيتهم.لم أكن معلّما كالمعلّمين، بل كنت مرشداً وناصحا، نبهت الإيمان في قلوبهم الصغيرة، وما قلت إني غرسته لأن الإيمان مغروس في أعماق كل قلب، وعلمتهم الصدق حتى إن أحدهم يعترف بذنب ارتكبه لم يره عند ارتكابه أحد. وكانت وراء المدرسة قطعه أرض كبيرة تابعة لها مهملة فكلفت التلاميذ انتخاب نفر منهم ليفلحوها ويزرعوها وعلّمتهم كيف يكون الانتخاب فانتخبوا بإشرافي.

---

[1] نفس المصدر 8/323-333.

بدأت منهجا علميّا في التربية وفي التعليم، ولكنهم يدعوني أئمة... فانهد البناء كله لما تركته"[1].

عندكم نابغون فتشوا عنهم بين الطلاب:

كان من عادة الشيخ علي الطنطاوي أن يسمع إذاعات الراديو، وكان يدير مفتاح الراديو كل يوم فيسمع الأنباء والأخبار من مصر وبغداد وجدة. مرة سمع إذاعة غريبة ليست من جدة ولا من مصر ولم يكن يسمع في الرياض غيرهما، إلا إذاعة بغداد، فتتبع ويكاد يصغي أذناه إلى الراد (الراديو) فلا تكاد تؤمن أنه يسمع عن المملكة وعن الرياض بالذات، فلما سمع الأنباء بضع دقائق تيقنت نفسه بأن هذه الإذاعة تُبث من الرياض. والمذيع كما يذكر اسمه طامي. وإذا هو شاب يافع مهذب سعودي لايبدو من صورته بأنه صاحب حامل الشهادات ولا صاحب الدراسات العالية، حينما سأل الشيخ علي الطنطاوي عن صاحب الإذاعة ،متى بدأها؟ وكيف بدأها؟ ومن هم الذين ساعدوه في هذا المجال؟ فأخبر الشاب بأنه بنفسه اشترى قطع من مخلفات الجيش البريطاني في السوق فرتبها ترتيبا حتى جعلتها تنطق وتذيع وتنشر الأخبار. فشيخنا لم ينس هذه القصة المعجبة المدهشة حتى جعلتها في ذكرياته العطرة إنه يسوق لنا هذه القصة الطريفة وإنه يحرضنا

---

[1] نفس المصدر 10/3.

على الدراسة والإختراع والإيجاد، ويحثنا على أن نفتش بين أظهرنا الطلاب العباقرة والنبغاء ونجعلهم المخترعين والمجيدين في مجالات شتى.

يحث الشيخ الطنطاوي الأساتذة والطلاب في "ذكريات" تحت عنوان "عندكم نابغون فتشوا عنهم بين الطلاب" أليس هذا–عمل طامي– هو النبوغ؟ بل أليست هذه هي العبقرية؟ هل كانت بداية أديسون أكبر من هذه البداية؟ أم كان أديسون أكثر علما، وأوسع إطلاعا على علوم الطبيعة؟ هذا الطامي الذي لم أعد أسمع اسمه، ولا أعرف خبره، كان يمكن أن يكون لنا منه أديسون آخر، يخترع مثل ما اخترع، لو أننا أخذنا بيده وشجعناه، وهل كان أديسون، وأصحابه وأمثاله الذين وضعوا أسس هذه الحضارة المادية، أذكى منا ذكاء، وأكبر عقولا، وأوسع مدارك!! إن الذي صنعناه بالأمس البعيد والحضارة التي شيدناها والمعارف التي بلغناها، نستطيع أن نصنع الآن مثلها.

لا تقل قد ذهبت أربابه كل من سار على الدرب وصل

هذه اليابان: ماذا كانت اليابان قبل مئة سنة أو تزيد قليلا، وماذا صارت الآن اليابان"[1].

[1] نفس المصدر 8/329–330.

ذكرياته عن الصحافة:

هي من أحب المهنة إلى شيخنا علي الطنطاوي، فإنه دخل في باب الصحافة بحثا عن الرزق وقد رزق الله له رزقا حسنا فيها. فأعطاه الله القدرة على البيان والفصاحة، وأعطي حظا وافرا من الأدب فولج في بحر الصحافة ولم يعد عنها طوال حياته، ومعظم مؤلفاته معطيات وهدايا لمقالاته الصحفية. في البداية نشرت في صورة مقالة في مجلة أو جريدة، ثم جمعت ورتبت وطبعت وصارت نهايته منيرا مشرقا في صورة كتاب جديد. فمؤلفاته "من حديث النفس" و"صور وخواطر" و"فكر ومباحث" وهذا الكتاب الذي بين أيدينا – ذكريات– ما هو إلا من معطيات الصحافة التي احترفها الشيخ علي الطنطاوي. يتحدث عن نفسه في الجزء الثاني من "ذكريات" تحت عنوان "احتراف الصحافة" يقول:"هي صفحة احترافي الصحافة. أما من حيث قرب هذه المهنة من نفسي، فهي أحب إلي من كل مهنة مارستها، ولو خيرت الآن لاخترتها دون ما سواها، بشرط أن أكون أنا وحدي المشرف على المجلة، وأن أكون حراً لا رأي فوق رأيي، ولا مكره لي على نشر ما لا أريده، أو طي ما أريده، وأن يكون معي من آتاه الله من المعرفة والإدراك ما يعينني به على عملي فيها، وأن يكون موافقاً لي لا مخالفاً، لا أريد أن يرى الخطأ مني ويسكت عنه مجاملة لي، بل أن ينبه إليه بالأسلوب المناسب في الوقت المناسب، ثم إذا عزمت على الأخذ به أو إهماله لم يعترضني، لأن التبعة علي فمن حقي إذن أن يكون الحكم إلي،

وأن يمن الله علي بالمصحح الحاذق فإن مصيبة المطبوعات، بمصححي المطبعة، ولو أن الخطأ كان تصحيفاً أو تحريفاً لهان الأمر، ولكن البلية حين يبدل كلمة في الأصل لم يفهمها بكلمة من عنده أو يزيد على النص كلمة ليست فيه، أو ينقص منه كلمة هي فيه، ولو قعدت أحصي ما قاسيت من المصححين لجاء معي رسالة كبيرة أو كتاب صغير. لذلك أرجو من يريد يوماً أن يجمع مقالاتي أن يعرضها علي إن كنت حياً، أو ينظر في الأعداد التالية للعدد الذي نشرت فيه المقالة فلعل فيه تصحيحاً لغلط، وإني أرجو من أصحاب المجلات أن يجعلوا فيها مصححين أدباء، بشرط أن يتقيدوا بالأصل الذي كتبه صاحب المقالة، لا أن يحسبوها وظيفة إنشاء لطالب فيمروا عليها بالقلم الأحمر يعدلون ويبدلون، وأن يجعلوا لهم على التصحيح أجراً يقارب أجر رئيس التحرير، ثم يحاسبوهم على كل غلطة تفلت منهم بحسم اثنين في المئة من الطبع في ذكرياتي هذه لتصحح قبل جمعها في كتاب، وإن كنت أشهد أن الأغلاط قد قلت جداً، إلا في العددين السابقين، وأن التصحيح في الجملة أجود منه في (الرسالة) التي كتبت فيها نحواً من عشرين سنة (1933-1952)"[1].

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، الجزء الثاني، ص 5-6.

ذكرياته عن مجلتي الفتح والزهراء:

الشيخ علي الطنطاوي يخبر عن نفسه بأنه مارس الصحافة في أول أمره مع خاله الكريم محب الدين الخطيب، وكانت المقالة الأولى التي نشرت في مجلة المقتبس للأستاذ محمد كرد علي في دمشق، وبعدئذ لم ينقطع الشيخ علي الطنطاوي من مضمار الصحافة، فكتب في الناقد وألف باء، والأيام، والرسالة، والفتح، والزهراء، والمسلمون، والشرق الأوسط، ولكن في بداية الأمر تعلم الصحافة على يد خاله ثم رجع إلى دمشق لكسب القوت والارتزاق فبحث العمل ووجد باب الصحافة مفتوحا فدخل ولم يعد منه طول حياته. يحكي لنا الشيخ علي الطنطاوي في الجزء الثاني ذكرياته في مجال الصحافة. يقول متذكرا عن عمله في الصحافة ثم في مجلتي الفتح والزهراء: "إن أول اتصالي بالصحافة كان سنة 1926 (1344) لما نشرت مقالة في المقتبس، ثم ذهبت إلى مصر بدعوة من خالي محب الدين الخطيب، وكان نزولي عليه، فشاركت في تحرير مجلتيه: الفتح، والزهراء.

أما الفتح – واسمحوا لي أن أعود إلى الحديث عنها – فهي أول جريدة إسلامية، بل لقد كانت الجريدة الإسلامية الوحيدة لم يكن صدر – فيما أعلم – غيرها، وكانت أسبوعية ولكنها، عالية الصوت، مسموعة الكلمة، معروفة في الأوساط الإسلامية في بلاد الإسلام جميعاً، لها من التأثير فيها أكثر مما لجرائد ذلك البلد. وكانت تعني بأمور

المسلمين كلها على السواء، هي أثارت الدنيا على فرنسا يوم الظهير البربري، وهي أقامت الناس على إيطاليا لما صنعته في طرابلس، وكانت تجري فيها أقوى الأقلام الإسلامية كقلم شكيب أرسلان، والرافعي، ومحب الدين. وأما الزهراء مجلة الأدب الإسلامي فكانت لما جئت مصر في دور النزع، صدر منها أربع مجلدات، فلما دخلت سنتها الخامسة نضب موردها، وقل مالها، وأفلست ولكنها كانت تجاهد جهاد المحتضر لتدفع عن نفسها الموت، وقد صدر منها بعد وصولي (عددان) فقط، كتبت أنا أكثر ما نشر فيهما، ولا أقول إن الذي كتبته كان من الأدب الجيد، ولكن أقول إنه كان فوق محاولات المبتدئين، ودون كتابة المطبوعين المجودين.

كان هذا في مصر سنة 1928 فلما عدت إلى الشام واضطررت إلى العمل لأفرغ طاقة من النشاط كانت في نفسي، ولأكسب شيئاً من المال أعود به على أهلي، أخذني أخي أنور العطار إلى الأستاذ معروف الأرناؤوط، وكانت له معرفة به، فربحت – كما سترون – الكثير من أدبه، ولكني لم أصل إلى كثير ولا قليل من ماله"[1].

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، 2/6-7.

تاريخ الصحافة في دمشق:

ويتحدث الشيخ الطنطاوي عن تاريخ الصحافة في دمشق ويضيف إلى حديثه المذكور يقول متواصلا: "كان في دمشق يومئذ (أي سنة 1930) أربع جرائد (المقتبس، وألف باء، والشعب، وفتى العرب) وجرائد أخرى ليست في منزلة هذه الجرائد ولا هي مطردة الصدور مثلها "[1].

ذكرياته عن محكمة القضاء:

كان الشيخ الطنطاوي في وظيفة التدريس والتعليم حتى هيأت له الحادثة دير الزرو دخوله في المحكمة – بما قدم الخطاب ضد الحكومة الفرنسية–، والإنسان دائما في التدبير والرب في التقدير، والتقدير الإلهي يغلب على التدبير البشري، وهكذا كان. كان الطنطاوي يريد أن يبقى مدرسا ومعلما ولكن الله أراد له أمرا آخر والخير ما أراده الله وانسلك الشيخ الطنطاوي سلك القضاء، فبقي في المحكمة حتى هجرته إلى المملكة العربية السعودية سنة 1966م[2](حينما منع أن يركب موكب الاشتراكية الجديد في الشام)، وأخرجه الله من باب الضيق إلى أوسع الأبواب مما كان لا يتصوره وصار قاضيا

---

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، 9/2.

[2] نفس المصدر 69/8

في النبك ثم في دوما (من قرى دمشق) ثم قاضيا ممتازا في دمشق، فمستشاراً لمحكمة النقض في الشام ثم مستشار لمحكمة النقض في القاهرة أيام الوحدة مع مصر وكانت هذه السنوات من أخصب أيام حياته. والشيخ الطنطاوي يشارك معنا تجربته في القضاء، وهو يقول: "لقد تنقلت في البلاد ورأيت أصنافاً من العباد، ولكني لم أخالطهم ولم أداخلهم، كنت ألقاهم من فوق أعواد المنابر أو من خلال أوراق الصحف والمجلات أو من على منبر التدريس، والذين لقيتهم إنما كان لقائي بهم عارضا، ألامسهم ولا أداخلهم، فلما ولّيت القضاء رأيت ما لم أكن أعرف من قبل[1]".

فكان قاضيا ممتازا حضر القضاء بكل استعداد ورغبة، وقرأ كل ما وقع تحت يديه من كتب القضاء، ثم اتخذ كرسي القضاء، وكان المحامون في البداية يريدون أن يعرفوا قوة هذا القاضي الجديد من ضعفه، وحزمه من لينه، وعلمه من جهله، ففاجأتهم بقرار إرث وميراث. نشهد مشهدا آخرا من حياة الشيخ علي الطنطاوي نراه في صورة القاضي الجديد على كرسي القضاء ثم نرى كيف يحكم ويقضي: كانت أول قضية قابلتني قضية ضخمة جدا، إضبارتها تعدل في عدد صفحاتها جزأين من القاموس المحيط لا جزءا واحدا. ففاجأتهم بقرار: "سئل الطرفان عن كلامهما الأخير" وهذا القرار إنما يكون بعد استيفاء المرافعات في آخر الدعوى ليعلن بعده ختام المحاكمة ويصدر

[1] نفس المصدر 198/4.

الحكم. فتعجبوا واعترضوا عليّ وتعالت أصواتهم، وحسبوا أني قاض ضعيف لا يدري ويقول. ولكني أخذتهم بالحزم وأفهمتهم أن هذا قرار لا يجوز لهم الاعتراض عليه إلا بعد ختام الدعوى، فسكتوا على مضض ينتظرون ماذا سيكون مني يتوقعون أن يسمعوا قرارا يتخذونه نكتة بينهم، يتندرون به على وزارة العدل التي تقيم في القضاء من لا يعرف أصول القضاء، فإذا القرار... وهكذا انتهت المحاكمة، ونظرت إليهم فإذا هم مثل الذي يصحو من حلم عجيب، وقد تنبّهوا إلى أنهم كانوا يسيرون في طريق لا يوصل، ويضحكون من أنفسهم، ويهنّئونني على هذا القرار. وذهبوا فحدثوا به في الأوساط القضائية في الشام، فكان – والحمد لله – خير ابتداء لعملي في القضاء"[1].

وحينما رأى الرشوة والفساد قد تسرب إلى القضاء والمحكمة فأراد أن يزيله إزالة تامة ولكنه كان مقصرا عن محوه وإزالته مثله كمثل رجل جالس في السيارة، والسيارة تسير على غير هدى ولكن مقودها بيد غيره. فماذا يفعل الشيخ الطنطاوي! كان يعرف الدواء للمريض ولكن ما وجد سبيلا إلى إيصاله إليه، ولكن حينما تم تعيينه قاضي دمشق الممتاز، وشغل هذا المنصب عشر سنين كاملات تامات من سنة 1943 إلى سنة 1953م حيث نقل مستشارا لمحكمة النقض، فجاء وقت الإصلاح ما أفسده القضاة والولاة والمحامون من الرشوة والظلم والفساد، وجاءت السيارة ومقودها بيده، فأزال ما أزال وأصلح

[1] نفس المصدر 167/4.

ما أصلح وطالت يده القصيرة وأنقل لكم قصته الرائعة في المحكمة بلسانه وقلمه "وتسلمت أنا مقود السيارة، وفتح لي الباب لأحمل إلى المريض العلاج. إنها لذة من أكبر اللذاذات، أن ترى الباطل غالبا والحق مغلوبا وترى نفسك عاجزا ثم تعطى القوة على دحض الباطل وعلى نصرة الحق.. فلبثت ليالي أرقا يفكر ماذا يصنع حتى اهتدى إلى فكرة عجيبة انتظم بها أمر المحكمة، وانقطع بها ما كان من علل التسويف على العامة أو المحاباة للخاضة، "ثم رأيت أن هذا كله علاج مؤقت لا يكاد يأتي منه الإصلاح المنشود، فعملت على إبدال من في الديوان واحدا بعد واحد، وأعانني الله أولا بإخلاص وبأنني لا أبتغي من ذلك جرّ منفعة لنفسي ولا درء مضرة عنها، والله يعلم ذلك مني"[1].

المبحث الثالث: ذكرياته السياسية

انقسام الشام على يد الفرنسيين:

الشيخ علي الطنطاوي يتحدث عن الظروف والأحوال التي طرأت على دمشق بعد مجيئ المستعمرين الفرنسيين، فقسم هؤلاء المستعمرون دولة الشام وقطّعوها في ست قطعات وجعلوها دويلات صغيرة، وكانت هذه اللعبة السياسية لعبت على أساس التفريق فيما بين المسلمين. يقول متحدثا عنها: "أصور لكم الظرف الذي كتبت فيه، عرفتم أن الفرنسيين

[1] نفس المصدر 275/4.

قطعوا الشام قطعاً، فبعد أن كانت كلها ولاية من ولايات الدولة العثمانية، تضم سورية بحدودها الطبيعية، جعلوا منها دولاً: دولة دمشق، ودولة حلب، ودولة العلويين، ودولة الدروز، والباقي صار فلسطين، وإمارة شرقي الأردن.ست دول كانت كلها كالولاية الواحدة، وتلك سنة المستعمرين في كل مكان وفي كل زمان، قانون (فرق تسد)"[1].

ذكرياته عن الحرب العالمية الأولى:

كان الشيخ علي الطنطاوي طفلا صغيرا في سنة 1914م، فما لاحظ من أحوال الناس ومن شدة العيش وكساد السوق وفقر الناس يصف أحوالهم في كتابه ذكريات بعنوان" من ذكريات الطفولة–ذكريات عن الحرب العالمية الأولى"يروي لنا حكاية الحرب: "وكانت أيام–1914–عشتها، ورأيت أحداثها، ولكني لم أستوعبها، وأحس الآن وأنا أتحدث عنها كأني أسرد قصة حلم من الأحلام، أو رؤيا منام، صحا من رآها فلم يجد في يده شيئا. أشعر كأني ألخص صفحات من تاريخ قديم، قديم جدا، إي والله، لقد تبدلت حياتنا كلها من سنة 1914م إلى سنة 1981م[2]".

---

[1] نفس المصدر ص2/18–19.

[2] علي الطنطاوي، ذكريات، 1/33–

ثم يذكر الشيخ عن المخترعات الحديثة من سيارة وطيارة وأول شارع فتح في دمشق حتى يعود إلى سنة 1914 من جديد، فيقول: "كان هذا كله استطرادا، وسبقا للحوادث، فلنعد إلى سنة 1914، إلى السنة التي اشتعلت نيران أول حرب عالمية في تاريخ البشر، ولكن لا تنتظروا مني أن أحدثكم عنها حديث المؤرخ المحقق، فإني أدون ذكريات إنسان كان طفلا في تلك الأيام لا أنقل عن ابن خلدون ولا عن شارل سنيوبوس[1]..كان يوم رأيت فيه سماء (الصحن) الواسع مغطاة بسحابة سوداء، دانية منا ليست بعيدة عنا، وكان يساقط شيئ منها على رؤوسنا...لا لم تكن قطرات الماء، فلم تكن سحابة ممطرة، وإنما انت رجلا من الجراد، ملأ سماء الشام وأرضها، وأتى على الأخضر واليابس من زرعها، وكان شيئا رهيبا..فبدأ القحط. ثم سمعنا من أفواه الكبار كلاما لم ندرك غوره، ولكن فهمنا من لهجة كلامهم، ومن ملامح وجوههم، ومن جزعهم، إنه شيئ مكروه مخيف. فهمنا أنها قامت حرب في مكان بعيد عنا...ثم خلت الشام إلا من الشيوخ والنساء والأطفال، أما الشبان فقد ساقوهم (مشاة على أقدامهم) إلى حرب ترعة السويس أولا، التي عدنا بالهزيمة، وإلى معركة (جناق قلعة) لمحاربة أعداء الألمان[2]".

---

[1] مؤلف (تاريخ الحضارة) الذي ترجمه أستاذنا محمد كرد علي ودرسناه في الثانوية.

[2] نفس المصدر 1/37-39.

ثم يتابع الشيخ أحوال الناس أيام الحرب العالمية الأولى وأثرها على بلده وأهله، مات الناس فقرا وجوعا، وحل البلاء من كل جانب وعلت الأسعار وقل البترول، يذكر ذكرياته القاسية ويقول : "ثم رأينا الناس (ونحن في طريقنا إلى المدرسة) ينبشون أكوام القمامة لعلهم يجدون فيها بقايا طعام. وعز السكر حتى صارت الأوقية (200غرام) بريال مجيدي، وقد كان المجيدي قبل الحرب يكفي لوليمة ضخمة، أي أن الكيلو بليرة (أي بجنيه ذهبي!). وقل الكاز (البترول) وفقدت أشياء كثيرة مما كنا نستورده. وما كان منه عند التجار، قبضوا عليه أيديهم، وأخفوه في مستودعاتهم، وكانت أيام شداد"[1].

ذكرياته عن الحرب العالمية الثانية:

للحرب العالمية الأولى والثانية ذكريات كثيرة مرة وقبيحة ولها أثر في نفس الطنطاوي، وحينما بدأ تأليف الذكريات لم يعد ينس ذكرياته عن الحرب وهي كثيرة، ولو أشرع ذكر هذه الصفحات لا يتسع بهذا المكان، ولضاق بنا المقام. والبحث يطول.. وإنه تكلم وكتب كثيرا عن الحرب وأسلوبها والاستعمار وطريقه وعن السياسة الحاضرة الغربية الديمقراطية والشيوعية. فمقالاته ومؤلفاته مليئة بذلك الأثر والذكر. أنا أذكر بعض الذكريات التي ما دامت باقية في نفس علي الطنطاوي والانعكاسات الواضحة لهذه الحروب التي انعكست في هذا الكتاب "ذكريات". يذكر ذكرياته عن الحرب العالمية الثانية تحت عنوان "من

[1] نفس المصدر 39/1.

ذكريات الحرب العالمية الثانية" هذه الذكريات المريرة القبيحة، هي التي تركت أثرا كبيرا على نفس علي الطنطاوي، ومن يقرأ يتعجب ويدهش، تعالوا معي نقدم قطعة من ذكريات الشيخ عن الحرب: "واستمر مرير الحرب، وانتشرت نارها ونحن لا نعرف مكانها إلا على السماع، وجعلت تطيف بلهبها بنا وتدنوا أحيانا منا: إمتد لسانها إلى مصر فجزعنا وأشفقنا، وكنا مع المصريين بقلوبنا والسنتنا، وما نملك –لعمري– إلا الألسنة والقلوب. ثم دنت منا فبلغ لهيبها العراق، فأقبلنا على العراق بقلوبنا، وما جانبت مصر ولا تولت عنها تلك القلوب. ثم أصبحنا ذات يوم (يوم الجمعة 20 حزيران/ يونيو 1941م) على صوت الراد (الراديو) يقول: إن الحرب في "الكسوة" على أبواب دمشق، فنظرنا إليها فلم نجد إلا جبل "المانع" وما فيه أثر لحرب، فكذبنا وأنكرنا فقال العارفون: إن المعركة وراء هذه الجبال. وأكدوا ذلك، ولكنا لبثنا مكذبين، فلم تكن إلا ليال حتى بدت في الأفق القبلي من دمشق ومضات المدافع، نراها من حينا (حي المهاجرين) على سفح جبل قاسيون. وسمعنا أصواتها فصدقنا ما قال الراد، وأيقنا أن قد بلغتنا هذه الحرب، ولكن لم نكبرها ولم يصبنا الذعر منها، إذ لم تمسسنا نارها، ولا وصل إلينا أورها. ثم دنت منا النار، وانطلقت المدافع الثقال من قلاع المزة وقاسيون فاهتزت لها دمشق، ولكن أفئدة أهلها لم تهتز، بل

راحوا يؤمون السفح، يشرفون منه على المعركة، وهي دانية منهم، أصواتها في آذانهم، وشظاياها عن أيمانهم وشمائلهم"[1].

وخلال هذه الحرب العالمية الثانية رمت طائرة قنبلة عظيمة على دمشق فشبه الشيخ تلك القنبلة المروعة المخيفة وأثرها على الناس وعلى نفسه بقوله: "كان الليل ساكنا سكون السحر الفاتن العميق، وإذا برَجّة لا توصف قلقلت البيوت فذهبت بها وجاءت كأنها الزلزال العظيم، لولا أنها اقترنت بصوت آفاق منه الناس، وإن أحدهم ليضطرب في فراشه اضطراب السمكة خرجت من الماء"[2].

ما هو الضرب والحرب لدى علي الطنطاوي؟ وما معنى الحرب عنده؟ يصف الشيخ الحرب في النص التالي: ".....تلك هي الحرب: آفة الحياة وعار الإنسانية! وتلك هي الحرب: تتفجر الأذهان بالعلوم والمعارف، وتتفرج الأيدي عن الصنائع والمصانع، واللطائف والزخارف، وينفق الوالدان النفس والنفيس لتنشئة الأولاد وتهذيبهم، فإذا استكمل البنون الفتوة والقوة، وأزهرت الفنون وتقدمت، وارتفعت المصانع وسمت، وأخذت الحياة زخرفها وازينت، جاءت الحرب فأودت بذلك كله فجعلته حصيدا كأن لم يغن بالأمس! فيا

---

[1] نفس المصدر 4/185-186.

[2] نفس المصدر 4/188.

ويل الحرب..ويل لها ما لم تكن دفاعا عن شرف أو حياة أو دين!"[1]. ولكن هذه الحروب العالمية الأولى والثانية ما كانت دفاعا عن شرف أو حياة أو لحفاظ دين بل كان هدفها احتلال الأراضي والقبض على الموارد البشرية ولجعل الناس عبادا.

وطن علي الطنطاوي:

كان الشيخ علي الطنطاوي مؤمنا بالله متوكلا عليه، لم يؤمن بالقومية وبالعروبة وبالديمقراطية ولا بأي فلسفات خرافية غربية، كان يؤمن بأن الله ربنا ورب جميع المسلمين، ووطنه حيث يقطن المسلمون وحيث يتلى القرآن المجيد، ويصلى المسلمون صفا صفا. يقول معبرا عن ذكرياته في دمشق مع ذكر موطن أصله وانتسابه إلى كل بلد مسلم، يعبر عن نفسه:

"ولدت في دمشق، وأصلي من مصر، وقلبي متوجه دوما إلى مكة كلما قمت بين يدي ربي، وانتسابي إلى كل بلد مسلم، وحبي لكل قطر عربي، ووطني حيث يتلى القرآن، ويصدح بالأذان، وتقوم صفوف المؤمنين بين أيدي الرحيم الرحمن"[2].

---

[1] علي الطنطاوي، قصص من التاريخ، ص 88.

[2] علي الطنطاوي، ذكريات، 173/5.

نقده على الديمقراطية والاستعماريين:

يقول الشيخ عن معاهدة بلفور، وهذه المعاهدة كانت مؤامرة ودسيسة، فالشيخ علي الطنطاوي يتساءل أدعياء الديمقراطية. من أعطاهم حقا للتصرف في أرض فلسطين؟ أهي كانت لهم أم لآبائهم؟ أم ورثوها كابرا عن كابر؟ أهذا هو دستور الغرب! وقانون أوربا وإنجليز! يتساءل تهكما وسخريا: "سلوا أدعياء الديمقراطية، أكانت فلسطين ملك بلفور بالسجل العقاري، قد شراها بماله، أو ورثها عن أبيه حتى يتصرف فيها هبة ووعدا"[1]. يقول في مقام آخر عن هذه الطريقة الديمقراطية ناقدا لاذعا بأنها لا تأتي إلا بشيطنة بشعة. بعد ما استولى الإنجليز على عرش الهند وقاوم المسلمون ضدها مقاومة شديدة مع الهندوس لينالوا استقلال من براثن الاستعمار الإنجليزي الغاشم الظالم الجبار فسموا هذا الحرب حرب العصيان، ولكن نسي نفسه بأنهم جاؤوا متسولين تاجرين طائعين للحكام المسلمين فكيف أصبحوا السلطان؟ ومن ولاهم الأمر أملكة بريطانيا؟ كلا!! الإنجليز غاشم خادع ماكر مستعمر، وهذه الديمقراطية هي خدعة ودسيسة فقط "لم تنفع بطولات المجاهدين مع أسلحة الإنجليز الحديثة، ومع دسائسهم المعروفة، وتفريقهم بين المتحدين، فقضوا على هذه النار –الحرب الدفاعية المقدسة 1857م ضد الإنجليز– بعد خمسة أشهر من اشتعالها. فلما هدأت وانطفأت، أسرعوا بالانتقام، الانتقام الوحشي

---

[1] علي الطنطاوي، هتاف المجد، ص 50.

المروع، الذي لم يسمع بمثله عن جنكيز وهولاكو، هذا الانتقام قام بالإنجليز الذين يزعمون أنهم أمة الحضارة، وأهل الديمقراطية، وأصحاب الدستور. دمروا دهلي المسلمة، وقتلوا أهلها قتلا عاما، حتى غدت خرائب وأطلالا وقد كانت أعظم بلاد الهند"[1].

قضية العالم الإسلامي وجهاد الشيخ علي الطنطاوي باللسان والقلم:

كان الشيخ علي الطنطاوي بطلا ولكن ليس في ميدان الجهاد بل في ساحة القرطاس، كان محاربا ولكن ليس بالسيف ولكن بالقلم، كان يذود عن حياض الإسلام بكل غال ورخيص ولكن ليس بالمدافع ولا بالبندقية بل بالقلم واللسان. يعبر عن غضبه الشديد ويقول: "ووجدت أخبار المسلمين المعذبين في أفغانستان، وفي فلسطين، ومسلمين آخرين أشد منهم ابتلاء، مع عدو أعظم خطرا، وأشد كفرا، ولكن لا يسأل عنهم أحد، ولا تمتد إليهم يد عون أو مدد. لما قرأت هذا فترت عزيمتي، وتعثر القلم في يدي. وأنا أقعد لأكتب ذكريات لا تهم أحدا، والنار تشتعل في كثير من بلاد المسلمين، والوباء يسري، والغم يعم؟ للناس قضايا يفكرون فيها، ويتحدثون عنها، وأنا أسرد ما وقع لي من قبل حين.

---

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، 205/5.

لقد كنت إن ألم بالمسلمين خطب، أحمل سلاحي، وأسرع إلى الميدان، فما لي صرت من القاعدين؟ لم يكن سلاحي الحسام والسنان، وإنما كان القلم واللسان، والنضال بالمقال مثل القتال بالنضال والنبال"[1].

علاقة الشيخ علي الطنطاوي بفلسطين:

الشيخ علي الطنطاوي كان ابن فلسطين لأن الفلسطين كان جزءا لا يتجزأ للشام غير المنقسمة، ولكن حينما دارت المحن والشدائد وتم الانقسام في العالم العربي الشامي انقسم الشام في دويلات، وأصبح الفلسطين دولة مستقلة محتلة على أيدي اليهود الغاشمين، هؤلاء هم اليهود الذين جعلوها أرضا وسكنا[2] ومبيتا بعد صداقة مع الإنجليز وكانوا نازحين مبغوضين ضالين. يقول الشيخ عن معاهدة بلفور "سلوا أدعياء الديمقراطية، أكانت فلسطين ملك بلفور بالسجل العقاري، قد شراها بماله، أو ورثها عن أبيه حتى يتصرف فيها هبة ووعدا"[3].

---

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، 115/1.

[2] Said Aly, Abdel Monem, and Feldman, Shai, and others, Arabs Israel-conflict and peacemaking in the middle east, p 12-13.

[3] علي الطنطاوي، هتاف المجد، ص 50.

ويظهر الشيخ الطنطاوي حبه وحنينه لفلسطين في ذكرياته تحت عنوان "ذكريات فلسطينية" "اليوم هو يوم التضامن مع شعب فلسطين، والصحف وأصحابها وكتابها يكتبون عن فلسطين. فهل أستطيع أن أمر بهذا اليوم ولا أتكلم عنها؟ لا متضامنا مع شعبها، كما يفعل البعيدون عنها، فأنا الضامن والمضمون، أنا بن فلسطين لأني ابن الشام، إنها بلدي كما أن دمشق بلدي. والقدس أقرب إلى دمشق من نصف مدن سورية، وكما عرفني بالجزائر وتونس وطرابلس (ليبيا) والمغرب مشايخ وأساتذة لنا منها، أحببناهم فأحببنا البلاد التي أخرجتهم. وكانت إليها نسبتهم، فلقد حبب إلي فلسطين أول الأمر أساتذة ومشايخ وإخوان لنا من فلسطين"[1].

قضية فلسطين:

إن قضية فلسطين هي قضية إسلامية وقضية أمة عربية ما تغافل الشيخ الطنطاوي عنها لحظة وما تناسى عنها دقيقة. فطاف أرجاء المعمورة لجعل الناس كلمة واحدة على قضية فلسطين. وشارك مؤتمر القدس مع صديقه محمد محمود الصواف سنة 1954م.[2] وقد جعلت لجانا عديدة في مؤتمر القدس، ومن بينها كانت لجنة الدعاية عن قضية فلسطين، والإنعاش الروحي في نفوس المسلمين في جميع الأقطار الإسلامية، ودعوة الناس إلى

---

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، 68/5

[2] نفس المصدر 70/5

نصرة الفلسطين وأهلها ماديا ومعنويا. وكان الشيخ علي الطنطاوي قد عين رئيسا لهذه اللجنة، وكانوا خمسة، اثنين من العراق، الشيخ الزهاوي، والأستاذ الصواف، واثنين من الجزائر، والشيخ علي الطنطاوي. فاعتذر أهل الجزائر، وكان الأستاذ الصواف في حالة حرجة في كراتشي فلم يشارك، فبقي إثنان الشيخ الطنطاوي والشيخ أمجد الزهاوي. فطافا ثمانية أشهر من بلاد المسلمين، منها الباكستان والهند وماليزيا وأندونيسيا وغيرها. وكانا يشرحان للناس القضية الفلسطينية ويصفان لهم مأساة المسلمين في أرض المقدسة فلسطين، ويطلبان من الناس العون والمدد معنويا. أما العون المادي فآثرا السلامة في شرح القضية فقط ألا أن يقول لهما الناس الخائنين والسارقين، فاحتالا حيلة علمية، فكانا يؤلفان اللجنة في كل بلد لجمع التبرعات وبعث المال مع الأمناء إلى الفلسطين.

وكان الشيخ علي الطنطاوي مذيعا مقبولا وخطيبا مصقعا فتكلم عن القضية على الراديو وعلى التلفزيون، وتكلم الشيخ عن الفلسطين ملايين مرة بلا مبالغة. كما حرض أبناء الأمة الإسلامية على مد يد العون والمساعدة ماديا ومعنويا كتابة ومقالة في الصحف والمجلات. إن الجهاد من اليهود الطغاة الظالمين واجب وإن لم نبدأ هذا الجهاد من المدرسة ومن البيت ومن الصحيفة فلا يمكن لنا أن نصل إلى ساحة الوغى فإذا أردنا أن نبلغ إلى نهاية الطريق فنمشي من أوله، وإذا شئنا أن نصل إلى أعلى السلم فنبدأ من أسفله، فإن من يبدأ من آخر الطريق يعود إلى الوراء ومن ينزل من أعلى السلم يصل إلى

السطح. فعلينا البداية من هذا الطريق من البيت ثم من المدرسة ثم من الجرائد والمجلات ثم من التسلح والتجند حتى نصل إلى عدونا وعدو الله متسلحين غالبين منصورين. وكما ترك الأحاديث والذكريات عنها تحت عنوان "ذكريات فلسطينية" في كتابه "ذكريات" يقول ساخطا غاضبا على الأمة الإسلامية وغيرها وعلى موقفها المداهن:

"إنه ليس في تاريخ الظلم والعدوان مثل قضية فلسطين، ولا في تاريخ التخاذل والانقسام وقلة الاهتمام مثل موقفنا في قضية فلسطين، ولا في تاريخ التعاون على الإثم والعدوان مثل موقف الدول في غرب الأرض وفي شرقها من قضية فلسطين"[1].

يقول الشيخ علي الطنطاوي عن القضية الفلسطينية: "إن ضياع فلسطين جريمة ستحكم فيها محكمة التاريخ، حين تسقط قيود المنافع والمجاملات، وحجب الجهل والغفلة، وينكشف الخفي ويفتضح المزور، عندئذ يستطيع التاريخ أن يحقق في هذه الأحداث، وأن يكشف ملابساتها ويحدد المسؤول عنها، على أن المحكمة الكبرى هي التي تكون يوم الحساب، بين يدي رب الأرباب، يوم لا تخفى عليه خافية، يوم لا ينفع مال ولا بنون، ولا جند ولا أعوان. إن النصر يكون بالعدد، وإن كانت كثرة العدد لا تجدي إن لم يكن معها العِدد الكافية، والعدد والسلاح لا ينفعان إن لم يكن معهما العلم، وهذا كله لا يأتي إلا بالمال. فهل ينقصنا –نحن المسلمين– بالعدد؟ نحن ألف مليون، واليهود بضعة ملايين،

---

[1] نفس المصدر 75/5.

لو أننا (وعفوكم عني إن جئت بمثال بشع) لو أن كل مسلم بصق بصقة لأغرق يهود العالم، ولو أنه نفخ نفخة وجمعت هذه النفخات لأطارتهم، ولو ألقى عليهم كل واحد نعله القديم لماتوا ودفنوا في قبر من النعال. وإذا كان العدد لا ينقصنا، وإذا كان ما عند المسلمين من السلاح أكثر مما كان عند اليهود، وإذا كان مجموع العلماء من الممسلمين، العلماء بالطبيعة وعلومها، أكثر مما عند اليهود، وإذا كنا معشر المسلمين جميعا نملك من المال أكثر مما عند اليهود، فما الذي ينقصنا؟ إذا كان لا ينقصنا العدد، ولا ينقصنا المال، ولا ينقصنا السلاح، ولا ينقصنا العلم، فما الذي ينقصنا؟ إن الذي ينقصنا هو الإيمان. أن نكون مع الله حتى يكون الله معنا، أن ندخل الإسلام في المعركة، فلا نجعلها معركة استرداد الأرض فقط، ولا نجعلها فلسطينية فقط، ولا نجعلها عربية فقط بل نجعلها معركة إسلامية، إنها قضية المسلمين جميعا ليست قضية العرب وحدهم[1]".

طريق التغيير لقضية فلسطين:

إن أعدائنا غلبت علينا، وتكالبت علينا وضاقت علينا الأرض بما رحبت والمظالم حاقت بنا فلماذا يواجهها المسلمون الفلسطينيون وحده فقط ولماذا لا نطالب جميع المسلمين في العالم كله أن ينصروا قضيتنا ويساعدوا قضية المسلمين الفلسطينيين. وقضية فلسطين ليست قضية فلسطينيين وحدها وهي قضية جميع العالم الإسلامي. يقول الشيخ علي

[1] نفس المصدر 5/75-76.

الطنطاوي ويشكو: "نحن نشكو أدواء في مجتمعاتنا، وأعداء تكالبت علينا، ومظالم حاقت بنا، فلماذا نواجهها وحدنا ولا نطلب من الله أن يقف معنا؟ لماذا لا ننصره باتباع شرعه لينصرنا؟ إننا نريد أن يغير الله ما نحن فيه فما طريق التغيير؟ "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" فهل غيرنا ما بأنفسنا إلى ما هو أرضي لربنا وأقرب لديننا؟

قضية فلسطين والمسجد الأقصى قضية المسلمين جميعا، فلماذا لا ندعوهم ليقفوا فيها معنا؟ لماذا نعرض عنهم وهم يمدون أيديهم إلينا؟ لماذا نجعلها قضية فلسطينية أو عربية ولا نجعلها قضية إسلامية فيقف معنا الألف المليون مسلم"[1].

أيها المسلمون! شاهدت على الشاشة التلفازية أن مئات من النساء ليست عندهن ملاءات ولا لباسات فاخرة ولا طعام لسد رمقهن، يدرن ويتجولن في الطرقات والشوارع جائعات عاريات ...في مدن فلسطين وفي أراضي الشام. يا للعار على المسلمين! فمن يتطوع للبحث عن أحوالهن وقضاء حاجياتهن من اللباس والطعام والشراب والسكن. أتذهب هذا الكلام صيحة في واد مقفر ويذهب سدى؟ أليس فيكم رجل رشيد صالح!

ياللعار أيها المسلمون! أتأكلون وتشربون وتمرحون وتطربون وأهل فلسطين إخوانكم من الدين واللسان يموتون جوعا؟ مرت مئات من الأيام لا البائع باع فيها الأشياء من

---

[1] نفس المصدر 170/7.

الحاجيات الأساسية، ولا الصانع اشتغل بأي شغل، ولا الأجير أخذ أجرته وعوضه، ولا المحترف ذهب إلى مكتبه، فمن أين يجدون الخبز لسد جوعهم؟ ومن أين يأتي ثمن الخبز؟ من أين يعيش فقراء فلسطين؟ ياللعار على الأغنياء الذين يطرحون ألوانا من الطعام في الذبالة! أليس عندكم قلب ولا ضمير!

قبل أيام سمعنا بعض الأخبار أن بعض الدول العربية يطالبون من دولة قطر أن تمنع منعا باتا دخول إخوان المسلمين ورجال الحماس في بلدها وإلا ستكون مقاطعة تامة في مجال السياسة والإقتصاد والاجتماع. فما نرى منهم أحدا أن يقاطعوا علاقاتهم مع إسرائيل، ولا نرى فيهم حمية وغيرة دينية أن يتكلموا بهذا فضلا أن يتخذوا قرارا ومقاطعة.

الباب الخامس: ذكريات من منظور السيرة الذاتية

المبحث الأول: الأدب- تراجم الأدباء والعلماء

المبحث الثاني: حياة علي الطنطاوي-الصنف الإخباري

المبحث الثالث: ذكريات من حيث الموضوع والأسلوب

المبحث الأول: الأدب في ذكريات– تراجم الأدباء والعلماء

الأدب في ذكريات من منظور فن السيرة الذاتية:

قد تحدثنا عن قيمة "ذكريات" من منظور تاريخي في الباب الرابع. وقد قدمنا بعض النماذج من باب الاجتماع والثقافة والسياسة وهذه الموضوعات كلها من التاريخ. وفي هذا المبحث نريد أن نقرأ كتاب "ذكريات" مرة أخرى من منظور أدبي على أساس فن السيرة الذاتية. فإن السيرة الذاتية لعلي الطنطاوي وكتابه "ذكريات" يأتي من أصناف التراجم العلمية والأدبية كما قسم شوقي ضيف كتب السير الذاتية.[1] فنرى في هذه المبحث أهذا من الممكن لنا أن نضع "ذكريات" من التراجم العلمية والأدبية أم لا؟

كما اعترف الأدباء والنقاد بأن فن التراجم الذاتية من الفنون المستحدثة المنفصلة عن التاريخ، وصار جزءا للأدب بما أن صاحبه يشارك مشاهد حياته من الأفراح والأحزان كما يتكلم عن الوقائع والحوادث في أسلوب رشيق، وهذه الأحاديث الفنية والموضوعية جعلت السير الذاتية جزءا لا يتجزء للأدب والفن. يقول الناقد سيد قطب: "التراجم الشخصية فن حديث من فنون الأدب، انفصل عن علم التاريخ، ودخل عالم الأدب من باب الطاقة الشعورية التي يبثها الأديب في موضوعه، والقيم الفنية التي يضمنها تعبيره. والتراجم على هذا الوضع تشتمل العنصرين الأساسيين للعمل الأدبي:

---

[1] شوقي ضيف، الترجمة الشخصية، ص 27.

"التجربة الشعورية" و"العبارة الموحة عن هذه التجربة"..فإذا خلت الترجمة من هذين العنصرين، أو أحدهما، استحالت سيرة أو تاريخا، بعيدا عن عالم الأدب. فمجرد سرد الحوادث والوقائع–مهما بلغ من الدقة والتفصيل والتحقيق– ليس هو "الترجمة" إنما هو المادة الخامة التي تصنع منها الترجمة، حينما يتناولها مؤلف موهوب، فينفخ فيها روحا وحياة، ويستنقذ من خلالها الكائن الإنساني الذي وقعت له، ويجعله تمثيلها كما لو كان حيا، وكنا نحن القراء نشهده مرة أخرى يقوم بما قام به في الحياة، ويعترض طريقه ما اعترض طريقه في الحياة"[1].

ويتحدث عن هذا الموضوع صاحب الموسوعة الثقافية العامة فواز الشعار تحت عنوان السيرة بأنها ".. من الفنون الأدبية النثرية، تتناول حياة أحد المشاهير، فتصور مراحل حياته، والظروف التي أحاطت به، وما رافقها من تجارب وأحداث يمكن أن تكون عبرة لمن يعتبر، فرفعت من شأنه، وأذاعت شهرته، وأهلته لكي يكون موضوع دراسة وتحليل[2]". والسيرة الذاتية صنف من أصناف السيرة، ويتضمن كلاهما موضوع حياة الإنسان من ولادته ونشأته وثقافته ما إلى نشاطاته العلمية والأدبية حتى وفاته ومماته.

---

[1] سيد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، ص 103.

[2] فواز الشعّار، الموسوعة الثقافية العامة، الأدب العربي، ص 176.

كان الشيخ علي الطنطاوي يهتم كثيرا بالأدب والأدباء، فعاش مع الأدب وقضى حياته لخدمة الأدب. صادق الأدباء وجالس الشعراء حتى أصبح حديث الأدباء وطفق يعده الأدباء من رجال الأدباء وفقيه الأدباء. كما اشتهر صديقه ومعاصره العقاد بسيرته الذاتية "أنا" فتحدث فيه عن أدبه وشعره وقلمه وكثرة قراءته وكتابته[1].

ولم لا يكون ذلك مع الشيخ الطنطاوي لأنه انقضى حياته في خدمة الأدب ومعظم مؤلفاته تحكي لنا حكايته الأدبية وأسلوبه الأدبي الرصين. يقول الطنطاوي عن نفسه: "مشيت مع الذين كتبوا عن الأدب، في بلاد العرب قبل نصف قرن، رحلت معهم من الحجاز إلى تطوان وفاس، فلما عدت وجدت الاحتفال بذكرى النضال في الجزائر، فتكلمت عن الجزائر، واليوم هو يوم التضامن مع شعب فلسطين[2]".

وقد قدمت في الباب الثاني في المبحث الثالث استعراضا لبعض مؤلفاته الأدبية، ومنها "صور وخواطر" و"مع الناس" و"هتاف المجد". وللشيخ علي الطنطاوي أسلوب أدبي يعرف به، وكما له مذهب في الأدب تمذهب به. يقول عن نفسه: "أتحدث عن نفسي لأني أديب، وهذا أسلوب من أساليب الأدباء، ومذهب من مذاهبهم[3]".

---

[1] العقاد، عباس محمود،أنا، ص 15.

[2] علي الطنطاوي، ذكريات، 5/67-68.

[3] علي الطنطاوي، ذكريات، 2/107.

ومما لا ريب فيه إنه كان أديبا موهوبا ومطبوعا، لأجل ذلك قسم حفيده مجاهد مأمون ديرانية كتاباته الأدبية[1] تحت عنوان "الأدبيات" وأسماها كما يلي: "فكر ومباحث"، و"صور وخواطر"، و"مع الناس"، و"هتاف المجد"، و"مقالات في كلمات"، و"قصص من الحياة"، و"صيد الخاطر". نذكر لكم ما يقول عن أدب الشيخ علي الطنطاوي الأستاذ سعود الصاعدي ".. وهو أيضا كاتب وروائي وقاص، يملك أدوات الأديب المكتمل غير أنه ليس بشاعر، ولا فرق بينه وبين الشاعر إلا الوزن الذي هو العمود الفقري للشعر، وما عدا ذلك فكل ما عند الشاعر عنده، بل وأوضح بيانا، وأقوى لغة[2]".

فقد اعترف الأدباء بأن الأدب علي الطنطاوي مليئ بالحيوية والفكر العميق والأسلوب الأنيق مع جزالة الكلمات وكل هذا وذاك في صيغة إسلامية خاصة ومن ظاهرة أدبية إسلامية محضة، وجميع مؤلفاته دالة على ذلك وذكريات خلاصة كلامه وتجربته الكتابية. وإن من يطالع "ذكريات" من جميع أجزائه ليجد أن صاحب الكتاب ما اهتم بالترتيب والتنظيم من حيث المكان والموضوع ولكن إنه سعى أن يحدثنا الوقائع والحوادث والتجارب من حياته من حيث ترتيب زمني، ولكنه لم يتقيد نفسه لهذا الترتيب أيضا، ولو رزق المؤلف شيئا من الترتيب والتنسيق قبل الطباعة أو قبل نشر المقالات لكان الكتاب

---

[1] ديرانية، مجاهد مأمون، علي الطنطاوي، أديب الفقهاء وفقيه الأدباء، ص 42.

[2] إبراهيم الألمعي، الطنطاوي عناق الفقه والفكر والأدب، مقال، في مجلة الأدب الإسلامي، ص 75.

في أحسن صورة ومن أجود كتب أدبي من كتب السيرة الذاتية، كما يقول أحمد بن علي آل مريع: "أما أهمية الذكريات فإن الباحث لا يبالغ في القول: إن ذكريات علي الطنطاوي لو رزقت شيئا من التنظيم والترتيب إبان كتابتها، والجلد في مراجعة ما كتب منها وإعادة ترتيبه وتنسيقه قبل تسويقه للقارئ في كتاب لجاءت من أهم وأجل الكتب الأدبية في مجال أدب البحث عن الذات خلال هذا القرن، ومع ذلك فهي من الأهمية بمكان[1]".

فمعنى ذلك أن هذا الكتاب "ذكريات" لو لم يركز صاحبه عنايته على الترتيب والتنسيق ولكن الكتاب لم يخل بفائدة علمية وأدبية، من أجل ذلك سنلاحظ في الصفحات التالية ما وضع الشيخ علي الطنطاوي في هذا الكتاب من صناعة الأدب والشعر والنقد والفكاهة والسخرية.

ذكرياته عن الأديب معروف الأرناؤوط:

كان الأديب الأستاذ معروف الأرناؤوط من الصحفيين الشاميين، ولكن لم يكن صحفيا كبيرا بل كان أديبا نابغا حسب ما قال الشيخ علي الطنطاوي عنه. الشيخ علي الطنطاوي يتحدث عن شخصيته الأدبية ويصف عنه وصفا دقيقا وناقدا. يعبر عن رأيه فيه: "كان معروف أديباً، ولم يكن صحفيا.. لا أعني الأديب الذي أخذ كل شيئ بطرف، كما قال ابن خلدون، فمعروف لم يأخذ إلا شيئاً واحداً هو الأدب، أخذه من أطرافه كلها وترك له

[1] آل مريع، أحمد بن علي، علي الطنطاوي كان يوم كنت، ص 101.

كل شيئ، ولا أعني الأديب الذي روى الشعر، وحفظ الأخبار، ووعى التاريخ، فمعروف لم يكن راويا ولا حافظاً ولا مؤرخاً. ولا أعني الأديب في عرف العامة وهو الرجل المهذب الحواشي، الرقيق الطبع، العف اللسان، فما كان لسان معروف عفيفاً ولا نظيفاً، وكان إذا غضب نطق بأشنع السباب، وأبشع الشتم، وكله من تحت خط الاستواء في جسد الإنسان! أي من تحت الزنار. ولكن أعني الأديب الذي تجالسه فتجالس (طفلاً) كبيراً. وتراه فترى صفاء الطفولة وجمالها، وتسمع له فينقلك (إذا كان راضياً رائق المزاج) إلى عالم ما فيه إلا الجمال والحب، عالم القلب. وتقرأ له فينقلك إلى دنيا غير دنيا الناس، يصور لك (في رواياته فيافي الجزيرة، وأودية فلسطين، ومفاتن إسطنبول[1] مزينة بالسحر والشعر، مضمخة بالطيب والعطر، حتى لتظنها جنان الأحلام، وتشك إن كنت تعرف هذه البلاد هل هي التي يصفها معروف أم أن في قلم معروف سحراً.

فمن جالس معروفاً فقد عرف الكاتب الأديب، ومن قرأ لمعروف ولم يجالسه لم يعرف إلا جانباً من هذا الأديب الكاتب، ومن لم يقرأ له، ولم يجالسه، فقد فاته حظ من الأدب العربي الحديث. هذا كله على ألا تعامله، ولا تتخذه قدوة لك في الحياة. أستغفر الله وأسأل الله له الرحمة فلقد كان مؤمناً لا يشرك بالله شيئاً[2]". وله حديث طويل عنه وكما

---

[1] اسطنبول أصلها أسلامبول أي بلد الإسلام سماها بذلك محمد الفاتح.

[2] علي الطنطاوي، ذكريات، 2/7-8.

للحديث ذيول كثيرة، ولكن من المهم لنا أن في ذكريات مثل هذه المقالات الأدبية والوصف الدقيق والنقد السليم عن الأدباء والشعراء والأساتذة والمعاصرين[1]".

ذكرياته عن أمير الشعراء شوقي وغيرهم:

قد سنح للشيخ علي الطنطاوي فرصة سعيدة للقاء الشعراء الكبار أمثال شوقي بك وبشارة الخوري، وشفيق جبري، وشبلي الملاط، فكان المجلس في فندق كبير، وكانت المائدة مليئة من أواني الخمر، فما أسكت الشيخ على هذا المنكر العظيم وما استعصم نفسه أن لا يمنع هؤلاء من هذا الإثم الفاحش، بل أخذ العصا وأزال ما كان على المائدة من أواني الخمر، وبعد قليل اختلط بهم كصديق وأخ. يذكر هذه الوقعة المدهشة: "جاء شوقي (أمير الشعراء) دمشق مرة، فأغراني أنور العطار رحمه الله بأن أذهب معه لزيارته، وكان في فندق خوام الذي هدم الآن، وصار مكانه شارعاً، فوجدنا بشارة الخوري، وشبلي الملاط، وشفيق جبري، وحليم دموس، ومجموعة من الشعراء من هذه الطبقة، وأمامهم مائدة عليها أواني الخمر، وكنت أحمل عصا فمددتها ومشيتها على وجه المائدة فحذفت

[1] نفس المصدر 12/2.

كل ما كان عليها، فكسرته! وتستطيعون أن تتخيلوا ماذا صار!..اختلطت بهم كاختلاط الزيت بالماء لا كاختلاط الماء بالخل"[1].

وله ذكريات جميلة مع قصائد شوقي يحكي لنا أنه حينما كان طالبا في مكتب عنبر في الثانويات، طلب منه الأستاذ الرفاعي يوما أن يلقي على عامة الطلاب والأساتذة قصيدة شوقي بك (الثورة السورية) بعد الاستعداد والحفظ. وكانت تلك الأيام أيام الثورة الفرنسية، فرضي علي الطنطاوي فأخذ المجلة وحفظ الأشعار، وألقاها أمام الجمهور من الطلاب والأساتذة ووقف يتلوها، وكان مطلع القصيدة:

سلام من صبا بردى أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق

وأخذته الحماسة ودبت فيه المحبة الوطنية فنسي أن المدرسة حكومية وفيها أساتذة الفرنسا والثورة قائمة والحرب آتية، وكان يسمع صوت الرصاص والرشاشات جالسا في الفصل، وأجهر صوته وأسمع الحاضرين الجميع بدون مكبر ولا آلة، فتردد مرة حينما رأى أمارات العبوس على وجه مدير المدرسة جودة بك الهاشمي ولكن كانت الإشارة لإكمال القصيدة بأن الطنطاوي يخاف من تقديم بعض الأبيات من القصيدة، فأكمل القصيدة، وكان الطلاب والمدرسون يصفقون عند كل شعر ويهتفون له حتى بحت الحناجر، إعجابا

---

[1] نفس المصدر 13/2.

بالقصيدة العظيمة للشوقي، وإعجابا بطريقة إلقاء الطنطاوي. ثم وقعت في يديه قصيدة أخرى لخير الدين الزركلي، فأمر الأستاذ بإلقائها أيضا، فألقاها في الاجتماع الحاشد فصفق الناس له. والشيخ الطنطاوي يذكر بعض الأبيات من تانك القصيدتين بواسطة ذهنه وما بقي من ذكرياته: "وأنا لا أزال إلى اليوم بعد خمس وخمسين سنة، أحفظ أكثر أبيات القصيدتين. لقد كان شوقي (لسان العرب) الذي يعرب عن آلامها وآمالها ويصور أفراحها وأتراحها، فما مر بالعرب بل بالمسلمين، حدث إلا كانت لشوقي قصيدة فيه، لذلك كان شعره ديوان العرب في هذا العصر[1]".

وبعد ذكر هذه الذكريات الجميلة راح ينقد الطنطاوي نقدا علميا لا شخصيا على شعر شوقي ويمدح له مدحا لائقا بما أن هذه القصيدة التي نظمها في الثورة السورية ليست من أجود وأفضل ما نظم شوقي، وقافية هذه القصيدة من أصعب القوافي، ولكن بعد ذلك كله الأبيات رائعة مؤثرة في النفوس. يقول الشيخ ناقدا للشوقي: "هذه القصيدة ليست من أجود ما نظم شوقي، وقافيتها من أصعب القوافي، وأنا أعرف ظروف نظمها على عجل، ولكن شاعريته محت آثار عجلته، فجاءت فيها أبيات سارت في الناس مسير الأمثال وخلدت خلود أبيات المتنبي، وصارت مددا لكل خطيب يخطب، أو زعيم يقود. حوت معاني تبقى جديدة ولو مرت عليها السنون:

---

[1] نفس المصدر 1/226-227.

فتوق الملك تحدث ثم تمضي ولا يمضـي لمختلفين فتـق

فإن كنا متفقين رتقنا كل فتق، وسددنا كل ثغر، أما إذا اختلفنا ونتازعنا فإنها تذهب ريحنا ويكون فشلنا. ولا تقولوا: ما له ينصحنا وما هو من أهل دارنا، فينصحنا وما هو من أهل دارنا، فإن هموم الشرق تجمعنا:

نصحت ونحن مختلفون دارا ولكن كلنا في الهـم شـرق

ويجمعنـا إذا اختلفـت بـلاد بيان غير مختلـف ونطـق

وقفتم بين مـوت أو حيـاة فإن رمتم نعيم الدهر فاشقوا

وللأوطـان في دم كل حـر يـد سلفت ودَيـن مستحـق

..ثم جاء البيت الذي صار (على ضعف تأليفه) بيت القصيد، في هذه الأبيات التي تصلح أن تكون نشيد النضال:

وللـحريـة الحمـراء بـاب بكـل يـد مضـرجة يدق[1]"

[1] نفس المصدر 1/227-228

الموازنة بين شوقي والزركلي:

الشيخ علي الطنطاوي يقدم لنا موازنة سديدة بين شعر الثورة السورية للزركلي وشوقي، ثم يفضل الطنطاوي شعر الزركلي على شوقي، بعد ما يؤمن الطنطاوي بأن الزركلي ليس من أشباه شوقي ولا من رجاله وطبقته، ولكن يفضل شعر الثورة السورية للزركلي على شوقي بأنه صاحب البيت وابن البلد، وأسلوب الزركلي عنده في هاتين القصيدتين الثورية أروع وأسلس من أسلوب شوقي وإن كان أسلوب شوقي أقوى وأمتن. يقول محللا وناقدا: "أما صديقنا بل أستاذنا خير الدين الزركلي، فليس من رجال شوقي ولا من طبقته، ولا أسلوبه من أسلوبه، على الرغم من أن شوقي آذاني بهذه القافية التي أحس كلما تلوت القصيدة كأنها مطارق تنزل على رأسي: دقّوا، دقّوا، دقّوا. رحمه الله ما الذي جعله يختار حرف القاف من بين سائر الحروف؟

على أنه (أحمد) شوقي شاعر العرب الذي لم يأت بعد (أحمد) المتنبي شاعر أشعر منه، ولا (أحمد) شيخ المعرة صاحب اللزوميات.

ولكني أفضل هنا قصيدة الزركلي على قصيدته، لا أفضل الزركلي ولا غيره عليه هو. الزركلي ابن الشام، ومهما كان البعيد فإنه لا يشعر بمأساة البلد شعور ابن البلد، وأسلوب الزركلي هنا أسلس وألين، وإن كان أسلوب شوقي أقوى وأمتن، وقافية شوقي كأنها الطريق الوعر، فيه الحجارة والصخر، وقافية الزركلي كالسلسال الجاري، والجادة المعبدة

السهلة، والزركلي كان حينا أشعر شعراء دمشق الأربعة، وإن كان قد انقطع عن الشعر من نصف قرن، وانصرف إلى التأليف، فترك كتابا من أعظم ما ألف في هذا العصر وهو (الأعلام).

مطلع قصيدة الزركلي:

الأهل أهلي والديار ديـاري وشعـار وادي النيربيـن شعـاري

ما كان من ألم بجلق نـازل واري الزنــار فـزنـده بــي واري

إن الدم المهراق في جنباتها لـدمـي وإن شفـارهـا لشفـاري

دمعي لما منيت به جار هنا ودمــي هنــاك علــى ثراها جاري[1]"

ثم يقول بأن قصيدة الزركلي بما فيه عاطفة صادقة وصورة رائعة لدمشق وأهوالها وشدائدها وأسلوب قصيدته أسلوب أدبي، مملوءة بالصور والعاطفة، والمدار فيها على الجمال والحقيقة، وهي بمثابة تاريخ فني، أو فن تاريخي فيه حقيقة وجمال وعاطفة وخيال.

---

[1] نفس المصدر 1/229-230.

ذكرياته عن الأديب الشامي محمد كرد علي:

إن الشيخ علي الطنطاوي كان يصاحب الأدباء والشعراء من الشام في ريعان شبابه، وقد صحب وتتلمذ على أكبر الكتاب العربية بلا نزاع وخلاف في الشام، ولهذه الشخصية الأدبية فضل على الجميع من الكبير والصغير من الأديب والشاعر في الشام، فانهال الجميع من منهله واستقى من بحره الزاخر، ألا وهو الشيخ محمد كرد علي. فاستفاد الشيخ علي الطنطاوي من صحبة هذا الأديب الألمعي الكبير، ومن كتاباته ومقالاته. وكان يوازن أسلوبه بأسلوب عبد الحميد الكاتب الكبير من العصر العباسي. ننقل لكم هذه القطعة الأدبية تحت عنوان "الكتاب والأدباء والصحفيون". يقول الشيخ الطنطاوي مادحا:

"أما محمد كرد علي فهو أستاذنا وأستاذ كل من خط في الشام بقلم في مطلع هذا القرن الميلادي، ذلك أنه أول من رسم لهم الطريق، وأول من عبّد لهم الجادة. وكان مؤرخا باحثاً، وإن لم يكن قد بلغ الغاية في التحقيق، وتمحيص النصوص، وكان كاتبا اجتماعيا، وكان له أسلوب في الترسل. قلت في وصفه لما قرظت كتابه (أمراء البيان). قلت: إني كنت أتخطى عبارة عبد الحميد الكاتب لأستمتع بعبارة محمد كرد علي.

ولا تستكثروا هذا القول، فإن عبد الحميد في قدم عهده، ورسوخ قدمه، وسبق زمانه، إمام الكتاب لا أماري في ذلك، ولكن إذا ترك فضل السبق، ومرجح الزمن، ووضعت العبارتين في الميزان، رجحت عبارة الكاتب اللاحق على الإمام السابق.

وهذا شيء لا يثبت بالدليل المنطقي، ولا يحقق بالتجربة المخبرية، ولكن يدرك بالذوق فمن كان من أهل النقد، وكان يتذوق طعوم الأساليب، ويستطيع تصنيف الكلام، شهد لما قلت بأنه الحق، ولقد صحبت الأستاذ كرد علي أمداً طويلاً، وعندي من أخباره الكثير، أحدث بها القراء يوماً إن شاء الله[1]".

ذكرياته عن أسلوب الأدباء الكبار من القديم والحديث:

مما لا ريب أن الشيخ علي الطنطاوي كان من كبار الكتاب العربية وكان جاحظ القرن العشرين. بعد قراءة هذه النصوص تيقنت بأن الشيخ علي الطنطاوي تأثر كثيرا بأسلوب الجاحظ، وكان الجاحظ آحادا في واحد، وكان خلاصة عصره. نرى كيف يحكم الأستاذ علي الطنطاوي بين الأدباء والكتاب من القديم والحديث! وكيف يحكم بين هذا الأسلوب وذاك! وكيف يقدم النماذج ويحكم بين الأديب الكبير من العصور الماضية ومن العصر الحديث. كم قرأ من كتب الأدب العربي قديما وحديثا! وكم شاهد دفاتر الكتاب من عصره ومصره! حتى جعل يحاكم أنه يكتب في أسلوب فلان. وفلان يكتب في أسلوب ويقلد فلانا. فأولا يخبرنا بأساليب الكتاب الأقدمين وبعد ذلك يفيدنا علما بأن الأدباء المعاصرين يحاكون لهذا أو لذاك. يتكلم الشيخ الطنطاوي عن أكبر كتاب العربية

---

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، 25/2.

وهم خمسة. يقول متحدثا عنهم تحت عنوان "الكتاب والأدباء والصحفيون" في الجزء الثاني: وأساليب الكتاب الأقدمين أربعة: أسلوب يحاول صاحبه أن ينقل إلى نفسك ما في نفسه هو، بأصح عبارة يقدر عليها وأوضحها، لا يقصد إلى تجميلها ولا إلى تحميلها ما لا حاجة بها إلى حمله، يبتغي فيها الإيجاز، ولا يحرص فيها على المجاز، وهذا هو الترسل، أسلوب ابن المقفع وعلى طريقه مشى كرد علي، وشكيب أرسلان ومحب الدين الخطيب، وأحمد أمين.

وأسلوب يجمل العبارة التجميل المقبول، ويأتي معها بما يقاربها وما يناسبها، من طريف السير وغريب الخبر، وربما ابتعد بهذا الاستطراد عن المعنى من معنى إلى معنى، ومن فكرة إلى فكرة، حتى لا تدري ماذا كان عنوان المقال، وما هو الموضوع الأصلي للكلام، ولكنك لا تمله ولا تضيق به، وهذا هو أسلوب الجاحظ.

وأسلوب يعتني بالعبارة مثل عنايته بالفكرة، بل ربما زاد عليها فأضاع المعنى لتجميل المبنى، يقرن بالكلمة أختها أو بنت عمها، ويحشر معها من الأبيات ما يؤيدها، فيختلط النثر بالشعر وتحس حين تقرؤه بأنه إلى التكلف والصناعة أقرب منه إلى الأدب المطبوع، وهذا هو أسلوب ابن العميد.

وأسلوب يجعل العبارة وحدها هي المقصودة، يصف صاحبه كلاماً حلواً ولو كان خلواً من المعاني مسخت فيه الأفكار ألفاظاً، والصور كلمات يفكر صاحبه بيده لا برأسه، قد يثير

فيك العجب من دقة صنعته، أو الإعجاب ببارع زخرفته، لكنه لا يثير في ذهنك فكرة، ولا يبعث في قلبك عاطفة، فهو لوحة فسيفساء جامدة، لا طاقة زهر، تمثال حسناء من الشمع، لا الحسناء نفسها. وهذا هو أسلوب الصاحب بن عباد، والقاضي الفاضل، الأسلوب الصناعي الذي بلغ في (مقامات الحريري).

وهؤلاء هم الكتاب الذين أولع بهم أساتذة الأدب في المدارس والذين وضعوا لهم المناهج، وحددوا لهم الموضوعات، وما هؤلاء بأعظم كتاب العربية، وما أسلوب ابن العميد، والصاحب، والقاضي الفاضل، وابن الأثير صاحب (المثل السائر) بالأسلوب الذي يصلح قدوة للطلاب فضلاً عن مقامات الحريري، التي كانت تعد يوماً النموذج الأكمل، للأسلوب الأجمل!.

هذا على ما فيها من براعة في اللعب بالألفاظ كلعب (السحرة) في (السيرك)، وعلى أن كتاب (المثل السائر) أجود كتب البلاغة، لولا غلاظة صاحبه واستشهاده الممل برسائله وكتاباته، ولولا طول لسانه وشتمه الناس بلا سبب...

لا، ما هؤلاء هم كبار الكتاب الأقدمين، ولكن أكبر كتاب العربية خمسة:

الجاحظ، لا أستطيع أن أنفيه منهم، ولا أبعده عنهم، وأبو حيان التوحيدي أول قصصي مبتكر في أدبنا، والغزالي حين يحلل النفس البشرية في (الإحياء)، وابن عربي في (الفتوحات) إذا قسناه بمقياس الأدب لا بمقياس الدين، وابن خلدون في المقدمة"[1].

وهذه الموازنة بين الأدباء إن دلت على شيئ فهي تدل على علم الغزير بين الأدب القديم والحديث للشيخ علي الطنطاوي، ومهارته الشيخ علي الطنطاوي في اللغة العربية موضوعا وأسلوبا. كما هذه الموازنة تدل دلالة واضحة كم قرأ وتصفح الشيخ الطنطاوي كتب الأدب وأمهات الكتب العربية حتى أصبح واختلط وانسلك في سلك الأدباء.

ذكرياته عن اللغة العربية ولأكبر الكتاب العربية:

له مقالات عن اللغة العربية في كتاباته المختلفة، فكتب عن اللغة وتدهورها وأسباب التخلف لها ثم جعل يداوي ويصف العلاج لها، ويشحن التلامذة بالفخر والاعتزاز باللغة العربية وبالعروبة. فكان خادما صادقا للغة العربية. يقول مفتخرا: "اللغة العربية أكمل اللغات، ما عرفها التاريخ إلا كاملة حتى تعجب من ذلك (أرنست رينان)، وهي أوسع اللغات، ولا يغرنكم أن في القاموس المحيط ستين ألف مادة، وفي لسان العرب ثمانين ألف، وأن المعاجم الإنجليزية فيها مئات الآلاف، لأن مثلنا ومثلهم مثل رجل له سبعة

---

[1] نفس المصدر 2/25-27.

أولاد فقط لكنهم خرجوا جميعا من صلبه، وولدتهم إمرأته، وآخر عنده مائة ولد ولكنهم لقطاء وملمون لمًّا من الملاجئ والشوارع[1]".

ثم جعل ينصح ويخبر الطلاب عن أهم أساطين الأدبية والأئمة اللغوية العربية، لكي يستفيد الطلاب من كتب هؤلاء الأباء العبقريين، وينتفعوا من بحرهم الزاخر. إذ يقول: "أكبر كتاب العربية خمسة: الجاحظ، لا أستطيع أن أنفيه منهم، ولا أبعده عنهم، وأبو حيان التوحيدي أول قصصي مبتكر في أدبنا، والغزالي حين يحلل النفس البشرية في "الإحياء" وابن عربي في "الفتوحات" إذا قسناه بمقياس الأدب لا بمقياس الدين، وابن خلدون في المقدمة[2]".

مثال رائع للحياة الدنيوية والأخروية:

إن الشيخ علي الطنطاوي كان مؤمنا بالله مخلصا له. وكان يرى كل يوم وليلة أن الناس ينكرون بالحياة الأخروية وبالجنة والنار، فكان يريد أن يفهم الناس بكل حجة وبرهان أن الآخرة هي دار القرار وهي الحقيقة الكبرى. وأن حياة الأخروية هي الحياة الأبدية السرمدية. ولأجل ذلك كان يضرب للناس الأمثال الرائعة ويقدم الحجج القاطعة لإثبات الحق وإبطال الباطل، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟ وكان الشيخ من الأدباء الإسلاميين

---

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، 113/8.

[2] نفس المصدر 27/2.

من القرن العشرين ومعظم كتاباته ومقالاته في الإصلاح ولكن في صبغة أدبية عالية وفي رؤية ثاقبة، وفي هذه القطعة إنه يثبت الحياة ما بعد الممات حق من خلال تقديم هذا المثال. فمن أجود مثال ابتكره الشيخ إذ يقول:

"وهل يفقد من يموت؟ لقد قلت من قديم مقالة قرأها الناس مني وسمعوها: إن الجنين في بطن أمه لو أمكن أن يسمعك، وأن يفهم عنك ويكلمك، وسألته: ما الدنيا؟ لقال لك: إن الدنيا هذه الأحشاء التي أعيش فيها، وهذه الظلمة التي أتقلب خلالها. فإن قلت له: ها هنا دنيا البيت الواحد منها أوسع من دنياك هذه كلها بمائة ألف ضعف، وأن فيها شمسا وقمرا، وأن فيها برا وبحرا، وشتاء وصيفا، هل كان يستطيع أن يفهم عنك أو يتصور ما تقول؟

ولو كانا توأمين في بطن واحد، فولد أحدهما قبل صاحبه، وأمكن أن تسأله عنه فبماذا يجيب سؤالك؟ ألا يقول لك إنه كان فبان وخلا منه المكان، إنه مات ودفن تحت في الأعماق؟ فكيف رأى الولادة موتا، وكيف لا نرى نحن الحقيقة فنعلم أن الموت ولادة جديدة؟"[1]

[1] نفس المصدر 292/7.

نقد على شعر الحداثة والمدح للعقاد:

إن الشعر بدون وزن وقافية ليس بشعر، لا وزن له ولا قيمة. والشعر يكون شعرا حينما يراعي صاحبه الوزن ويلتزم بالقافية مع الخيال الرفيع والمعنى السامي، فإن الشيخ علي الطنطاوي كان يقف هذا الموقف، وكان ينقد نقدا لاذعا على شعر الحداثة. وكان يمدح الشاعر والأديب صاحب العبقريات عقاد على موقفه لشعر الحداثة. وكان يعد شعر الحداثة من النثر المنثور وليس من الشعر المطبوع.

"إن الشعر عندنا لا يمشي إلا على ساقين من الوزن والقافية، فإن فقد إحداهما مشى على الكاكيز، وإن فقدهما صار شعرا كسيحا، لا يتحرك إلا على كرسي ذي دواليب. رحم الله الأستاذ العقاد عندما كان رئيس لجنة الشعر، قدموا إليه بعض هذا الذي يسمونه شعر الحداثة؟ فأحاله إلى لجنة النثر لأنه أراد أن يدخل مدينة الشعر بجواز سفر مزور فرده إلى موطنه، ولولا أنه رحمه وأشفق عليه لأحاله إلى محكمة الجنايات بتهمة التزوير[1]".

قد سنحت للشيخ علي الطنطاوي فرصة للتفسير والتوضيح معنى العبقري والنابغة، فوضح الفرق بين العبقري والنابغة أمام الطلاب، وجعل يوضح الأمر بالأمثلة. من هو الشاعر العبقري ومن هو النابغة؟ يصف وصفا دقيقا ويفرق فرقا جليا إذ يفسر تفسيرا أمام

---

[1] نفس المصدر 8/333-334.

الطلاب: "لقد علّمت الطلاب يومئذ التمييز بين العبقري وبين النابغة: بشار عبقري، ومروان بن أبي حفصة نابغة، ومن قبله كان امرؤ القيس عبقريا، وزهير نابغة، ومن بعده أبو تمام عبقري، والبحتري نابغة، المتنبي عبقري، وأبو فراس نابغة، شوقي عبقري، وحافظ إبراهيم نابغة. العبقري يشق طريقا جديدا، والنابغة يسلك الطريق المعروف، ولكنه يجيئ سابقا في أول الركب، وقد يكون الطريق الجديد الذي كشفه العبقري وعرا ملتويا، لذلك كان من صفات العبقري أنه يسبق حتى ما يتعلق أحد بغباره وقد يتعثر ويتأخر، يعلو وينخفض، والنابغة يسير بسرعة واحدة غالبا، لا يسبق سبقا بائنا، ولا يتخلف تخلفا شائنا[1]".

شعر الطنطاوي:

إن الشيخ لم يعرف كشاعر قط، ولكن قرض بعض الأبيات والقصائد في بعض الأحيان من عاطفته الأدبية الصادقة. يقول عن شعره وشاعريته: "أنا لست بشاعر ولكني أحياناً أرصف أبياتاً إن لم تكن شعراً فإنها تعبر عن شعور، وقد ارتجلت هذه المقطوعة في الحلقة الكبرى التي أقيمت لقضية فلسطين في كراتشي وكان حضرها الملك سعود والرئيس باكستاني، فقلت للملك:

---

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، 7/4

أجلالة الملك العظيم سعود فخر الجزيرة وابن خير جدود

ثم وجهت الكلام للرئيس، ثم قلت للرئيس:

أيضيع بينكما مصلى أحمد ويعود هيكل معبد ليهود

وأكملتها بالآيات التي رويتها[1].

المعارك الأدبية العلمية في ذكريات:

حينما كان رئيس التحرير لمجلة الرسالة، كان هناك باحثا كتب بحثه عن "القصص في القرآن" وأتى إلى هذه النتيجة–العياذ بالله– إن هذه القصص القرآنية مستمدة من مصادر أخرى غير عربية من التوراة والأدب اليوناني والأدب الفارسي، وإن في قصص القرآن – نعوذ بالله – أساطير وخرافات لا أساس لها، فكتب الأستاذين أحمد أمين وأحمد الشايب تقريرهما بأن الرسالة أو الأطروحة لاتصلح لضعف المنهج العلمي الذي اختاره فيها، وكما هي يمس الناحية الدينية ولم يراع صاحب الرسالة الحقيقة التاريخية. فهذا البحث والتحقيق أثار جدلا بعد ما قال المشرف بأنه متضامن بكل حرف كتبه الباحث، وأنه كتب هذا مراعيا لحرية فكره ورأيه. ثم كتب الشيخ علي الطنطاوي هذا التقرير ضد الباحث والمشرف الذي يليه. وأثار هذا التقرير جدلا ونقاشا في مجال العلم والأدب. أنقل

[1] نفس المصدر 170/8.

هذا النص الطويل في ذكريات تحت عنوان "معركة أدبية كانت نتيجتها دعوى قضائية" يقول فيه معارضا:

"والمعارك التي خضتها اضطررت إليها ولم أخترها. ولم يدفعني إليها دافع شخصي لأن أكثر من قارعته فيها ونازلته، لم يكن بيني وبينه من صلات الدنيا ما يستدعي حبا ولا بغضا. من ذلك أني كنت سنة 1949م أشرف على تحرير مجلة "الرسالة" بتفويض من أخي الأكبر وأستاذي الزيات، رحمة الله عليه، لمرض كان فيه، أو تمارض كان منه. وكان في "الرسالة" أبواب ثابتة، منها باب "الأدب والفن في أسبوع" فنشر محرره في عدد يوم الاثنين 30 شوال 1366هـ خبرا عنوانه "جدل في الجامعة" قال فيه:

كان الأستاذ محمد أحمد خلف الله، المعيد بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول، (وكذلك كانت تسمى جامعة القاهرة في تلك الأيام)، قدم رسالة للحصول على الدكتوراة موضوعها "القصص في القرآن" وقد أعدها بإشراف الأستاذ أمين الخولي ومعاونته، وألفت لجنة من الأستاذين الشايب وأحمد أمين للنظر في صلاحية الرسالة للمناقشة. وكتب كل من الأستاذين تقريره عنها، أما الأستاذ أحمد أمين فقال: بأنها لا تصلح لضعف منهجها العلمي، وأما الأستاذ الشايب فرأى أن فيها ما يمس الناحية الدينية لأن صاحبها يقول إن القصص القرآني لم يراع الحقيقة التاريخية وأن المقصود منه غرض فني، فلسنا ملزمين بتصديق حقائق هذه القصص، وإنما نقدر فيه الغاية الفنية. ويقول إن القصص مستمد

من مصادر أخرى غير عربية، كالتوراة والأدب اليوناني والأدب الفارسي، وإن فيه أساطير لا أساس لها، لذلك رأى الأستاذ الشايب أنه لا يجوز أن تعرض رسالة تتضمن هذه الآراء للمناقشة في لجنة الدكتوراة.

وعلم الأستاذ الخولي بفحوى تقرير الأستاذ الشايب، فرد عليه بتقرير قال فيه: إنه متضامن مع مقدم الرسالة في كل حرف منها، وإنه لا ينبغي الوقوف أمام حرية الفكر. وهذه التقارير كلها لدى العميد تنتظر اجتماع مجلس الكلية، وتتحدث الهيئات الجامعية في هذه المسألة، وأقوم ما يقال فيها إن الدكتوراة إجازة من إجازات الدولة التي دينها الإسلام، فكيف تمنح لمن يرى هذه الآراء في القرآن؟

فكتبت مقالة في العدد الذي يليه (عدد 7/ذي القعدة/1366) عنوانها "تعليق مختصر على خبر" قلت فيها: هذا الخبر الذي جاء فيه أن معيدا في كلية الآداب أعد أطروحة (ونحن في الشام نسمي رسالة الدكتوراه الأطروحة) ينال بها لقب "دكتور" فلم يجد لها موضوعا إلا القصص في القرآن ولم يجد فيه إلا أنه أساطير الأولين، وأنه كذب مفترى، وأنه مستمد من التوراة ومن أدب فارس ويونان، وأن الأستاذين الأحمدين الفاضلين، حكما برد الأطروحة وإسقاطها، واختلفا في تعليل الحكم، فكانت العلة عند الأستاذ الأمين الجهل، وعند الأستاذ الشايب الكفر، وعندنا أنهما معا، لأن هذا لا يجيئ إلا من ذاك.

وفي الخبر أن الذي أشرف على إعداد الأطروحة، وأعان عليها، شيخ بعمامة بيضاء من الكلية، وأن هذا الشيخ عز عليه إسقاط الأطروحة فغضب، والغضب لله وللحق من الفضائل!! وقال: "إنه متضامن من مقدم الرسالة في كل حرف منها، وإنه لا ينبغي الوقوف أمام حرية الفكر".

ولو انتهت القصة عند رد الأحمدين ولم يكن صاحب الأطروحة مدرسا، ولم يدخل نفسه فيها هذا الشيخ لينصر الكفر، ويدفع عن الإلحاد، ويؤيد الجهل، لقلنا شاب تعجل الشهرة قبل أوانها، ورأى طريق العلم والتحقيق طويلا فسلك طريق جهنم، وأراد اجتياز الصراط فسقط. وسكتنا، ومرت الحادثة كما مرت أحداث أمثالها وشر منها، ظن محدثوها أنهم هدموا الإسلام، ونسفوه نسفا، وصرفوا عنه الناس صرفا، والإسلام لم يشعر بها، ولم يحس بوقعها، ولم يزدد عليها إلا قوة وانتشارا، ولكن دخول هذا الشيخ في المجادلة على صدق القرآن وكذبه، وكون طالب الأطروحة موظفا رسميا، ومعيدا في الكلية، أمر لا يسكت عنه. وهذا الذي نقوله اليوم أول الغيث"[1].

أثار هذا الخبر إثارة شديدة، ذهب طرف آخر إلى القضاء لرفع قضيته أمام الحاكم، ثم ذهب الشيخ علي الطنطاوي إلى المحكمة لرفع النقاب وإزالة الشبهة عن القرآن، حتى تجلى الحق وبطل ما كانوا يفعلون. واعترف الطالب والمشرف بخطأه بأنه كان يريد أن

---

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، 6/182-184.

يرد شبهات المستشرقين عن قصص القرآن وما كانت نيته التلبيس والتزوير، ثم تاب وأناب. وتحقق أمل الطنطاوي وفاز في محكمة القضاء، وصفق الناس له على صوابه وإحقاق الحق وإبطال الباطل، ومما لا ريب فيه إنه نال عند الله ثوابا كثيرا وأجرا عظيما.

كان الشيخ علي الطنطاوي أديبا وصحفيا وله معارك مع الأدباء والشعراء. يقول عن بعضها: "بعد سنتين قد أكملت ستين سنة وأنا في الميدان، أجاري الفرسان وأقارع الأقران، وما ألقيت سلاحي، وما سلاحي إلا قلمي ولساني، ولا نزعت لأمتي. بدأت من أول يوم أصدرت فيه "رسائل الإصلاح" سنة 1348هـ بخوض المعارك الأدبية، ثم استمررت عليها. ما خضت غمارها، ولا صليت نارها، غراما بها، واطمئنانا إليها، ولكن أكرهت عليها.

كان عصرنا عصر معارك أدبية، وقدكنت في ميعة الشباب لما كانت معركة طه حسين، مع جمهرة كتاب العرب الكبار، من أجل كتابه "الشعر الجاهلي"، وحضرت بعدها معارك كثيرة كنت أشاهدها ولا أدخل فيها، لأن فرسانها كانوا أكبر مني، ولم يكن لي فيها مجال، ثم جاءت معارك كنت أنا طرفا فيها، وكنت أحمل لواء بعضها.

كان أسلوب الكتاب في هذه المعارك على ضربين: قليل منهم كان يعرض الفكرة يبين عيوبها ونقائصها، ويقيم الدليل على ما يقوله فيها، وكان أكثره همزا ولمزا، وهجاء للكاتب، وهزءا وسخرية به. وكان على هذا الأسلوب كبار الكتاب كشيخنا الرافعي

والأستاذ العقاد، وقد بلغ ذروته، أقصد أنه نزل إلى حضيضه في كتاب "على السفود"، وفي هذا الكتاب نقد أدبي كثير، وفيه حقائق جمة، وفيه فن، ولكن هذا كله قد ضاع في غمرة هذا الأسلوب الذي لا أستطيع –على حبي للرافعي– أن أقول إنه أسلوب نظيف أو مقبول[1]".

القصص في ذكريات:

وفي ذكريات قصص ممتعة مضحكة، وحكايات ذات عبرة ونصيحة، يذكر الشيخ هذه القصص والحكايات في استطراداته، ولإزالة الملل والسآمة من أذهان القراء والدارسين. فله كثير من القصص والحكايات ولو جمعنا هذه لضاق بنا المقام، ولكن هنا نقدم بعضها على سبيل المثال، كي يتضح الأمر وضوحا مثل رابعة النهار أن ذكريات مليئة بهذه القصص والحكايات. فمنها أمامكم قصة علماء الهند مع الشيخ معروف، يقول الشيخ الطنطاوي مستطردا وقاصا:

"وكان –الشيخ معروف الأرناؤوط– لكثرة ما يكتب في الشؤون الإسلامية، يحسبه الناس من بعيد شيخاً صالحاً عابداً، ويتصورونه متعمماً ملتحياً، مع أنه كان أول من حلق شاربيه في دمشق، وكان مفرداً في ذلك، وقد زاره مرة جماعة من علماء الهند وكان يدخن في النارجيلة، فقالوا له:

---

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، 6/181–182.

أين مولانا الشيخ معروف؟ (قال) فخفت إن قلت لهم، أنا هو، فقلت لهم: سيأتي قريباً، فتفضلوا اقعدوا. ورفعت النارجيلة، وجعلت أرقب الطريق، فمر الشيخ أديب تقي الدين نقيب الأشراف، فقلت: ها هو ذا. وأشرت إليه ففهم، ودخل بهيئته وهيبته وجبته، فقاموا إليه، يقبلون يده ورأسه[1]".

يقص الشيخ لنا قصة أخرى من القصص الفرنسية، ويحكي لنا معظم الحكاية في قالب جميل وفي طراز بديع أنيق، إنه يشجعنا أن نحب لغتنا العربية ونعتز بها كما فعل الأستاذ الفرنسي: "قال الرواية الفرنسي (الفونس دوده) في قصة عنوانها (الدرس الأخير)..حدث صبي من (الألزاس) فقال: غدوت إلى المدرسة صبيحة يوم من الأيام الأخيرة من العام ولما أحفظ درسي. فخشيت أن يقرعني أستاذي ويعاقبني فأخذت طريق الحقول علي أقطع النهار في اللعب واللهو، ثم بدا لي فعدت عن هذه الفكرة، وذهبت إلى المدرسة قلق الذهن مشغول البال، فما استلفت نظري إلا إسراع الناس مصفرة ألوانهم، عليهم أمارات الخوف والألم، إلى حيث لا أعلم، فتبعتهم حتى وصلوا إلى دار الحاكم، ثم لم أدر ماذا كان بعد ذلك لأني أسرعت إلى المدرسة، فذهبت سعياً إلى غرفة الدرس، فوجدت الأستاذ (هامل) يروح ويجيء فيها قلقاً، قد ارتدى الرسمية التي ما كان يلبسها إلا في يوم احتفاء، أو عند قدوم مفتش، ورأيت بعضاً من أهالي القرية قد جلسوا على المقاعد

---

[1] نفس المصدر 12/2.

واجمين شاخصة أبصارهم، بوجوه كئيبة مكفهرة، فانسللت إلى مكاني وأنا أشد ما أكون حيرة ووجلاً، وعلا الأستاذ المنبر فقال بصوت مرتجف، ورنة حزينة، كأنها بكاء ونحيب: أولادي، هذه آخر ساعة أراكم فيها ثم نفترق إلى غير تلاق، لأن بلادكم قد احتلها الألمان، واستبدلوا لغتهم الجرمانية بلغتكم الفرنسية، فلا فرنسية بعد اليوم.

ثم عاد الأستاذ فقال: والآن اصغوا إلي، لأتلو عليكم (الدرس الأخير) قم يا... فلم أسمع اسمي حتى ارتجفت وقمت، ولم أكن أضعتم بلادكم وسلمتموها إلى عدوكم بإهمالكم لغتكم.

اسمعوا أُلقي عليكم (الدرس الأخير) وراح يلقيه، ويكتب لنا سطراً ننسخه في دفاترنا لتحسين خطوطنا: "فرنسا ألزاس، فرنسا ألزاس" حتى قرع الجرس، فوقف ليودعنا ويودع معنا استقلال بلاده فقال: أيها الأحباب إنني.... إنني... وغلبه البكاء فأسلم نفسه إليه وبكينا كلنا معه، ثم مشى إلى اللوح، فكتب عليه بحروف كبيرة: ليحيى الوطن. وخرج[1]".

ويذكر الشيخ الطنطاوي قصة عجيبة تدل على اتباع تقاليد الناس الخرافات والبدع والأوهام، قبل ذلك كنت أومن بأن العرب سيكون خاليا من هذه البدع والخرافات ولكن بعد قراءة ذكريات علمت الكثير من هذه الخرافات والتقاليد الباطلة التي فشت وعمت في

---

[1] نفس المصدر 2/17-18.

البلاد العربية عامة والشام خاصة. يقص الشيخ قصة شجرة الزيتونة: "أما هذه الزيتونة، فقد كانت شجرة هرمة، أمامها قفص من حديد تربط النساء به الخرق، وتحتها قبر، وعندها (شيخ) دجال، قد جعل مرتزقه سدانة هذا الوثن. وقد نهى الشيخ الطنطاوي زيارة القبور للمرأة وقال في إثبات قوله،لأن النبي الكريم لعن زائرات القبور في كتابه "فتاوى علي الطنطاوي" والنساء يزرن المقابر كثيرا.[1]

أما قصتها فعجيبة حقا، هي أن قاسم الأحمد (جد صديقنا وزميلنا نهاد القاسم الأخ الوفي والوزير المستقيم رحمة الله على روحه) لما ثار على إبراهيم باشا أيام حكمه الشام، قبض عليه بعد معارك طويلة، فشنقه مع خمسة من رفاقه تحت زيتونة كانت هنا، فقال الناس (الستة بالزيتونة)، ثم نسوا القصة، فقدسوا الشجرة وسموها (ستي زيتونة)!"[2]

ومن طرائف الشيخ علي الطنطاوي يذكر حينما وصل أول سيارة إلى الشام خرج الناس ينظرون إليها، فلما شاهدوها تمشي بدون حصان ولا بغال، قال قائل منهم: إن السيارة تقودها الجن فهرب الناس وهرب التلميذ الصغير الشيخ علي الطنطاوي معهم، فضاعت الحقيبة في هذه الوقعة فكان هذا جزاء لهذه المتعة والتسلية. أنقل الآن نفس القصة في أسلوب الشيخ الطنطاوي الخاص: "وأنا أذكر أن أول سيارة وصلت إلينا،

---

[1] ديرانية ، مجاهد مأمون، فتاوى علي الطنطاوي، ص 314.

[2] علي الطنطاوي، ذكريات، الجزء الأول، ص 53.

وصلت سنة 1916 وخرج الناس ينظرون إليها، فلما رأوها تمشي وحدها لا يسحبها حصان، قال قائل من العوام: إن الجن تسيرها، فتدافع ضعاف القلوب هاربين، وهربنا نحن الصغار معهم، وضاعت حقيبة كتبي، ونلت على ذلك جزائي"[1].

المبحث الثاني: حياة علي الطنطاوي-الصنف الإخباري

ذكريات-الصنف الإخباري

في هذا الصنف صاحب السيرة الذاتية يذكر حياته من البداية إلى النهاية متى بدأ الدراسة وعلى من قرأها؟ وما زار من البلدان الأجانب لنيل العلم ولأخذ الشهادات العالية؟ ثم ماذا درّس وعلّم وأفاد؟ وماذا كتب وترك من الآثار؟ وكيف كان له علاقة مع الأدباء والشعراء ومع الساسة والأمراء؟ كما يشارك تجربته الكتابية والخطابية والتدريسية والتربوية والزواجية والعائلية وما لقي من الحوادث والوقائع خلال هذه الفترة من الحياة. فسنرى ماذا أخبر الأستاذ الطنطاوي عن نفسه من منظور الصنف الإخباري في هذا المبحث. بأن وضع ذكريات في الصنف التفسيري، وصنف الصراع الروحي، وفي صنف المغامرات، مستحيل، حسب التعريفات لهذه الأصناف الثلاثة الأخيرة، لذلك وضعت ذكريات في الصنف الإخباري.

---

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، 35/1.

قد سلك الدكتور إحسان عباس مسلكا آخر في تقسيم السيرة الذاتية حسب عناصرها وغايتها إلى الأقسام التالية.[1]فذكر أولا الصنف الإخباري، وثانيا الصنف التفسيري، وثالثا صنف الصراع الروحي، ورابعا صنف المغامرات. ففي هذه الأصناف الأربعة قسم الدكتور إحسان عباس ما ترك أدباؤنا وعلماؤنا من الكتب والمصنفات في مجال السيرة الذاتية.

هذا الصنف الإخباري يضم الحكايات التي تم حفظها وتسجيلها في شكل تجربة أو خبر أو مشاهدة مثل الحكايات للجاحظ وأبو حيان والصولي وغيرهم الذين يحكوون لنا حكايات عن أنفسهم ويتحدثون عن الأحداث والوقائع التي وقعت بهم. وفي هذا الإطار يأتي المذكرات التي كتبها المؤلفون لأجل غاية التاريخية مثل "مياومات القاضي الفاضل"، وكما تشمل كتب الرحلة تحت هذا العنوان التي تضم العناصر الذاتية مثل رحلة ابن جبير والشيخ خالد البلوي وابن رشيد والعبدري، ومجموعة من السير الذاتية مثل سيرة بابن سينا وموفق الدين البغدادي، وعلي بن رضوان الطبيب المصري. وتمتاز السير الذاتية التي تشمل تحت هذا الصنف الإخباري بالتأكيد على ذكر ولادته ونشأته وتعليمه

[1] إحسان عباس ، فن السيرة، ص114-129

وأساتذته وشيوخه وتجربته وأخباره ومشاهداته، وما هي الكتب التي ألفها والبلاد التي زارها وسافر إليها[1].

وتحدثت عن أسرة الشيخ علي الطنطاوي وولادته واسمه ونسبه ونشأته بالتفصيل في الباب الثاني في الفصل الأول، كما أوردنا ذكر أساتذته وشيوخه في نفس الفصل. ثم سلطنا الضوء على تجربته في مجال التعليم والقضاء والصحافة وما إلى ذلك من نشاطاته في الإذاعة والتلفزيون، وأخذت معظم هذه المواد المذكورة من كتاب "ذكريات" وكما ذكرت ذكرياته التاريخية في السياسة والاجتماع والثقافة في الباب الرابع. وفي هذا المبحث نريد أن نقدم تجارب الشيخ علي الطنطاوي في مجالات مختلفة من الشعر والأدب والنقد والقصة والحكاية وكما نذكر اعترافاته في مجال الكتابة والخطابة، مع ذكر صراحته في القول والعمل، وكما نورد ذكر الوقائع والنصائح في هذا المبحث. والغرض الأساسي لذكر هذه الأشياء كي يتضح الأمر تماما بأن الكتاب "ذكريات" علي الطنطاوي يأتي من الصنف الإخباري من السيرة الذاتية.

---

[1] نفس المصدر ص 114-115.

اعترافات علي الطنطاوي:

إن الشيخ علي الطنطاوي يعترف أنه خاض في معركة الحياة المختلفة وكانت الحياة تختبره وتمتحنه ففاز في بعض وخسر في بعض، اختار شيئا وترك بعض الأشياء، كان يقود المظاهرات ويخاطب الجماهير وكان قائدا كبيرا في اللجنة الطلابية التي جعلها بنفسه، ولكن لم يختر لنفسه بعد مجال السياسة والإمارة، وكذلك ذهب لكسب القوت إلى الأسواق وتوظف وجعل يكسب القوت ولكن يعترف أنه ولى هاربا منه وفر من التجارة، واشتغل وتوظف التدريس ويعترف أنه صار معلم الصبيان وشرع في مدارس أهلية، واشتغل بالمسرح تأليفا ومعلما للتمثيل ولكنه يعترف أنه ترك ذلكك المجال من غير عودة. واستمر حياته في الدعوة والتعليم والخطابة والكتابة. يقول الشيخ علي الطنطاوي: "الذي يريد أن يشتري بيتا أو يستأجره، يقلب بيوتا كثيرة، يبصر مزاياها وعيوبها، ثم يختار ماهو أصلح له منها، ولقد كانت سنة 1929م والتي بعدها إلى سنة 1931، كانت لي مرحلة اختبار واختيار، ما كانت بصنعي بل بصنع الله لي: خالطت المشايخ، حتى صار لي في ميدان الدعوة صوت مسموع، وإن لم يكن أعلى الأصوات، وصرت من قادة الطلاب، وإن لم أكن أكبر القواد، وصرت من فرسان المنابر، ومن حملة الأقلام، وإن لم أكن سابق الفرسان، ولا من أكبر الكتاب، وأصبحت معلما ولكن في

مدارس أهلية، واشتغلت بالمسرح تأليفا ومعاونة في الإخراج، ومعلما للتمثيل، ونلت الشهادة وكتبت تحت اسمي (بكالوريوس آداب وفلسفة)..

كانت كلها بدايات منها ما وقف وانقضى عهده فصار من الذكريات، ومنها ما استمر إلى الآن. استمر –الحمد لله– عملي في الدعوة، وفي التعليم، وفي الكتابة، وفي الخطابة، وانتهى عهد المسرح وقيادة الجماهير، كما انتهى من قبله عهدي بالتجارة، والحمد لله أيضا، فما ندمت على ما انصرفت عنه، ولا على ما بقيت فيه".

والشيخ علي الطنطاوي يعترف بأن الاستطراد والانحراف عن الموضوع المحدد خطأ وسيئ لا يغتفر، ولكنه يرتكبه ويفعله مهما يسنح له الموقع والمقام، ومهما يأتي إلى ذهنه خيال بديع، وأو قصة رائعة، أو شعر مبتكر جديد فهو يكتب على ذلك المكان ثم يخوض في صلب الموضوع. مع أنني أعده وهو يعده سيئة فقراءه الكرام سيعدونها من نعم الله عليهم الخاصة بأن الطنطاوي بحر زاخر، وشخصية موسوعية في العلم والأدب والتاريخ والفقه، فمهما يذكر من قصة أوحكاية أوفكاهة أو شعر لا يخلو من نفع كثير وفائدة جما. يقول عن نفسه معترفا خاطئا: "لقد صار الاستطراد عادة لي، اعترف أنها سيئة[1]". يقول في حلقة عن الكتاب والأدباء عن اتباع طريق الجاحظ في الإستطراد "...وهذا كله استطراد على طريقة شيخنا الجاحظ، طريقة نقدتها وأنا سائرفيها، لا أستطيع النجاة منها

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، 10/1.

ولا البعد عنها وخرجت بها من حدود موضوعي[1]". يقول في موضع آخر: "أنا يا سادتي القراء قد تلقيت حكمكم علي بأني أخرج دائما عن الموضوع وأنني أستطرد وأنا اعترفت بالذنب وقبلت الحكم[2]".

ويقول عن نفسه في كتابه من حديث النفس "إن عمادي هذا القلم وإنه لغصن من أغصان الجنة لمن يستحقها، وإنه لحطبة مشتعلة من حطب جهنم، لمن كان أهل جهنم[3]" فكان قلمه قلما مدافعا للحق ذودا عن الباطل فيحق الحق بكلماته الرنانة وأسلوبه الجذاب الأخاذ يسحر القلوب ويأسر العقول بفكره العجيب المبدع والخيال الرفيع الجميل. فقلمه أو مقاله سكينة واطمئنان لبعض واضطراب وقلق لبعض الآخر. وهذا ما نريد أن من كل فرد وكاتب أن نكتب ونقول كلمة حق بدون خوف ووجل أوبدون شر لومة لائم. كان الشيخ علي الطنطاوي أديبا بارعا وصحفيا ممتازا وله معارك أدبية كما سلف ذكرها مع الأدباء والشعراء. وكان قلمه سيفا مسلولا للباطل ولسانه رمحا يطعن بها الأعداء. كان جريئا صريحا صادق القول والعمل ولكن ماكان فاضحا وقحا يتحدث عن الوقاحة والتعري الفاضح في ذكرياته، ومن حيث الأديب الإسلامي لا يناسب له الاعتراف

---

[1] نفس المصدر 28/2.

[2] نفس المصدر 46/3.

[3] علي الطنطاوي، من حديث النفس، ص 90.

المتحرر من القيد الأخلاقي، يتلذذ صاحبه بذكر الفضائح والوقائح كما هي عادة الغرب. فهو يقف موقفا إسلاميا ويقول: "مقارفة المنكر جريمة أخلاقية، والحديث عن مقارفته، ووصف الوقوع فيه جريمة أكبر منه، ويعلل ذلك بأن في الأول فساد فرد وفي الثاني إعلان عن الفاحشة، وهو فساد أمة[1]".

قد ربي تربية إسلامية وتربية مشائخية، وفي مجتمع إسلامي محافظ على التقاليد الإسلامية فكيف نتوقع من الشيخ من الاعتراف المتحرر من القيد الأخلاقي، فكيف يمكن له أن يقع في أي ورطة وشبكة بعد ما يجتنب زلات المزالق. لأجل ذلك ما وقع في محبة شابة وعشق فاحش. يعترف ويقول: "وإن لم أنصب في عمري شبكة لفتاة (صدقوني) ولا أوقعت حسناء يوما في شرك"[2]

يعترف الشيخ علي الطنطاوي بأنه رجل من رجال العلم والأدب وليس من رجال السياسة والحكم والأمر والأمر والنهي. يقول بكل صراحة ووضاحة:

---

[1] آل مريع، أحمد بن علي، علي الطنطاوي كان يوم كنت، ص 263.

[2] علي الطنطاوي، ذكريات، 27/1.

"أنا يا سيدي لست من أهل السياسة ولا من رجال الحكم. أنا رجل من رجال العلم والأدب، ولكن إن لم أكن على مسرح السياسة فإني في القاعة أسمع وأرى، لست بحمد الله أصم ولا أعشى[1]".

قد رُبِّي الشيخ علي الطنطاوي تربية دينية، فلما كانت الأسرة في ضيق وعسرة ذهب لبحث عن العمل وتوظف في صحيفة بشرط أن يحلل الفيلم وينقد عليه بعد، فرح فرحا شديدا أنه سيرى الفيلم بدون أجرة على كرسي مريح، وعمل شهرا ولكن حينما انقضى الشهر لم يذهب إلى صاحب المجلة لأخذ الأجرة وترك العمل وعاد إلى البيت مع أنه أسرته كانت في أشد حاجة إلى الفلوس والمال. وقد منعته إلى أخذ الأجرة غيرته الدينية أن يأخذ الأجرة لعمل فاسد. يحكي الشيخ جميع الحكاية بكل تفصيل:" كنت أكتب – تحليل الفيلم– في "ألف باء" هذه الفصول وأكتب في موضوعات أخرى فيها وفي "القبس" فحين تكون المقالة وطنية ملتهبة أبعث بها إلى "القبس" وحين تكون هادئة، معقولة أنشرها في "ألف باء".

ولما مضى الشهر الأول، ومد الأستاذ يوسف العيسى يده إلي بالأجرة التي اتفقنا عليها، ألم بي خاطر غريب، هو أن أخذي الأجرة مذلة لي، وسيطر علي هذا الخاطر سيطرة كاملة، فرفضتها.. رفضتها إباء وشمماً..! وأنا وأمي وإخواتي في أشد الحاجة إلى كل

[1] نفس المصدر 65/6.

قرش منها...وعجب مني الأستاذ وألح علي، وعجبت أنا من نفسي ولكني لم آخذها. ولم أعرف إلى الآن لماذا لم آخذها!

تجارب الطنطاوي في مجال التعليم:

وكان الشيخ علي من أقدم المعلمين في عصره، بدأ يعلّم ولم يزل طالبا بأنه اضطر إلى كسب القوت والارتزاق بعد وفاة والده. فله تجربة مفيدة في مجال التعليم، يشارك معنا الشيخ علي الطنطاوي تجربته في مجال التعليم. فعلم الصغار والكبار والبنين والبنات، توظف في المدارس الأهلية والكليات والجامعات، فكان الطلاب يصغي إلى كلامه ودرسه وما كان في فصله شغب واضطراب، معنى ذلك أن الطلاب كانوا يتمتعون خلال تدريسه وتعليمه. يعبر عن تجربته:

"اشتغلت بالتعليم قبل أن أكمل التعليم، فكنت طالبا في أواخر المدرسة الثانوية، ومعلما لصغار التلاميذ في أوائل الابتدائية، لبثت أعلم: علمت صغارا وكبارا، وبنين وبنات، ومشائخ وأفندية، في المدارس العادية والمدارس الشرعية، في الثانويات وفي الجامعات، قبل أن ألي القضاء، ومع ولايتي القضاء، فما شكوت ولله الحمد يوما من اضطراب الفصل، ولا من شغب الطلاب.

كنت أطل على الطلاب بوجهي فأبدأ الكلام، فلا أدع ثغرة ينفذون بكلامهم منها، وأمضي فيه حتى أخرج من الفصل وأنا أتكلم. وكنت أتتبع المناسبات، فلا أمسك النكتة إن حضرت، ولا يؤذيني ضحك الطلاب إن أضحكتهم، ولا أدع مسألة ولو كانت خاصة بي ينفعهم أو يمتعهم سماعها، إلا ذكرتها، وإن مر اسم كتاب رصفت الكتاب، أو اسم عالم عرفت بالعالم، أحافظ على أصل الموضوع. ثم أعلق عليه ما يحتمله من الحواشي والتعليقات والفوائد، لأني عرفت بالتجربة أن الموضوع الأصلي قد ينسى، ولكن تبقى هذه الفوائد والتعليقات والحواشي، وقد نسيت الآن، بعد إكمال الدراسة بستين سنة، نسيت أكثر المنهج الذي كان مقررا، ولكني لأزال أحفظ كلمات قالهن المدرس في بعض المناسبات. ويبقى حبهم إياي ما بقي الامتحان بعيدا، فإذا، حل الامتحان فهي نهاية الحب، وكان شيخنا الشيخ عبد القادر المبارك، رحمه الله يقول: إني أعطي ربع راتب طول عمري لمن يقوم عني بالامتحان[1]".

كانت التجربة بالتعليم الإبتدائي في الشام مختلفة تماما عن تجربته بالتعليم الثانوي العالي في العراق، فقد انتقل من نهر إلى بحر كبير أو من قرية إلى مدينة كبيرة حيث الطلاب يتلهفون للتلقي والتعلم، فظهرت قريحة الشيخ علي الطنطاوي وتدفقت نهره الفياض أن يشرب كل من يأتي إلى باب النهر ليستقي من علمه الغزير. يقول الشيخ علي

[1] علي الطنطاوي، ذكريات،3/ 248.

الطنطاوي: "أرأيتم الذي يملأ مستودعاته بالبضائع النفيسة والتحف القيّمة فلا يجد لها سوقا إلا سوق القرية، ثم تنفتح له الأسواق الكبرى ويقبل عليه الشّارون ويزدحم عليه الناس؟ كذلك كنت لما ذهبت إلى العراق، كل ما حصلته من المطالعات، وما كدّسته في ذهني من المعلومات، وما اختزنته من أفكار ومشاعر، كان مسدوداً عليه الباب، لأنه لم يكن أمامي في الشام إلا تلاميذ الإبتدائية الذي لا يصلح هذا لهم ولا يصلحون ليقلى عليهم. فلما جئت بغداد ووجدت طلابا مدركين يحبون أن يتعلموا ويستطيعون أن يعوا ويفهموا انطلقت نفسي وأخرجت ما كان فيها، فجئت بأشياء لا يجوز لي أنا أن أتحدث عنها (لأن المرء لا يمدح نفسه) فاسألوا عنها من بقى من تلاميذي في تلك الأيام[1]".

علي الطنطاوي، معلم ناجح:

الشيخ علي الطنطاوي يحيطنا علما بأنه كان معلما ناجحا. درس وأفاد في المدارس الإبتدائية والمدارس الثانوية، وألقى المحاضرة في الكليات والجامعات، وبهذه المناسبة يذكر معنى العلم بذكر قول سارطون، ثم يتابع ويسلط الضوء على التعليم والتدريس. وكيف يمكن لشخص أن يكون معلما ناجحا، فليس كل من قرأ علما بدأ يعلمه ويدرسه بل من الواجب عليه الإتقان والإحاطة بكل شيئ. وبهذا الصدد هو يعد نفسه بأنه كان معلما

[1] نفس المصدر 293/3.

ناجحا وأستاذا مقبولا وهي بثلاثة أوجه، لا أريد أن أذكر تفصيلها بقلمي بل من الأحسن والأنسب لنا أن نقرأ النص الخالص الذي كتبه لنفسه يقول:

وأنا أحمد الله على أني كنت معلما ناجحا، لا أقول ذلك عن نفسي وحدي، بل يشهد به تلاميذي على مدى أحدى وستين سنة، منذ بدأت التعليم.

علمت في المدارس الأولية في القرى الابتدائية في المدن، والمتوسطة والثانوية، وعلمت في الجامعات، وفي أقسام الدراسات العليا فيها، وعلمت شبانا، وعلمت في مدارس البنات، وإن كنت استغفر الله مما فعلت ولا أجيز مثله، وعلمت في مدارس المشائخ كما علمت في مدارس الشباب، وكان من أسباب توفيقي ثلاث، أوصي بها من أراد أن يكون معلما ناجحا:

أولها: استيعاب المادة التي يدرسها، والإحاطة بها، والرجوع إلى كل كتاب يصل إليه من كتبها، لا يقتصر على الكتاب المقرر. أما في الجامعة فلا يجوز أبدا أن يقرر للطلاب كتاب بعينه، لا يرجعون إلا إليه، ولا يأخذون إلا منه، ومن يفعل ذلك من الأستاذة يكن معلم مدرسة ابتدائية، لا أستاذ في جامعة.

الثاني: أن يسلك إلى إفهام الطلاب كل سبيل، فإن ساق المسألة بعبارة لم يفهموها، بدل العبارات حتى يصل إلى العبارة التي يستطيعون إن يفهموها، وما دامت مسائل العلم في ذهنه، وكلمات اللغة بين يدية، يسهل ذلك عليه. لما جاءتنا هذه الرياضيات الحديثة، نقل

بعض الأستاذة منا ما قاله فيها غيرنا، فما فهمننا عنهم، وما أحسب أنهم هم فهموا ما نقلوا ، فجاء أخي الدكتور عبد الغني، فشرحها في كتابه، الذي وضعه للطلاب في جامعة دمشق، من أكثر من عشرين سنة، فإذا هي مفهومة واضحة.

أما الشرط الثالث فهو، أن يكون طبيعيا فإن لم يعرف المسألة للطلاب إني لا أعرفها، وإن أخطأ قال لهم إني أخطأت فيها"[1].

تجارب الطنطاوي في مجال الصحافة:

مجال الصحافة صفحة أنيقة في حياة علي الطنطاوي أحبها طوال حياته، وعمل فيها ودخل في باب الصحافة في ريعان شبابه ولم يتركها أبدا، ومعظم مؤلفاته من معطيات الصحافة، كانت المقالات تنشر في الجرائد والمجلات، ثم تطبع بعد الترتيب والتنسيق. ومهنة الصحافة هي من أحب المهن لدى الطنطاوي. عمل في مجلات وجرائد مختلفة في دمشق وخارجها، كما عمل في التلفاز والراديو. وكان الشيخ يأخذ الأجرة الطائلة على كتابة مقالة واحدة. وكان الصحفيون يدفعون المبلغ الهائل لمقالته بأنه كان يكتب في لون جديد وفي قالب جميل تأسر القلوب وتسحر الآذان. يشارك معنا تجربته الصحفية: "على أني لا أريدها حرية مطلقة من كل قيد، فالحرية المطلقة لا تكون إلا للمجنون الذي يفعل

[1] علي الطنطاوي، ذكريات،/236-237

كل ما يريد، وكل حرية لها حد، تنتهي حريتك في الفكر، فإن مست ديننا أو أضرت بأمتنا أو أفسدت أخلاقنا قلنا لها: كلا!.

وقد جربنا الحرية المطلقة في صحافة لبنان، فصار من بعض الصحف سفارات أجنبية، ومن بعض الأقلام معاول للهدم، وجرت علينا ما نرى اليوم ونسمع.

وفي الأشهر الخمسة التي لازمت فيها (فتى العرب) كنت أكتب كل يوم مقالة، منها سلسلة كان عنوانها (أحاديث ومشاهدات) أشرت إليها في الحلقة السابقة من هذه الذكريات فيها مقالات كان عنوانها (إلى مجلس المعارف الكبير) هذه التي جاء مستشار المعارف نفسه، إلى الجريدة ومعه ترجمانه ميشيل السبع، ليكلمني فيها.

أكثر القراء لا يعرفون ماذا كان المستشار؟ كان المستشار هو الوزارة، هو يقضي وهو يمضي، وهو يرفع وهو يضع، الأمر كله إليه، والوزير معه كملكة الإنجليز مع رئيس وزرائها، إلا أن يجيء وزير قوي كفارس الخوري فيسترد منه ما يستطيع استرداده من حقوقه.. فإذا ذهب ما استرده وعاد الأمر كله إلى المستشار.

هذه المقالات في "فتى العرب" ضاعت مني، ما بقي لدي منها إلا أربع، ولو كان يتحقق في الدنيا المستحيل، وخطر على بال أحد يوماً (بعد موتي!) أن يطبع كل ما كتبت، واستطاع أن يجد مجموعة أعداد "فتى العرب" لوجدها فيها[1]".

"من المقالات التي كان لها صدى، وكثر التعليق عليها مقالة كان عنوانها (مسألة الأقليات) التي رددت بها على فايز الخوري، وهو الأخ الأصغر لفارس الخوري، وكان من زعماء (الكتلة الوطنية) ولكن النزعة الصليبية لا تمحى يظهرون التسامح، ونحن متسامحون بل متساهلون ونظهر أحياناً التعصب، ولقد أراد مرة الدخول في الإسلام، وكلمني في ذلك وكنت قاضيا في دوما، ثم تبين أنه هدد بعزمه على الإسلام للخلاص من امرأته، أما أخوه أستاذنا فارس بك (وفائز بك كان أيضا أستاذنا في كلية الحقوق) فقد شهد من لازمه حتى موته أنه مات على الإسلام، والقرائن التي أعرفها تثبت صحة هذه الشهادة، فلقد كان علمه بالإسلام لا يقل عن علم علمائه المبرزين، وكان كلما زاره شيخنا الشيخ محمد بهجة البيطار في مرضه يسأله أن يقرأ عليه القرآن، وأوصى أن يقرأ في مأتمه ونفذت وصيته أسأل الله أن يكون قد مات مسلماً – قلت هذا استطراداً –[2].

---

[1] نفس المصدر 2/16–17.

[2] علي الطنطاوي، ذكريات، 2/21–22.

وله مقالات علمية وأدبية في "فتى العرب" وفي مجلة "الناقد" يتحدث عنهما الشيخ في السطور الآتية وكما يتابع الحديث فيتكلم عن طبقات الصحفيين، ويقسم الصحفيين في طبقات مختلفة، وكما يوضح الفرق بين الكتابة الصحفية والكتابة الأدبية. يفيدنا مزيدا:

"ولي في "فتى العرب" مقالات أدبية كثيرة، منها فصول متسلسلة عنوانها (شعراؤنا المنسيون) تكلمت فيها عن (ابن مفرغ) وغيره ضاعتت فيما ضاع من مقالاتي.

وفي أيام عملي في "فتى العرب" طلب مني الأستاذ أديب الصفدي أن أكتب له شيئاً في "الناقد" وهي مجلة أسبوعية كانت من أوائل المجلات التي صدرت في دمشق، كانت وسطاً بين المجلات الأدبية والمجلات الأخبارية، فكتبت رواية عن (حسن الخراط) نشرت منها فصولاً، كنت أعتمد فيها على الخيال أكثر من استنادي إلى الحقائق، ولم تدعني سلطات الانتداب أتمها، وهذه الفصول في كتابي الذي طبع في تلك الأيام، وأودعته بواكير كتاباتي، وسميته (الهيثميات) لأني كنت أتكنى بـ(أبي الهيثم) وأمضي مقالاتي بهذه الكنية.

كان أديب الصفدي صحفياً لكن لم يكن كاتباً، وكان معروف أديباً ولم يكن صحفياً، وكان الصحفيون طبقات: منهم أدباء اشتغلوا بالصحافة فتجلت فيا بلاغة أقلامهم، وبراعة

أذهانهم، أو علماء ظهرت فيها سعة علومهم، وصحة أفكارهم مثال الأولين: معروف، وأحمد شاكر الكرمي، مثال الآخرين، محمد كرد علي، وعارف النكدي..[1]".

أما الطبقة الثالثة فصحفيون، أتقنوا الكتابة الصحفية ونزلوا عن درجة الكتابة الأدبية، كنجيب الريس، وليس في هذا الكلام انتقاص من أساليب الصحفيين، بل هو تقرير للواقع، ولو استطاع الصحفيون الكتابة بأسلوب الأدباء لما كانوا صحفيين ناجحين، كما أن الأدباء الذين يكتبون الأدب الخالص بأسلوب الصحفيين لا يكونون من الأدباء الموفقين.

ذلك أن لكل مقام مقالاً، وأن البلاغة هي مطابقة الكلام لما تقتضيه الحال، فالصحفي يكتب لعامة الناس، والأديب يكتب للخاصة كلاماً تفهمه (إن قرأته) العامة، والمقالة الصحفية تكتب ليومها، والقطعة الأدبية لليوم وللغد، ولما بعد الغد.

ومن هذه الطبقة صحفيون فهموا (صناعة الصحافة) فأحسنوا فهمها، همهم إرضاء القراء من غير أسخاط الحكام، وأوضح الأمثلة عليها يوسف العيسى صاحب "ألف باء". ولقد كتبت عنده بعد أن تركت "فتى العرب" على أجر اتفقنا عليه[2]".

---

[1] نفس المصدر 2/22-23.

[2] نفس المصدر 2/30.

تجارب الطنطاوي في مجال القضاء:

إن محكمة القضاء محطة ثانية في حياة الشيخ علي الطنطاوي، عمل فيها بكل هدوء وقرار، ومعظم مؤلفاته طبعت في هذه الفترة المريحة المديدة إلى سنوات وعقود. قبل ذلك علم في دمشق ثم سافر إلى العراق ثم انتقل إلى بيروت ثم عاد إلى البيت دمشق، ما كان يخالط عامة الناس وما كان عاداته الاختلاط والمصادقة، كان يحب الانعزال والانفراد، فلما عين قاضيا جعل يلاقي ويشاهد ما لم يكن يعرف من قبل. يحكي لنا تجربته الشيخ علي الطنطاوي فيقول:

"لقد تنقلت في البلاد ورأيت أصنافاً من العباد، ولكني لم أخالطهم ولم أداخلهم، كنت ألقاهم من فوق أعواد المنابر أو من خلال أوراق الصحف والمجلات أو من على منبر التدريس، والذين لقيتهم إنما كان لقائي بهم عارضا، ألامسهم ولا أداخلهم، فلما ولّيت القضاء رأيت ما لم أكن أعرف من قبل[1]".

لما نجح في امتحان القضاء وتم له التعيين قاضيا في النبك (وهي بلدة في جيال لبنان الشرقية) لم يذهب إلى المحكمة للعمل فيها، بل طلب من الوزارة أن تمهله شهرا لاستعداد "لا لألعب فيه وأستمتع، ولا لأسافر وألهو، بل لأواظب في المحكمة الشرعية في دمشق

[1] نفس المصدر 198/4.

حتى أعرف المعاملات كلها، من عقد النكاح، وحصر الإرث، وتنظيم الوصية إلى الحكم في قضايا الإرث والوقف والزواج[1]".

كانت البداية في المحكمة سارة لأنه ذهب بكل استعداد وأسلحة جديدة متعلقة بالقضاء، كان المحامون يرون بأن الطنطاوي قاض ضعيف، فبدأ المعركة الحاسمة وعلت الأصوات حتى علموا جهله ثم حكم الشيخ علي الطنطاوي بكل حزم وحكمة، وعادوا راضين عنه. يقول الشيخ عن تجربته القضائية في المرة الأولى:

"كانت أول قضية قابلتني قضية ضخمة جدا. إضبارتها تعدل في عدد صفحاتها جزأين من القاموس المحيط لا جزءا واحدا، وكان كبار المحامين يأتون من دمشق للنظر فيها، فنظر فيها فبداله أمر لم يكن أحد قد انتبه له... وأصبح الصباح وغدوت على المحكمة، وجاء المحامون الكبار. والمحامون أمام القاضي الجديد كالطلاب الكبار مع العلم الجديد: تكون معركة خفية بين الفريقين، المحامون يريدون أن يعرفوا قوة هذا القاضي من ضعفه، وعلمه من جَهْله وحزمه من لينه. ففاجأتهم بقرار: "سئل الطرفان عن كلامهما الأخير" وهذا القرار إنما يكون بعد استيفاء المرافعات في آخر الدعوى ليعلن بعده ختام المحاكمة ويصدر الحكم.

---

[1] نفس المصدر 166/4.

فتعجبوا واعترضوا عليّ وتعالت أصواتهم، وحسبوا أني قاض ضعيف لا يدري ويقول. ولكني أخذتهم بالحزم وأفهمتهم أن هذا قرار لا يجوز لهم الاعتراض عليه إلا بعد ختام الدعوى، فسكتوا على مضض، ينتظرون ماذا سيكون مني يتوقعون أن يسمعوا قرارا يتخذونه نكتة بينهم، يتندرون به على وزارة العدل التي تقيم في القضاء من لا يعرف أصول القضاء، فإذا القرار... وهكذا انتهت المحاكمة، ونظرت إليهم فإذا هم مثل الذي يصحو من حلم عجيب، وقد تنبّهوا إلى أنهم كانوا يسيرون في طريق لا يوصل، ويضحكون من أنفسهم، ويهنّئونني على هذا القرار. وذهبوا فحدثوا به في الأوساط القضائية في الشام، فكان – والحمد لله – خير ابتداء لعملي في القضاء[1]".

الصدق والصراحة في القول والعمل:

ونحن نجد تجربة صعبة مر بها الشيخ علي الطنطاوي في حياته، يظهر صداقته وجراءته للحق والصدق والعدل، وعاش طيلة حياته مع الحق والصدق بكل إخلاص وإيمان. يكاد يقع الشيخ في فتنة عظيمة وهي فتنة الحب والعشق والهوى وكان شابا يافعا. عرض عليه أستاذ لبناني سليمان سعد أن يلقي درسا على بنته، وهي طالبة شابة فاتنة ذات حسن وجمال، ولم يستطع الشيخ أن يمكن نظره منها، وصار مسحورا بجمالها، ولكن كيف

[1] نفس المصدر 167/4.

درسها؟ وكيف ترك التدريس؟ وعصم نفسه أن يقع في الحرام؟ نتابع النص التالي، يحكي لنا هذه التجربة القاسية ففيها عبرة لمن يعتبر وعظة لمن يتعظ. يقول الشيخ علي الطنطاوي:" ومن أصعب ما مر بي من تجارب في مجال الدروس الخصوصية، تجربة كنت ناسيتها فما حدثتكم حديثها، هي أنه كان في (بوابة الصالحية) مؤسسة أهلية لأستاذ لبناني اسمه (كما أذكر) سليمان سعد، تدعى (كما أظن) الجامعة العربية، سمع بأني أحسن العربية، وأحتاج إلى المال، فعرض علي أن ألقي عنده درسا خاصا، لطالب واحد، بأجر يعتبر كبيرا جدا، فقبلت. وكانت المفأجاة الكبيرة يوم الدرس أن هذا الطالب جاء يحمل معه تاء التأنيث، لم يكن طالبا ولكن طالبة شابة تتفجر شبابا، وتفيض حسنا، تنشر حولها ساحة من الفتنة مثل الساحة المغنطيسية، لم أقدر أن أمكن نظري منها، لأصف وجهها وعينيها، ولكن اللحظة التي لقيت عيناي فيها عينيها، كفت لتقول لي، وأقول لها. ولعلي بالغت في تصوري، ولعل شبابي وكوني لم أجتمع قبلها بفتاة من غير أهلي، وأن في نفسي من العواطف والرغبات ما يكون في نفوس أمثالي من الشبان، لعل هذا هو الذي خيل إلي أني أرى فيها ما رأيت. الخلاصة أني أصبت منها بمثل ما يصيب من يمسه السلك مشحونا بتيار الكهرباء. ووقفت ألتقط أنفاسي، وأرقب أن أفيق من دهشتي، يتقاذفني ميل نفي إلى تدريس هذه الفتاة، مع حاجتي إلى الأجر الكبير الذي عرض علي، وخوفي من الله الذي أسأله أن يبعدني عن طريق الحرام، ومزلات الأقدام. وترددت هل أقول: لا، فأحرم نفسي متعة الجمال والمال. أم أقول: نعم، فأسلك سبيل

الضلال؟ وتمنيت أن أقوى على الرفض فلم أستطعه، ومنعني ديني أن أعلن القبول. وكانت هذا الخواطر تمر في نفسي مر (الفلم) الذي يكر مسرعا، وهما يرقبان الجواب وهو يستحثني عليه، يشجعني على القبول، فقلت: ولكني لا أستطيع أن أدرس الآنسة وحدها. وقد نسيت أن أقول لكم إنها كانت سافرة، يتهدل شعرها على كتفيها، وتبدو ذراعاها، قالا : ولمه[1]. قلت: لأن ديني يحرم هذا علي. قالت: آتي بأخي معي يحضر الدرس. وليتها ما نطقت، فقد كان صوتها فتنة أخرى كامنة فيها، ومن الأصوات ما يفتن ولو نطقت صاحبته بالموعظة والتذكير، وحضر أخوها، ودرستها، والدرس (تصوروا) موضوعة منهاج تاريخ الأدب البكالوريا، الذي يجيء في أوله شعر بشار وأبي نواس، ولو درس الشاب مثل هذه الفتاة أحاديث البخاري لوجد الشيطان مدخلا إلى مجلسهما، فكيف والدرس في غزل بشار المكشوف المفضوح، وشعر أبي نواس؟ درستها أربع حصص أو خمسا، الله أعلم كيف كنت فيها، وإن لم أدر (صدقوني) ما لون عينيها، فأنا كنت الخجلان لا هي، فكنت أتحاشى النظر إليها، على رغبة نفسي فيما أتحاشاه. ثم رأيت أن استمرار الدرس مع غض البصر، ولزوم الاحتشام، ومع ما في النفس من الرغبة الطاغية، نوع من عذاب الدنيا، ونظري إليها ورفع الكلفة معها، وتوثيق الصلة بها، تعريض نفسي لما هو أشد منه عذاب الآخرة. فتركت لها ما بقي لي من (الأجرة) معها،

[1] هذه هاء السكت. (ذكريات)

وهربت منه، وقلبي عندها ولو وضعت في هذه الحالة قصة لكانت من أروع القصص. وأنا قادر على كتابتها، ولكني أكرم شيبتي أن أعود الآن إلى هذا الهراء، وأرحم الشباب من القراء[1]".

إن الشيخ علي الطنطاوي لم يبع دينه بعرض من الدنيا، مع أنه رأى أصحابه وأصدقاءه خاضعا لفكر حزب أوجماعة أو سياسة، وحينما جاء الفرنسيون إلى دمشق أصبح بعض الناس لعبة في أيديهم وباعوا لسانهم وقلمهم وضميرهم. أما الشيخ علي الطنطاوي فهو يقول أنه لم يخضع لحزب وجماعة وسياسة ومستعمر أبدا. يقول بكل صدق وصراحة:

"لا عجب أن يبدل الإنسان في السنة الواحدة رأيا برأي، وعاطفة بعاطفة، فكيف لا تتبدل آرائي وعواطفي، وأنا أكتب في الصحف والمجلات منذ ثلاثين سنة بلا انقطاع؟ علي أن لدي أشياء ما بدلتها قط، ولن أبدلها إن شاء الله، هي أني حاربت الاستعمار وأهله وأعوانه وعبيده دائما، ومجدت العربية وسلائقها وأمجادها وبيانها دائما، وكنت مع الإسلام وقواعده وأخلاقه وآدابه دائما. وقد بلغ ما طبع من كلامي أكثر من عشرة آلاف صفحة، لو نخلتها نخلا ما وجدت فيها بحمد الله سطرا فيه تزلف للظالمين، ولا سطرا فيه

---

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، 2/175-177.

إزراء على العربية، ولا سطرا فيه خروج على الإسلام، وشيئ آخر هو أني ما كنت أبدا في (حزب)، ولا جماعة ، ولا هيئة، وما كان قلمي لهيئة ولا جماعة ولا حزب[1]".

وقائع الطنطاوي:

حينما تحسن معاملة حسنة مع الصغار مع قدرتك عليهم أن تعاقبوهم وتعذبوهم، فتسامحوهم وتلاطفوهم، فهذا هو الأخلاق الحسنة والسلوك الكريم الطيب. مرة وقع مثل هذا مع الشيخ علي الطنطاوي بأنه كان يلقي درسا ومحاضرة في أمر المذاهب الأربعة إذ جعل يناقش طالب معه في مسئلة، فوبّخه توبيخا وأطال لسانه عليه أمام الطلبة، ولكن كان الطالب مصيبا والشيخ مخطئاً، ولكن الطالب المهذب ما رفض وما أنكر على هذا التوبيخ والتنكير بل خضع وأطاع ما قال الطنطاوي. ثم عاد الطنطاوي إلى بيته وراجع الكتاب فوجد نفسه مخطئا وتلميذه مصيبا، فجاء غدا إلى الفصل فاعتذر إلى الطالب وقال له: أنت المصيب وأنا المخطئ. وطلب منه السمح والعفو. واعترف بذنبه وأقر بأنه كان مخطئا والصواب ما كان عليه الطالب. وهذا الاعتراف لم ينقص احترام الطلاب له بل زاد التقدير والتبجيل له. يتكلم عن هذه الوقعة ويتحدث لنا هذه الحكاية ذات عبرة ونصيحة. يقول قاصا: "وقد وقع لي أول قدومي مكة أن جاء ذكر حكم فقهي في مسألة من المسائل في مذهب الإمام أحمد، فذكرت ما أعرفه، فقال لي طالب من الطلاب: أن

[1] علي الطنطاوي، من حديث النفس، ص 7-8.

الحكم في المذهب على غير هذا، فقلت له: درست الفقه في المدرسة المتوسطة، ثم في الثانوية، وأنت لم تتعلم بعد حكم هذه المسألة، وأطلت لساني عليه، وكان مهذبا فسكت، فلما رحت إلى الدار، رجعت إلى كتب الفقه، فإذا الذي قاله هو الصواب، أفتدرون ماذا صنعت؟ جئت من الغد فقلت للطلاب: سمعتم بالأمس ما قلته لأخيكم هذا، وقد تبين لي أني الحق معه، وأنني أنا المخطئ، لذلك أعتذر إليه أمامكم، أعتذر إليه مرتين: مرة لأني خطأته وهو المصيب، ومرة لأنني خالفت أخلاق العلماء، فأطلت لساني عليه، وظلمته بما أسأت به إليه. وقد كان درسا عمليا أفاد الطلاب أكثر مما تفيدهم الدروس النظرية التي ألقيتها عليهم[1]".

ومرة نقدت عليه تلميذته نقدا صريحا ووصفته وصفا مضحكا يضحك عليه كل من يقرأ تلك المقالة والوصفة التي وصفها فيها الشيخ علي الطنطاوي، سخرت منه وهزأت بزيه وشكله وحركاته، ولكن كتبت هذه المقالة كتابة رائعة. ولكن الأستاذ الشيخ علي الطنطاوي لم يغضب عليه ولم ينقص من درجاتها وأرقامها شيئا منتقما منها بعد القراءة، بل أثنى عليها لأسلوبها المبتكر. يظهر بهذه الوقعة أخلاقه الكريمة مع الصغار ومع التلامذة. يقول: "ومما وقع لي، أنني كنت في أواخر الأربعينيات من هذا القرن الميلادي، أدرس – مع اشتغالي بالقضاء – في ثانوية البنات الأولى في دمشق. فكلفت الطالبات في درس

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، 6/237-238.

الإنشاء الذي يدعونه الآن "التعبير" الكتابة في موضع يخترنه بأنفسهن، لا أفرضه عليهن.

وكانت عندي بنت أحسبها شركسية الأصل، صارت الآن كاتبة معروفة في سوريا اسمها نادية خوست، فقالت: أتسمح أن أكتب عنك؟ قلت نعم. فقالت بمكر ظاهر: ولو كتبت عنك ما لا يرضيك ؟ قلت: اكتبي ما شئت، لكن التزمي الصدق وحدود الأدب.

فكتبت قطعه لا تزال عندي بخطها، وقد مر عليها الآن أكثر من ثلث قرن، تصفني فيها وصفا يضحك على كل من قرأه، تسخر مني وتهزأ بزيي وشكلي وحركاتي، ولكن القطعة مكتوبة كتابة جيدة. فماذا صنعت بها؟

أعطيتها الدرجة العالية على أسلوبها، لأنه كان في الحق أسلوبا أدبيا ممتازا، وأحلتها على لجنة التأديب في المدرسة، فاحتجت، فقلت لها: إنك تحسنين الكتابة، لذلك أعطيتك العلامة الكاملة، كما يعطي الذي يصيب الهدف في مباراة الرماية، لكن من يحسن الرماية لا يجوز له أن يرمي الأبرياء، وأن يعتدي على الناس.

ولما أوقعوا عليها العقوبة عفوت عنها، وما كان في نفسي شيء منها، لأنني من تلك الأيام بل من أطول منها قد تعودت على النقد، وألفت الهجاء[1]".

---

[1] نفس المصدر 238/6.

نصائح الطنطاوي:

مما لا ريب فيه أن الشهرة وهم وخيال ليس له في الحقيقة قيمة ولا وزن، ولا تكون الشهرة في الفصيح إلا بمعنى العار والعيب والفضيحة، ولكن ألسنة الناس أدارتها على معنى آخر فبدأ الأدباء ما يفهمه العام. إن الشهرة سراب، الإنسان يجري وراءه ثم حينما وجده لم يكد يراها ما وجد فيجري مرة أخرى. مثله كمثل المستقبل. الإنسان دائما يركض وراءه كل يوم وحينما وصل إليه صار حاضرا، وعاد هؤلاء يعدون وراء المستقبل مرة أخرى. ينصح الشيخ علي الطنطاوي بعد تجربة طوال الحياة. يقول مثل الحكيم الصالح: "إني لأعجب ممن يسعى للشهرة ويراها شيئا جميلا، ما الشهرة؟ هي أن تتفتح عليك الأعين كلها، ويراقبك الناس جميعا فتفقد بذلك حريتك[1]".

في هذا الباب إنه ينصح الطلاب ويرشدهم إلى الطريق المستقيم، الشيخ علي الطنطاوي يترك لنا نصيحة بالعمل، لا بالقول فقط، بل يطبق الأشياء حسبما يقول ويدرس ويعلم. يذهب إلى الميدان الواسع ويأخذ قطعة أرض فيعلم كيف يكون الانتخاب لأرض صالحة للزراعة وكيف يمكن الغرس فيها. واختار منهجا علميا وعمليا تطبيقيا في التعليم. ولكن حينما ترك المدرسة انتهى العمل والتعليم التطبيقي. يقول في هذا الصدد: "لقد نصحت لهم ولم أدّخر وسعاً في تقويمهم وتربيتهم. لم أكن معلّما كالمعلّمين، بل كنت مرشداً

[1] نفس المصدر 205/8.

وناصحا، نبّهت الإيمان في قلوبهم الصغيرة، وما قلت إني غرسته لأن الإيمان مغروس في أعماق كل قلب، وعلمتهم الصدق حتى إن أحدهم يعترف بذنب ارتكبه لم يره عند ارتكابه أحد. وكانت وراء المدرسة قطعه أرض كبيرة تابعة لها مهملة فكلفت التلاميذ انتخاب نفر منهم ليفلحوها ويزرعوها وعلّمتهم كيف يكون الانتخاب فانتخبوا بإشرافي. بدأت منهجا علميّا في التربية وفي التعليم، ولكنهم يدعوني أتمّه.... فانهد البناء كله لما تركته[1]".

إن الشيخ علي الطنطاوي يرى السينما خطرا للشباب مفسدا للأخلاق مدمرا للبنيوية الاجتماعية، فكان الشيخ يقلق قلقا شديدا على هذه الإختراعات الحديثة من السينما والفيديو: "ولقد كنت أرى في السينما (حتى لما صرت أتردد عليها) أجمل ملهاة للشاب، وأخطر ملهاة، وأنها كالسم المحلول في كأس الشراب اللذيذ، لا يكاد يذوقه حتى يسيغه، ثم يألفه فيعتاده فيقضي عليه، فلما جاء "الرائي" رأيناه أخطر علينا منها، لأن السينما لا نرى ما فيها حتى نذهب نحن إليها، والرائي يجيء هو إلينا، ولا سينما لا نحضرها إلا إن حجزنا لنا مكاناً فيها، ولبسنا الثياب الصالحة لها، ودفعنا أجرة الدخول إليها، والرائي نراه في جميع الأحوال بلا تعب ولا مال. فلما جاء (الفيديو) وأنا سمعت خبره وما أقتنيته،

---

[1] نفس المصدر 10/3.

هان علينا أذى السينما والرائي، فهل تأتينا الأيام والليالي بمصيبة جديدة يهون معها (الفيديو؟)[1]".

المبحث الثالث: "ذكريات" من حيث الموضوع والأسلوب

حلم تدوين "ذكريات":

تدوين الذكريات كان حلما من أحلام علي الطنطاوي وأملا في قلبه فظل هو يقلقه ويؤذيه حتى أراد مرة ودعا الله أن يهب له فرصة لكتابة الذكريات بدلا من كتابة جميع المؤلفات والمقالات. وكم مرة طاف بخاطره هذا الخيال للتأليف ذكريات نصف قرن. ولِم لم يتخيل هذا؟ ولِم لا يكون هذا مع الطنطاوي؟ مع أنه كان أديبا موهوبا وعالما موسوعيا شاهد تقلبات الزمان وعاصر علماء العصر، وجالس الساسة والقادة والدعاة والأدباء. وكان شاهد عيان للقرن العشرين من بداية العهد إلى نهايته، فقد عُمّر طويلا ومات وكان عمره تسعين سنة تقريبا، ولد فما كانت في العالم العربي كله سيارة ولا قاطرة ولا طيارة ولا كهرباء. وقضى من عمره عصرا لا يكاد يسع للإنسان أن يعيش بدون هذه الرفاهيات. كان يعيش في بلده ويتردد إلى مدرسته والبلد كان للأتراك، ولم يلبث أن جاء إليه الفرنسيون المستعمرون والإنجليز معا، وسيطروا على الأوضاع والظروف وآل الأمر كله

---

[1] نفس المصدر، 31/2.

إلى أيديهم. وكان طفلا ذكيا صغيرا لا يدري سوى فلسفة الإسلام شيئا، ولم يمض من عمره إلا بضع سنوات حتى فشت وطمت العلمانية والشيوعية والديمقراطية. وكما ندري أن الشيخ مارس الصحافة منذ عنفوان شبابه إلى وفاته، وندري أن الصحفي يكون خبيرا بزمانه حكيما بعصره ومصره. ودرّس وعلّم وكان معلما ناجحا مقبولا بين الطلاب وطاف البلاد العربية للتدريس والتعليم فدرّس في الشام والعراق ولبنان والسعودية وترك آلافا من الطلاب والتلامذة والباحثين. وندري هذه الحقيقة الناصعة أن من الواجب للمدرس الناجح أن يكون ماهرا في علومه وفنونه، وكان الشيخ الطنطاوي من أقدم المعلمين والإذاعيين، كان لايزال يدرس ويعلم إلى أن درج إلى كرسي القضاء، وندري أن القاضي يحاكم إلى جميع أنواع القضايا من السياسة والاقتصاد والاجتماع والدين والدنيا ويأتي إليه جميع ألوان المشاكل، وهو يحل العقد واللغز. فإلى أين يذهب الشيخ الطنطاوي بهذه التجارب والخبرات لو لم يكتب الذكريات ويضع هذا كله في كتاب، بأن الكتاب وعاء يضع الأديب والفيلسوف نتاجه ونظريته وتجاربه. أعتقد أن هذه الأفكار والتجارب كانت تعذّبه وتقلقه وتدفعه إلى الكتابة، ولكن كان يؤجل ويؤجل كما كان دأبه وعادته، ومرت السنون بإثر السنين حتى وجد حافزا وداعيا إلى الكتابة في صورة الزهير الأيوبي وكان في سنة

1981م، يريد أن يقنع الشيخ بنشر ذكرياته أو مذكراته في مجلته "المسلمون"، وكانت المجلة حديثة العهد آنذاك[1].

قصة كتابة "ذكريات" ونشرها في "الشرق الأوسط":

يتحدث الشيخ الطنطاوي عن بداية كتابة الذكريات: "ثم أحالتني الأيام على التقاعد، فودعت قلمي كما يودع المحتضر، وغسلته من آثار المداد كما يغسل من مات، ثم لففته بمثل الكفن وجعلت له من أعماق الخزانة قبرا كالذي يدفن فيه الأموات. حتى جاءني من سنة واحدة أخ عزيز، هو في السن صغير مثل ولدي، ولكنه في الفضل كبير، فما زال بي يفلتني في الذروة والغارب (كما كان يقول الأولون) يحاصرني باللفظ الحلو، والحجة المقنعة والإلحاح المقبول، يريدني على أن أعود إلى الميت فأنفض عنه التراب وأمزق من حوله الكفن، وأنا أحاول أن أتخلص وأن أتملص، حتى عجزت فوافقت على أن أكتب عنده ذكرياتي. فيا زهير: أشكرك، فلو لاك ما كتب[2]".

وكان الشيخ ينوي أن يسجل ذكرياته باسم "ذكريات نصف قرن" ولكن حينما جاءت فكرة التأليف في بداية الأمر، كان الأمر كذلك والأمر يصدقه وكان الإطلاق بهذا

---

[1] نفس المصدر، ص 126.

[2] نفس المصدر، ص 126.

الاسم صادقا حقيقيا، ولكن حينما تأجل وبدأ التسويف حتى وصل إلى عتبة الثمانينات وجاوز نصف القرن بكثير من السنين، فترك إصدار الكتاب بهذا الاسم وعدل عنه إلى أن سمّاه "ذكريات علي الطنطاوي".

ومن الجدير بالذكر لنا أن الأديب إبراهيم سرسيق جاء للقاء الشيخ الطنطاوي فالشيخ بدأ يحدثه ويملي عليه ذكرياته وأحاديثه وهو يكتبها ويحررها، فكتُبت حلقتان ونشرتا، وكانت البداية مشرقة. لأن المدير قد سهّل له الأمر، ونشرت حلقتين من الذكريات في مجلة "المسلمون"، ولكن بعد ذلك عاد النشاط إلى الشيخ الطنطاوي ودبت فيه الحماسة فتحول هو بنفسه إلى الكتابة. وكما يُقال لا يحُك جسمك مثل ظفرك، فشرع حك بدنه بظفره الخاص لا بظفر غيره، وراح يلقي على القرطاس ما كان في وعائه من متاع وسلاح وأفكار وتجارب. وبعد قليل قدر الله له التوفيق أن يخرج من نطاق ضيق إلى ميدان فسيح واسع وجعل ينشر ذكرياته هذه المرة في جريدة عربية شهيرة باسم "الشرق الأوسط" فيكتب حلقة بعد حلقة وينشرها كل يوم الخميس، حتى تقاربت أعدادها ربع ألف حلقة يعني 244، فحسبها كثيرا وبلغ عدد الصفحات نحو ألفين وخمس مئة صفحة، فأعلن أن ينهي عمله ومشروعه وما نفدت كلماته وأقواله، ولكن فهم أن يطوي فراشه قبل أن يمل القراء وراحوا يشكوون منه، فانتهى الكتابة وكتب حلقة أخيرة يوم ذكرى مولده سنة 1409/5/23 هـ الموافق غرة سنة 1989م، فحمد الله تعالى وأثنى عليه بأن

الذكريات كانت في ذهنه ولكن لولا التوفيق منه لما يكملها، وعبر عن شكره وامتنانه لجريدة "المسلمون" التي شرع بها، ولجريدة "الشرق الأوسط" التي نشرت مقالاته فيها، وقدم باقة الشكر والتقدير لدار المنارة التي أخرجت هذا الكتاب.[1]

تعريف بـ"ذكريات":

ومجموعة "ذكريات علي الطنطاوي" مشتملة على ثمانية أجزاء، وفي كل جزء ثلاث مئة صفحة ونيف حتى يبلغ عددها ألفين وخمس مئة صفحة تقريبا من القطع المعتاد، وتحتوي المجموعة على مئتين وأربع وأربعين حلقة منشورة في مجلة "المسلمون" وجريدة "الشرق الأوسط"، وفي بعض الأجزاء من الذكريات نجد ملف الصور للطنطاوي ولإخوانه الصغار وأساتذته وشيوخه وزملائه وأصدقائه الكثير. وهذا الكتاب من منشورات دار المنارة بجدة. وها هي الطبعة الثالثة بين أيدينا لـ"ذكريات".

وفي المقدمة الشيخ علي الطنطاوي يعبّر عن شوقه وحلمه وأمله لكتابة الـ"ذكريات "فهذه ذكرياتي، حملتها طول حياتي، وكنت أعدها أغلى مقتنياتي، لأجد فيها يوما نفسي، وأسترجع أمسي، كما يحمل قربة الماء سالك المفازة، لترد عنه الموت عطشا، ولكن طال الطريق، وانثقبت القربة. فكلما خطوت خطوة قطرت منها قطرة، حتى إذا قارب ماؤها

---

[1] علي الطنطاوي، ذكريات،الجزء الثامن، ص 353-354،.

النفاد، وثقل علي الحمل، وكل مني الساعد، جاء من يرتق خرقها، ويحمل عني ثقلها، ويحفظ لي ما بقي فيها من مائها، وكان اسمه (زهير الأيوبي) [1]".

منهج كتابة "ذكريات":

أما منهج الكتابة وأسلوب الذكريات فهو كما قال الشيخ إنه بدأ هذا العمل شبه المكره، فليس أمامه خطة يسير عليها أو الطريقة المعروفة يسلكها، ولا نهج خاص ينهجها مثل كاتب المذكرات والسير الذاتية، فكان يكتب حلقة ولا يدري ما سيأتي بعدها، فكتب ذكريات بدون خطة ولا نظام وترتيب فهو غريبة الأسلوب عن أسلوب المذكرات والسير والتاريخ، ولذلك إنه أخبرنا في بداية الحلقة الأولى بأنه يكتب ذكريات ولا مذكرات، فالمذكرات دائما عادة تكون مرتبة متسلسلة بناءا على الوثائق المعدة والأوراق المحفوظة، ولكن بعد هذا الاعتراف إنه ما قصر في هذا المجال، بدأ يبين طريقته ومنهجه في كتابة الذكريات بأنه سيسلك مسلك السائح الراحل الذي يسير زائرا متمتعا ينظر هنا وهناك ويصور هذا وذاك، فإن أعجبه المنظر الخلاب يقف أمامه، وإن وجد أثرا قديما بدأ يسأل تاريخه وأبطاله، وحينما يجد شيئا غريبا يحاول أن يحل العقدة ويمتّع الآخرين، فيتمتع معه القراء وينتفع منه الدارسون. ولا يسير الشيخ الطنطاوي ويجري مثل الجندي المقاتل في المهمة العسكرية التي لا يلتفت يمينا وشمالا ولا يتمتع بالمناظر الخلابة والبساتين

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، 5/1.

الباسقة يقول: "هذه ذكريات وليست مذكرات..وأنا لا أحب –في هذه الذكريات– أن أمشي مشية الجندي، بل أسيير مسيرة السائح[1]".

لماذا نقرأ "ذكريات"؟

هناك كتب كثيرة في باب السيرة الذاتية، فكل كاتب شارك همومه وسروره وأفراحه وأتراحه آماله وأحلامه، وتجاربه وخبرته في سيرته الذاتية، فلماذا نقرأ ونهتم بكتاب "ذكريات" لعلي الطنطاوي. فالجواب عنه أن هذا الكتاب سجل أحداث ووقائع كما فيه أحاديث وذكريات عن دمشق وأحوالها وتاريخ مصر وفلسطين وإندونيسيا والهند وباكستان، وهو سجل اجتماعي ففيه ذكر عادات الناس من العرب والعجم وتقاليدهم وطقوسهم، وسجل علمي ففيه ذكر الكتب والكتاب والعلم والعلماء، وهو مجموعة القصص والفكاهات فقد ذكر في الاستطرادات القصص والطرائف والفكاهات لإزالة الملل والسآمة من القراء والدارسين، كما فيه حكم وأمثال ونصائح وعبر. فكيف يخلو هذا الكتاب عن الفائدة والنفع! ولكن الشيخ علي الطنطاوي يطرح السؤال بنفسه نيابة عن القراء. لو يسأل أحد لماذا نقرأ ذكريات؟ وماذا فيه " فكرت أن أقطع سلسلة هذه الذكريات، ثم رأيت أنها لا تخلو إن شاء الله من نفع، وأنها ربما ذكرت ناسيا، أو أوقدت من العزائم خابيا، ورأيت أن مثلي في سني وكبري، لا يطلب منه مثل الذي يطلب من الشباب، وأن لكل موظف وعامل حقا

[1] نفس المصدر 1/9–12.

في التقاعد فلماذا أحرم أنا هذا الحق؟..ذكريات واحد من الناس، كل الذي عمله أنه قرأ وأقرأ، وأنه كتب وخطب، وما أكثر الكتاب والخطباء، وإني لأخجل حين أشغل القراء بنفسي، لذلك أفر إلى وصف أحداث البلد وأخبار الناس[1]".

كما تحدث بنفسه بأنه لا يشغل القراء بالحديث عن ذاته وشخصيته ويفر كثيرا إلى وصف الأحداث والوقائع وهذا أيضا من بعض وجوه الاستطرادات. كما له تجربة في التدريس والتعليم، والخطابة والبيان، وله خبرة في الصحافة المقروءة والمسموعة والمرئية، وكما له مزاولة في القضاء والمحكمة، فمن يقرأ هذه الذكريات ليجد نفسه فيه، ويجد متعة القراءة ولذة الأدب. تعالوا معي الآن كي نعرف ونرى ماذا وضع الشيخ علي الطنطاوي في هذه القربة لسالك المفازة، وفي هذا الوعاء الأدبي، ونقرأ وندرس ونلخص ونستنتج ما قدم الشيخ في ذكرياته وما عرض في أجزائها الثمانية.

موضوعات "ذكريات" في أجزائها الثمانية

ذكريات علي الطنطاوي- الجزء الأول:

يبدأ هذا الجزء من ذكريات من الحلقة الأولى وينتهي بالحلقة الرابعة والثلاثين، وفي المقدمة ذكر كيف بدأ كتابة الذكريات، ومن هم الذين لعبوا دورا ملموسا في إثارة الفكرة

---

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، 116/1.

وتعاونوا في هذا المشروع ودفعوه إلى كتابة الذكريات[1]. يذكر في الحلقة الأولى أسلوبه ومنهجه في كتابة "ذكريات"، ثم يصف بلده دمشق وجبالها وأنهارها وبساتينها، كما يذكر عادات أهل الشام وتقاليدهم وثقافتهم. ثم ينبأنا عن طفولته وذهابه إلى الكتاب ونسير معه حتى ينتقل الشيخ من مدرسة إلى مدرسة، ومن عهد إلى عهد جديد، نرى تحول الحكومة من الأتراك إلى العرب وثم إلى الاستعمار الفرنسيين، ثم نقرأ عن أيامه الخصبة الجميلة في مكتب عنبر[2] والحديث عن أساتذته وشيوخه –وفي آخر الكتاب نلاحظ صور أساتذته وشيوخه–، ثم لا يزال الأمر كذلك والحياة تجري بكل يسر وسهولة حتى ابتلي الشيخ بلاءا حسنا مات أبوه وهو صغير[3]، فترك الدراسة وتحول إلى التجارة لكسب القوت وكان كبيرا في إخوتهم فعليه عبأ الأسرة ونفقتها، فتحول الحياة من يسر إلى عسر ومن سعة إلى ضيق فسعى إلى التجارة لكسب القوت، فلم يلبث فيها إلا مدة قليلة إلى أن عاد إلى الدراسة مرة أخرى[4]، وبعد دراسته الثانوية سافر إلى مصر على دعوة خاله محب الدين الخطيب ولم يقطع سنة إلى أن عاد إلى بلده دمشق، ويتحدث عن نجاحه في البكالوريا

---

[1] علي الطنطاوي، الجزء الأول، ص 5–7.

[2] هي المدرسة الثانوية الوحيدة في دمشق في طفولة علي الطنطاوي، الحديث عنها كثير حتى كتب الشيخ علي الطنطاوي حلقة خاصة تحت عنوان "في مكتب عنبر" في الجزء الأول في ذكرياته.

[3] علي الطنطاوي، الجزء الأول، ص115–123، 141–148،

[4] نفس المصدر، ص1/ 183–189.

وعن شغله الدائم المطالعة وعادته الانعزال عن الناس. كما نقرأ في هذا الجزء عن أسرته وعن أبيه وجده وأمه وأسرة أمه، وفي الأخير يسلط الضوء على الثورة الفرنسية والقصائد عن الثورة وذكرياته عن الحرب العالمية الأولى، وهكذا ينتهي هذا الجزء الأول، وأورد بشكل خاص ذكر إنشاء جمعية الهداية الإسلامية، وذكر التقلبات المختلفة التي واجهها خلال الحياة[1].

ذكريات علي الطنطاوي- الجزء الثاني:

دخل الشيخ علي الطنطاوي في مرحلة جديدة في حياته ولم ينقطع عنها طول عمره وهي مرحلة الصحافة ونشر أول مقال له في الصحيفة، وكان حينذاك ابن السابعة عشرة، وفي هذا الفصل يقف الشيخ علي الطنطاوي ويتحدث قليلا عن الصحافة والصحافيين ويشارك معنا خبرته الصحفية في الجرائد والمجلات. كما نقرأ عن باكورة عمله من مؤلفاته وهي "رسائل الإصلاح" و"رسائل سيف الإسلام"[2]. ثم نرى طفرة جديدة في الشاب علي الطنطاوي حيث يقود المظاهرات ويخاطب المسيرات ويؤلف اللجنة العليا لطلاب سوريا.[3] ولا نزال ننتقل مع الشيخ علي الطنطاوي من جو إلى جو حتى يدخل الشيخ في مرحلة

---

[1] نفس المصدر، 1/265-274، 275-282.

[2] علي الطنطاوي، ذكريات، الجزء الثاني، ص 5-25، 35-43.

[3] نفس المصدر،2/ 51-59.

التدريس والتعليم وراح يطوف ويعلم في المدارس المختلفة من سلمية إلى سقبا ويعلم الصغار والأطفال وفي هذا الباب يبين عن طريق تدريسه وتعلميه. كما يتحدث في هذا الجزء أكبر حادثة في حياته وهي يوم ماتت أمه، كما يتحدث في حلقة خاصة عن أبيه وأمه، ويبكي ويرثي حين ماتت أمه وضاق به ذرعا وجاء يوم عصيب في حياته تحت عنوان "يوم ماتت أمي"[1]. ويسلط الشيخ الطنطاوي في هذا الجزء بالتفصيل على أساتذته وشيوخه وطرق تدريسهم[2]، كما يذكر ذكرياته الخاصة عن الشعر والأدب بعنوان "الشعر والأدب عند أساتذتنا ورفقائنا"[3].

ذكريات علي الطنطاوي- الجزء الثالث:

في هذا المجلد نجد مواقف عديدة للشيخ علي الطنطاوي يتحدث من خلالها لحظة عن التعليم عن تحوله إلى مجلة الرسالة فهو يتكلم عن الصحافة وعن الأدباء في مصر[4] حتى ينتقل إلى سفره ورحلته التي اختارها لاكتشاف الطريق البري من دمشق إلى مكة

---

[1] نفس المصدر، 2/107-134.

[2] نفس المصدر، 2/163-197.

[3] نفس المصدر، 283-292.

[4] علي الطنطاوي، ذكريات، الجزء الثالث، ص 15-25،24-34.

المكرمة،[1] ولم يعد منه إلا بدأ يتحدث عن رمضان ثم ينتقل إلى الرياضة والقوة ثم يتحول إلى الأستاذ والمحدث الكبير بدر الدين الحسني. وكانت النقلات التعليمية قبل ذلك في دمشق ونرى في هذا الجزء نقلة من بلد إلى آخر وهو العراق لغرض التعليم والتدريس. كما نقرأ في هذه الذكريات شهاداته للبيع،[2] وذكرياته للقلم، ومقاله "أنا والقلم[3]" وفي نهاية هذا الجزء نقرأ الحديث والذكريات لبغداد بعناوين "ذكريات بغداد" و"التدريس في بغداد"، و"دروس الأدب في بغداد[4]".

ذكريات علي الطنطاوي- الجزء الرابع:

يبدأ هذا الجزء بدروس الأدب في بغداد، ثم شهر رمضان في بغداد ثم نقرأ عن إيوان كسرى في سر من رأى، ثم ينتقل الشيخ الطنطاوي من بغداد إلى بصرة، ثم يترك العراق ويسافر إلى بيروت ويدرس في كلية الشرعية، ولم يلبث إلى أن يعود إلى العراق ويدرس في المدرسة الغربية في بغداد، ثم نجد إيمانه وغيرته حينما يرفض الدعوة إلى القومية

---

[1] نفس المصدر، 3/53-123،99-158.

[2] نفس المصدر، 3/35-44

[3] نفس المصدر، 3/ 191-202، 233-240.

[4] نفس المصدر، 3/241-317.

فنقلوه إلى كركوك[1]. وبعد برهة يعود إلى سورية فتم تعيينه مدرسا في دير الزور فما لبث قليلا إلى ان انسلك في سلك القضاة ويدخل في باب القضاء والعدل. وهذه نقلة جديدة وصفحة جديدة في حياة علي الطنطاوي، عين قاضيا في دوما، ويعمل ويصلح ما أفسده القضاة والحكام في محكمة القضاء والعدل[2]. ويستطرد كما هو عادته يبدأ حديثه عن الأطباء يهجم مرة ويدافع عنهم أخرى[3] ثم يعود إلى ذكريات موسم الحج، ويذكر القاضي الشهيد، ثم يتحول مرة أخرى إلى محكمة دمشق وإصلاحها وبعض ما صنع وعمل من العمل النافع الخير يذكر، واستطراد نافع آخر وهو ذكريات الحرب العالمية الثانية. وينتهي هذا الجزء باستطراد مرة أخرى وهو بيان"الحياة الأدبية قبل خمسين سنة"[4].

ذكريات علي الطنطاوي- الجزء الخامس:

هذا الجزء الخامس مليئ بالأحداث والذكريات الحلوة والمرة، يبدأ الشيخ علي الطنطاوي هذه الذكريات ببيان الحياة الأدبية قبل خمسين سنة باستكمال الحديث الذي تركه، ثم نقرأ

---

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، الجزء الرابع، ص5-127،

[2] نفس المصدر، 4/161-184، 195-208، 249-300.

[3] نفس المصدر، 4/219-238.

[4] نفس المصدر، 4/301-312.

أحاديثا متنوعة وذكريات أدبية ممتعة، وكتابه[1] المفتوح إلى أحمد أمين[2]. ثم ينتقل فجأة إلى ذكرياته الجزائرية[3] والفلسطينية. ثم نجد أنفسنا مع الشيخ علي الطنطاوي في مؤتمر العالمي في القدس في فلسطين، ثم نسافر معه إلى بغداد وإربل ثم نتوقف في كراتشي وهو يحكي لنا حكاية ممتعة عن الباكستان[4] ويروي قصصها إلى أن يتحول إلى الهند ويروي لنا الحديث الشيق عن دهلي وينثال علينا تاريخ الإسلامي المجيد في الهند وما ترك المسلمون من الآثار الهائلة من المساجد والقلعات والحصون المتينة[5]. كنا نسمع أحاديث الممتعة الحلوة إذ نجد أنفسنا في دمشق وهنا نسمع عن يوم الجلاء في دمشق[6] وذكر الاستعمار وأسلوبهم في إفساد النظام التعليمي والخلقي[7]. ونقرأ صفحات غير قليل عن دفاع الفضيلة ومكرمة الإسلامية ومعركة دروس الديانة في المدارس في الشام، وفي

---

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، الجزء الخامس، ص 5-14.

[2] أحمد أمين، أديب مصري، وكاتب كبير، صاحب السيرة الذاتية "حياتي" الشهيرة، ومن مؤلفاته الذائعة "فجر الإسلام، و"ضحى الإسلام"، و"ظهر الإسلام" توفي 1954م.

[3] علي الطنطاوي، ذكريات، الجزء الخامس، ص 41-66.

[4] نفس المصدر، 5/ 177-212.

[5] نفس المصدر، 5/213-222.

[6] نفس المصدر، 5/223-232.

[7] نفس المصدر، 5/255-274.

نهاية المطاف يذكر الشيخ كيف استقبل الشعب الشامي جمال عبد الناصر يوم الوحدة ووزيره كمال الدين[1].

ذكريات علي الطنطاوي- الجزء السادس:

نرى الشيخ علي الطنطاوي في البداية من هذا الجزء يهز الشعب الدمشقي هزة عنيفة ويخاطبهم مجلجلا وكانت الخطبة عميقة الأثر ظاهرة النتائج كان الشيخ الطنطاوي يدعو فيها الناس إلى الفضائل والمكارم والمحاسن وينهاهم عن المنكرات والفواحش ما ظهر منها وما بطن، ودوّن ملاحظاته هذه بعدما رأى الشبان يرقصون ويهتفون وينغمسون في الملذات والشهوات، حتى قابل الرئيس سراج طويلا عن هذا الموضوع الاجتماعي وقال: إن هذه الأمور خلاف لسلائق عروبتنا وأحكام ديننا[2]. ثم نرى الشيخ الطنطاوي يذهب إلى أداء صلاة الاستسقاء حتى رأى المطر بأم عينيه بعد الدعاء والإلحاح، بعدما كان الناس تاركين لهذه السنة المباكة فأحياها الشيخ الطنطاوي[3]. ثم نقرأ قصة الوحدة والانفصال وأسباب الانفصال بعد الاتحاد ثم نشاهد ذبح صوت الشيخ علي الطنطاوي

---

[1] نفس المصدر، 5/ 283-300.

[2] علي الطنطاوي، ذكريات، الجزء السادس، ص 5-26.

[3] نفس المصدر، 6/27-46.

بطريق الصحف الناصرية[1]. بعد ذلك نعود إلى ذكريات الطيبة رحلة الشرق رحلة إلى الإندونيسيا، فنقرأ قصة دخول الإسلام فيها، والحديث الطويل عن الجهاد الإندونيسيين مع الهولنديين واليابانيين لطلب الحرية والاستقلال. ثم نقرأ جمال جزرها ورونق بساتينها الخضراء[2]، ثم يستطرد الشيخ وجعل يتحدث عن ذكرياته التعليمية وتجاربه التدريسية وطرق تدريس البنات وتعليمهن[3]، ثم يذكر الشيخ ملاحظاته القيمة عن المحاماة والمحامين وعن القضاء والقضاة[4].

ذكريات علي الطنطاوي- الجزء السابع:

قد تحدث الشيخ علي الطنطاوي في هذا الجزء عن القضاء والقضاة وهو يزيد كلامه حول ذكرياته وصوره في المحكمة القضائية،[5] ثم يتناول موضوعات مختلفة تماماعما سبقت من قبل، يعني أسبوع التسلح بالشام[6]، والفتنة التيجانية في الشام[7]، ثم ينتقل إلى

---

[1] نفس المصدر، ص6/57-108.

[2] نفس المصدر، 6/109-108، 131-148، 171-180، 195-232.

[3] نفس المصدر، 6/233-266.

[4] نفس المصدر، 6/ 267-285.

[5] علي الطنطاوي، ذكريات، الجزء السابع، ص5-26.

[6] نفس المصدر، 7/39-62.

[7] نفس المصدر، 7/ 75-84.

أخبار العلم والعلماء في دمشق قبل نصف قرن[1]، ويدخل فيما بعد إلى حلقة خاصة في تصنيف العلوم[2] وأخرى في الفقه والأحوال الشخصية، وهذا الموضوع المهم لنا لأن الطنطاوي وضع هذا القانون، وكان له دور ملموس فيه[3]. فنراه يسافر إلى مصر لأجل هذه القضية في عهد الوحدة، ولهذا القانون كان أثرا بعيد المدى في دمشق. ثم نقرأ بعض الاستطرادات عن ذكريات رحلته إلى أوربا سنة 1970م وخاصة إلى ألمانيا وبلجيكا وهولندا، ونتابع أحاديثه في آخن وفي بروكسل وأهمية الدعوة الإسلامية في هذه البلاد الأوربية. ومقالتان مهمتان جديرتنان بالقراءة وهما "صلاة الجمعة في مسجد بروكسل" وأيام لا تنسى في بروكسل"[4]. أما المقالات والعناوين الأخرى فهي و"خواطر في الحياة والموت ..في هولندا" و"طريق الحج" و"في صحبة الحيوان" هكذا ينتهي هذا الجزء السابع من ذكريات.

ذكريات علي الطنطاوي- الجزء الثامن:

---

[1] نفس المصدر، 7/63-74.

[2] نفس المصدر، 7/95-106.

[3] نفس المصدر، 7/107-128.

[4] نفس المصدر، 7/201-238، 259-280.

بعد استطراد جميل هو يتحدث عن كتاب نصراني الذي ترك أثرا فيه، وعن الرسالة التي كتب الأستاذ أحمد أبو الفتح عن إخوان المسلمين كتابا سائلا لماذا لا يكتب العلماء عن ظلم عبد الناصر على هذه الجماعة؟ فأجاب الشيخ الطنطاوي إجابة مقنعة كافية[1]. ونعود مع الشيخ الطنطاوي إلى حديثه عن القضاء وندخل معه في محكمة النقض ونرافقه برهة هناك ثم نعود معه مودعا هذه المحكمة الشرعية[2]. ثم نشاهد أهم نقلة ورحلة في حياة علي الطنطاوي وهي رحلة إلى المملكة العربية السعودية عام 1963م مدرسا في الكليات والمعاهد–التي أصبحت فيما بعد جامعة الإمام محمد بن سعود، بعدئذ نمضي ونقضي معه سنة كاملة في الرياض، ثم ننتقل إلى مكة المكرمة[3]. وفي هذا الجزء حديث طويل حول صديق الشيخ علي الطنطاوي ألا وهو أبو الحسن علي الندوي[4]. كما نجد فيه تفسيرا لبعض الآيات القرآنية[5]، وذكرياته في كليات والمعاهد، وكلاما نافعا مفيدا عن تعليم البنات، ثم نقرأ خواطره ومشاهداته عن تعليم البنات[6]. أما من باب الاستطرادات فهي

---

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، الجزء الثامن، 5–24.

[2] نفس المصدر، 8/35–80.

[3] نفس المصدر، 8/91–100، 177–186، 197–112، 223–240.

[4] نفس المصدر، 8/101–130.

[5] نفس المصدر، 8/213–222.

[6] نفس المصدر، 8/267–284.

كثيرة، ومنها "لغتكم أيها العرب"[1] و"ذكريات العطلة الصيفية في دمشق"[2] وفي نهاية المطاف وفي الحلقة الأخيرة ذكر المؤلف بعض إصداراته السابقة من "رسائل الإصلاح" و"سيف الإسلام"[3].

أسلوبه في الكتابة:

إن الشيخ علي الطنطاوي كان يحارب الأعداء بالمقالة والمؤلَّف، وكان يطعن الخصام باللسان ببيانه السحر وطعنه، فمهما ألم بالمسلمين ألم أسرع إلى ميدان الصحافة وجعل يهاجم هجمات عنيفة من القلم واللسان، يخدم القلم لكتابة المقالة ويخدم اللسان للمخاطبة الجماهير عبر الراديو والتلفزيون. فكان نضاله بالمقال لا بالسيف وكان سلاحه القلم لا البندقية ولا الرصاص.

"لقد كنت إن ألم بالمسلمين خطب، أحمل سلاحي، وأسرع إلى الميدان، فما لي صرت من القاعدين؟ لم يكن سلاحي الحسام والسنان، وإنما كان القلم واللسان، والنضال بالمقال مثل القتال بالنضال والنبال[4]".

---

[1] نفس المصدر، 8/ 285-302.

[2] نفس المصدر، 8/303-320.

[3] نفس المصدر، 8/345-352.

[4] علي الطنطاوي، ذكريات، 1/115.

إن الشيخ علي الطنطاوي حارب وناضل بالاستعمار وأهله وعبيده دائما، وبقي خادما للإسلام والعرب والعربية وأخلاقه وآدابه. وهاجم على حضارة أهل الغرب وتقاليدهم، فهذا هو أسلوبه في الكتابة والمقالة. "علي أن لدي أشياء ما بدلتها قط، ولن أبدلها إن شاء الله، هي أني حاربت الاستعمار وأهله وأعوانه وعبيده دائما، ومجدت العربية وسلائقها وأمجادها وبيانها دائما، وكنت مع الإسلام وقواعده وأخلاقه وآدابه دائما[1]". ونرى نماذج رائعة لهذه الفكرة الأساسية مزيجة بأسلوبها في سائر الكتاب في "ذكريات".

اتباع الجاحظ في أسلوبه:

والشيخ علي الطنطاوي يعترف بأن الاستطراد والانحراف عن الموضوع المحدد خطأ وسيئ لا يغتفر، ولكنه يرتكبه ويفعله مهما يسنح له الموقع والمقام، ومهما يأتي إلى ذهنه خيال بديع، أو قصة رائعة، أو شعر مبتكر فهو يكتب على ذلك المكان ثم يخوض في صلب الموضوع. مع أن الباحث يعده كما هو يعده سيئة فقراءه الكرام سيعدونها من نعم الله عليهم الخاصة بأن الطنطاوي بحر زاخر، وشخصية موسوعية في العلم والأدب والتاريخ والفقه، فمهما يذكر من قصة أوحكاية أوفكاهة أو شعر لا يخلو من نفع كثير وفائدة جما. يقول عن نفسه معترفا خاطئا: "لقد صار الاستطراد عادة لي، اعترف أنها

[1] علي الطنطاوي، من حديث النفس، ص 7.

سيئة[1]". يقول في حلقة عن الكتاب والأدباء عن اتباع طريق الجاحظ في الإستطراد "...وهذا كله استطراد على طريقة شيخنا الجاحظ، طريقة نقدتها وأنا سائرفيها، لا أستطيع النجاة منها ولا البعد عنها وخرجت بها من حدود موضوعي[2]". يقول في موضع آخر: "أنا يا سادتي القراء قد تلقيت حكمكم علي بأني أخرج دائما عن الموضوع وأنني أستطرد وأنا اعترفت بالذنب وقبلت الحكم[3]".

أسلوبه الأدبي:

كان الشيخ علي الطنطاوي يكتب في أساليب عديدة ولكن الأسلوب الأدبي يغلب على أساليبه المختلفة. فكان أديبا مطبوعا لا كلام فيه ولا ريب في ذلك. وإن من يقرأ هاتين القطعتين الأدبيتين يصدق ما أقول، ففي القطعة الأولى يصور أحوال نفسه وعاطفته حينما فأجأته أن يلقي درسا للشابة الفاتنة الساحرة، والقطعة الثانية تعبر عن عاطفته الصادقة والخيال البديع لبنته التي استشهدت فالشيخ علي يتذكرها ويسقيها كل يوم دموعه شرابا عذبا فراتا. سترى الطنطاوي أديبا موهوبا. تفضلوا بهاتين القطعتين التاليتين:

---

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، 10/1.

[2] نفس المصدر 28/2.

[3] نفس المصدر 46/3.

"وكانت المفأجاة الكبيرة يوم الدرس أن هذا الطالب جاء يحمل معه تاء التأنيث، لم يكن طالبا ولكن طالبة شابة تتفجر شبابا، وتفيض حسنا، تنشر حولها ساحة من الفتنة مثل الساحة المغنطيسية، لم أقدر أن أمكن نظري منها، لأصف وجهها وعينيها، ولكن اللحظة التي لقيت عيناي فيها عينيها، كفت لتقول لي، وأقول لها. ولعلي بالغت في تصوري، ولعل شبابي وكوني لم أجتمع قبلها بفتاة من غير أهلي، وأن في نفسي من العواطف والرغبات ما يكون في نفوس أمثالي من الشبان، لعل هذا هو الذي خيل إلي أني أرى فيها ما رأيت. الخلاصة أني أصبت منها بمثل ما يصيب من يمسه السلك مشحونا بتيار الكهرباء[1]".

"–وفي الدحداح– وجدث ثالث فيه من هو أعز علي منهما، ما عرفت الطريق إليه حتى أقف عليه، وماذا يفيدني إن أقف عليه وقد حال التراب بيني وبين قطعة عزيزة من قلبي أودعت هذا القبر؟ إني لأريق الدمع كل ليلة أسقي بها هذا القبر البعيد في طرف بلاد الألمان، حيث لا يراني أحد، ثم أنتبه فأجد أنه لا الدمع ينفع فيه ولا الأحزان، ما ينفعني ولا ينفعها إلا الرحمة من الله والغفران، فاللهم قد أكرمتها بالشهادة، فارزقها ثواب الشهداء، وارزقناالصبر على البلاء[2]".

---

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، 2/175–177.

[2] علي الطنطاوي، ذكريات،4/105–106.

أسلوبه الخطابي:

في أسلوب الشيخ علي الطنطاوي حماسة دينية وغيرة إيمانية، فمهما تغافل الشعراء عن مهمة راح يوقظهم وينبههم على غفلتهم وسهوهم، ومهما تناسى الأدباء عن اهتمامهم بأمر إسلامي جعل ينذرهم عن عاقبة أمرهم. وهذه العبارة كلها في أسلوب خطابي بليغ. ونجد أمثال هذا الأسلوب الخطابي في كتابه "ذكريات" الكثير.

"كان مما قلت خلال التلبية التي كنا نؤديها لا بهذه النغمة المكررة المعادة الإيقاع، بل بمثل هتاف الجند في المعركة، والضارعين إلى الله في المساجد الذين يراقبون الله، يدعونه مخلصين، واثقين من الإجابة: أين الرجال يا مسلمون؟ أين الأبطال؟ أين أرباب الأموال يمدونهم بأموالهم؟ أي أصحاب المقال ينصرونهم ببيانهم وأقوالهم؟ أين الشعراء ومالهم لا يرسلون القصائد التي تهز هبات القلوب؟ ألا يعلمون أن من الشعر وأن من البيان، وأن من الخطب ما يبعث الحياة في الصخر الصلد، وما يزلزل الجبال الرواسي، وما يلهب أمواج البحر، وما يصنع الأعاجيب، وما يجعل من الأمة الواهنة الخاملة، أمة تقحم الصعاب، وتهجم على الموت؟

فكيف وهذه الأمة محمد: البطولة في دمائها، والشجاعة إرث لها، والعزة من ثمرات إيمانها والنصر معها إن كانت مع الله، ومن كان مع الله فلا يخشى كبيراً لأن الله أكبر من كل شيء.

أين الشعراء؟ هل شغلهم عن هذا الذي نريد عكوفهم على وصف الغيد؟ وهذا الخزى الجديد، الذي سموه شعر (الحداثة) الذي لا يدفع إلى طريق المعالي، ولا إلى ذرى المجد، إنه شعر (الحدث الأصغر) الذي يدفع إلى دخول الحمام للاستبراء منه والاستنجاء."[1]

كان الشيخ علي الطنطاوي يخطب على المنابر لدى مناسبة مولد النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، ويخاطب الجمهور، يذكر ما علق بذهنه من ذكرياته الجميلة في بلد الشام لدى احتفال بمولد النبي، فيقدم أمام الجمهور خطبة تذكارية يظهر فيها أسلوبه الخطابي، يقول فيها:

"إننا قد اجتمعنا هنا لنطمئن إخواننا المسلمين فوق كل أرض، وتحت كل نجم، بأن دين الله لن يغلب، ولن يزول، وأن العاقبة لأهله، ولو مسهم القرح، ونالهم الأذى. إننا قد اجتمعنا هنا لنصرة الفضيلة، ونشر العدل، وإيصال الخير الذي بعث به محمد إلى الدنيا كلها. كان ميلاده نعمة، وسلوكه قدوة، ومبعثه هدى ورحمة، ودينه شمسا ساطعة، اهتدى الناس بهديها، وساروا على ضوئها، فتبارك الله، وبورك الرسول، ونعمت الذكرى. ولد والعالم في ظلام، والناس في ضلال، والحضارة في تقهقر، فعم النور واهتدى الناس، وازدهرت الحضارة. كان الباطل ظافرا والجهل فاشيا والظلم محكما، فلما ولد ظهر الحق، وساد العلم، وظفر العدل فكان مولده رحمة للعالمين، وهدى للناس أجمعين...ألا فلنجدد

[1] نفس المصدر 172/8.

في هذا اليوم إيماننا ولنعاهد على الرجوع إلى ديننا، لنتصافح ولنتناصح ولنكن يدا في الحق واحدة، والله يمن علينا بنصره من عنده، وما النصر إلا من عند الله[1]".

أسلوبه العلمي:

في الأسلوب العلمي هو يتحدث عن مصادر العلم المكتسب وطريق كسبه وأخذه هي الحواس والخيال والعقل. ولكن ما من إنسان يأخذ هذه المعلومات يبقى جاهلا بما وراء المادة والأشياء بما وراء المادة لا يمكن علمه واكتسابه بالحواس والخيال والعقل بل الإنسان يحتاج إلى المصدر التوقيفي أي طريق الوحي كي يعلم الأشياء بما وراء المادة من الجنة والجحيم والعقاب والثواب. "للثقافة أو العلوم مصدران: كسبي، وتوقيفي. وعند الكلام على العلم المكتسب، لا بد من تصور العالم الذي هو الإنسان، والمعلوم الذي هو الكون، وطريق العلم. ومصادر العلم المكتسب وطرقه هي الحواس والخيال والعقل.

فالحواس هي منافذ النفس التي تطل منها على العالم الخارجي، والحس يفيد العلم حتما، فإذا مارى الإنسان فيما يسمع خبره، فلا يستطيع أن يماري فيما يراه أو يلمسه. غير أن الحواس لا تطلعنا على كل شيئ في الوجود. أنا لا أدرك ببصري نملة تمشي على بعد أميال ولا أسمع لها صوتا، مع أن لها وجودا وصوتا. والحواس ربما تخطئ،

---

[1] نفس المصدر 272/1.

كأن ترى بعينك القلم المستقيم الموضوع في الماء منكسرا، أو ترى السراب ماء.والحواس ليست كاملة، بدليل أنهم اكتشفوا حواس غير الخمس المعروف..

ثم يأتي بعد الحواس الخيال. والخيال هو القوة التي تستحضر بها النفس المحسات (أي المحسوسات) عند غيابها، فأنا أستطيع أن أتخيل داري في دمشق وأنا في مكة. أي أنني أرى بعين الخيال كل ما كنت أراه فيها بعين الحقيقة، والخيال أحد طرق العلم، وإن لم يكن يفيد وحده العلم، فالرياضي يتخيل نتيجة المعادلة قبل حلها، والشاعر يتخيل القصيدة قبل أن يتم نظمها، والعالم يتخيل ثمرة البحث قبل أن يكمله.

ثم يأتي العقل، والعقل هو القوة المميزة في الإنسان، وهو طريق العلم الصحيح، غير أن العقل لا يستقل بإدراك الموجودات كلها، لأنه مقيد بالزمان والمكان، فلا يدرك ما وراء المادة. ولأن عمله لا يزيد على ترتيب وتحقيق المعلومات التي جاءته من طريق الحواس، ولأنه محدود لا يتصور غير المحدود (أي اللانهاية) ولذلك يبقى الإنسان على جهل بما وراء المادة، حتى يمنحه الله طريقا آخر للعلم هو:

المصدر التوقيفي أي طريق الوحي. لا الوحي الذي يفهمه الكتاب والشعراء، ويعنون به الإلهام النفسي، بل الوحي الذي هو نزول الملك بمعلومات ليست من عند العقل[1]".

[1] علي الطنطاوي، ذكريات، 7/97-98.

إن الشيخ علي الطنطاوي كان حكيما يعرف ما لا يعرفه إلا الحكماء والعلماء، وكان عالما بخفايا الأمور، وكان أديبا إسلاميا يريد من مقاله وكتابه إيقاظ شعور الناس، وإطلاع الجاهلين، وتنبيه الغافلين. إن النص التالي يخبرنا بأسلوبه العلمي وتجربته المحكنة عن الدنيا والاستعداد للآخرة. "هذه هي الدنيا، فالأحمق من اطمأن إليها، ووثق بدوامها، ولم يحسب حسابا لتداول الدول، وتبدل الأحوال، وظن أن ما نال منها من مال ومجد وسلطان باق له، ما علم أنه لو دام على من قبله ما وصل إليه...

ثم مضى أكثر رفاقنا إلى حيث من مضى لا يؤوب، مضوا ليجدوا ما قدموا محضرا، فإما إلى جنة، وإما إلى نار، فاللهم يا عفو يا من تحب العفو اعف عنا، واختم بالحسنى لنا، ولمن صفى قلبه مع الله، ومد يديه خاشعا، وقال: آمين[1]".

أسلوبه الوصفي:

إن للشيخ الطنطاوي قدرة فائقة على الوصف الدقيق للأشياء والشخصيات والطبيعة، فحينما يصف الشيخ هذه الأشياء فكأنها تراه بأم عينيك ذلك الشيئ، وحينما يصف المنظر الجميل الخلاب مثل الغوطة والبردى تجد الصورة ماثلة أمام عينيك. فإن الشيخ

[1] نفس المصدر 59/1.

يصف الأشياء وصفا دقيقا عميقا يحيط بجميع الجوانب من أقصاه إلى أقصاه. نقدم أمامك نموذجين رائعين أحدهما للشخصية وثانيهما للقطار:

"كان يوسف لوناً آخر ليس من لون معروف، ولا من شكله، فذاك رجل يعيش للأدب وللفن، وهذا رجل كله عقل، ذاك اعتماده على الأسلوب المزوق المزخرف، وهذا اعتماده على الفكرة الصحيحة المقنعة يعرضها بالأسلوب العادي الواضح، ومعروف محدث لبق، ومزاح مؤنس فكه، وإذا غضب كان هجاء كأخبث الهجائين لساناً، ويوسف جاد قليل الكلام عف اللسان[1]".

"وأنا لا أحب السفر إلا في القطار، فإنك تستطيع أن تقوم فيه وتقعد، وإذا نعست قدرت أن تنام، وإذا جعت وكان معك مال قصدت المطعم وأنظف المطاعم عادة وأغلاها، مطاعم القطارات، تأكل والدنيا تمر بك، تمشي أمامك مشي الجند أمام القائد الذي وقف يعرضها (أي) يستعرضها، تبدأ غداءك أو عشاءك في بلد وتنتهي منه في بلد، وإذا وقف الطار في محطة استطعت أن تخرج فتمشي فيها[2]"

---

[1] نفس المصدر 30/2.

[2] نفس المصدر 246/1.

أختم كلامي عن أسلوب الطنطاوي بذكر ما قال الشيخ الدكتور عائض القرني عن أسلوبه وأدبه: "لم أقرأ لأديب ولا لكاتب معاصر أعذب عبارة، وألطف إشارة، وأحسن لفظا وأعظم أسرا، وأبرع كتابة، وأجمل أسلوبا من علي الطنطاوي، لكان مقالته صبح تنفس، أو روض أخضر باكرته صبا باردة أو جنة بربوة أصابها وابل[1]".

أقوال العلماء والأدباء عن الشيخ علي الطنطاوي:

قد أشاد الأدباء والعلماء لفضل علي الطنطاوي على الآخرين، واعترف بفضله وكماله وخدمته للأدب والعلم والدين العلماء الكبار والأدباء المشهورين، نذكر بعض النماذج الرائعة منها. فإن الأستاذ الشيخ أبي الحسن الندوي كان صديقا للشيخ علي الطنطاوي، فاستفاد كلاهما من الآخر. والصديق يعرف الصديق بكل ما فيه من مزايا وعيوب. يقول الشيخ الندوي عن الطنطاوي: "الأستاذ علي الطنطاوي من كبار الكتاب الذين أنجبتهم الأمة الإسلامية في هذا العصر تجمع بين الرشاقة والجزالة، ومحاسن القديم والجديد، وتدل على اقتداره على اللغة وبلاغته في التعبير، ويعتبر في طليعة أدباء العربية ومن أقدر كتابها، وصاحب طريقة وأسلوب فيها[2]".

---

[1] آل مريع، أحمد بن علي، علي الطنطاوي كان يوم كنت، ص 30.

[2] الندوي، أبو الحسن، مختارات من أدب العرب،الجزء الأول، ص 149.

ويقول عن أدبه الشيخ يوسف القرضاوي، وكان بينهما صلة قوية "لقد كان الطنطاوي مشعلا من مشاعل الهداية، ونجما من نجوم التنوير، ولسانا من ألسنة الصدق، وداعية من دعاة الحق، والخير والجمال، وكان يجمع في عظاته بين العلم والأدب، أو بين الإمتاع والإقناع، ويتجلى فيما سطره يراعه من كتب ومقالات[1]". يقول عن أدبه وثقافته الدكتور عبد الرحمن صالح العشماوي في مقدمة على كتاب "تشبيهات علي الطنطاوي": "إنه الشيخ علي الطنطاوي فقيه الأدباء وأديب الفقهاء، صاحب الثقافة الموسوعية، المؤيدة بأصالته العربية الإسلامية، الموشاة بروحه المرحة الأبية ونفسه القنوعة الرضية[2]".

وكذلك أنقل لكم ما يقول عن أدب الشيخ علي الطنطاوي الأستاذ سعود الصاعدي ".. وهو أيضا كاتب وروائي وقاص، يملك أدوات الأديب المكتمل غير أنه ليس بشاعر، ولا فرق بينه وبين الشاعر إلا الوزن الذي هو العمود الفقري للشعر، وما عدا ذلك فكل ما عند الشاعر عنده، بل وأوضح بيانا، وأقوى لغة[3]".

---

[1] مجلة المجتمع، العدد 1710، 2006 ص 40.

[2] الهذيلي، ناصر بن عبد العزيز، تشبيهات علي الطنطاوي، ص 10.

[3] إبراهيم الألمعي، الطنطاوي عناق الفقه والفكر والأدب، مقال، في مجلة الأدب الإسلامي، ص 75.

ويقول الشيخ سعيد الأعظمي الندوي عن الشيخ علي الطنطاوي بأنه الأديب الإسلامي والكاتب الموهوب، خدم الدين الإسلامي بقلمه ولسانه وعلمه: "الأديب الإسلامي الكبير، والكاتب الموهوب الشهير، الشيخ علي الطنطاوي، الذي خدم الدين بقلمه البليغ، ولسانه الفصيح، وعلمه العميق، وفقهه الواسع للإسلام ولحضارته الإيمانية. إنه وقف جميع مواهبه الأدبية، وركز طاقاته العلمية كلها على إبراز مكانة الإنسان المسلم، وتحقيق دوره في بناء الحضارة الإسلامية، وتمثيل الخلافة في أرض الله تعالى، وقد ظل متمسكا بهذا المبدء العظيم في كل حال، يخاطب الضمير المؤمن الحي، وينادي أهل العلم والأدب والمعرفة بكلامه البليغ، لكي يتولوا وظيفتهم التي خلقوا من أجلها، ويؤدوا مسؤوليتهم التي نيطت بهم[1]".

ويقول عنه الشيخ محمد المجذوب الذي لقيه وأجرى الحوار معه يقول عنه: "لا أدري كيف أبدأ الحديث عنه، فهل أنا بحاجة إلى تعريفه للقارئ، وهو الذي قد أصبح بالنسبة إلى قراء العربية وهواة إعلامها بمثابة الذهب في عالم المعادن لا يكاد يجهله أحد...ومع ذلك فلا بد من تقديمه إلى قراء هذا الكتاب، وبينهم من هو أوسع معرفة به مني، جريا مع الطريقة التقليدية التي لا مندوحة عنهافي كتابة التراجم. لقد اشتهر باسم

[1] الندوي، سعيد الأعظمي، علي الطنطاوي فقيد القلم المؤمن، مجلة البعث الإسلامي، العدد 8، ص 3.

علي الطنطاوي، وهو في السجلات الرسمية محمد علي بن مصطفى الطنطاوي[1]". فقد صدق من قال إن الشيخ علي الطنطاوي غني عن التعريف والتعارف، وهو كالمعدن الذهب يعرفه القاصي والداني والصغير والكبير في عالم الأدب العربي.

أقوال الأدباء والعلماء عن "ذكريات":

بأن هذا الكتاب سجل أحداث ووقائع كما فيه أحاديث وذكريات عن دمشق وأحوالها وتاريخ مصر وفلسطين وإندونيسيا والهند وباكستان، وهذا الكتاب سجل اجتماعي ففيه ذكر عادات الناس من العرب والعجم وتقاليدهم وطقوسهم، وهو سجل علمي ففيه ذكر الكتب والكتاب والعلم والعلماء، وهو مجموعة القصص والفكاهات فقد ذكر في الاستطرادات القصص والطرائف والفكاهات لإزالة الملل والسآمة من القراء والدارسين، كما فيه حكم وأمثال ونصائح وعبر. فكيف يخلو هذا الكتاب عن الفائدة والنفع! ففي السطور الآتية نذكر بعض أقوال الأدباء والعلماء عن "ذكريات". فإليكم ما يقول حفيد الطنطاوي مجاهد مأمون ديرانية بعد ذكر جميع مؤلفاته الأدبية والتاريخية والإسلامية ثم يقف عند الذكريات يقول عن هذا الكتاب: " ما أرانا وصلنا إلى هذا الموضع من الكتاب إلا وأنتم تعرفون مبلغ ما شهد الشيخ علي الطنطاوي من تبدل الأحوال وتغير الدول،

---

[1] محمد المجذوب، علماء ومفكرون عرفتهم، الجزء الثالث، ص 189.

ومبلغ ما كان له مشاركة في الوقائع والأحداث تأثيرا وتحريكا، فأين يذهب بهذا كله إن لم يودعه سفر الذكريات؟[1]".

يكتب الدكتور عائض القرني عن الطنطاوي في تقريظ على الكتاب "علي الطنطاوي كان يوم كنت. يتحدث عن الطنطاوي بكل تفصيل: "علي الطنطاوي حضرت دائرة المعارف، وموسوعة الأدب، وجامعة الفنون، فصرت معه في عالم المنقول والمعقول، والقديم والحديث، والنثر والشعر، تقرؤه فإذا الآية والحديث، والقصة والمثل، والبيت والحكاية، والنكتة والخاطرة، يضحك ويبكيك، يطربك ويشجيك، يفرحك ويحزنك، فأنت معه بين بسمة ودمعة ووصل وهجر، وسلم وحرب، يحدثك عن الأنبياء والعلماء، والحكماء والشعراء، والملوك والسوقة، والأغنياء والفقراء، والرجال والنساء، والملائكة والشياطين، يقص عليك أخبار مالك والشافعي، وابن تيمية وابن حزم، وابن سيناء وابن رشد، والفارابي وابن خلدون، والمتنبي وأبي تمام، وفولتير وسارتر، وديكات وكانت، وشكسبير تولستوي، وإقبال وطاغور..وسوف تعترف بتميزه وعمقه وموسوعيته وأصالته[2]".

ويقول الدكتور أحمد بن علي آل مريع معبرا خواطره عن أهمية الذكريات: "أما أهمية الذكريات فإن الباحث لا يبالغ في القول: إن ذكريات علي الطنطاوي لو رزقت شيئا

---

[1] ديرانية، مجاهد مأمون، علي الطنطاوي، أديب الفقهاء وفقيه الأدباء، ص111.

[2] آل مريع، أحمد بن علي، علي الطنطاوي كان يوم كنت، ص 29-30.

من التنظيم والترتيب إبان كتابتها، والجلد في مراجعة م كتب منها وإعادة ترتيبه وتنسيقه قبل تسويقه للقارئ في كتاب لجاءت من أهم وأجل الكتب الأدبية في مجال أدب البحث عن الذات خلال هذا القرن[1]".

خاتمة البحث:

إن الشيخ علي الطنطاوي يعد من كبار الأدباء الإسلاميين الذين أنجبتهم أرض الشام، وكان من جهابذة القرن العشرين ومن الأدباء الممتازين العباقرة حتى لقب بجاحظ القرن العشرين، وأديب الفقهاء وفقيه الأدباء. ومما لا مرية فيه أن من يهتم بأدب علي الطنطاوي يجد نفسه أمام بحر متدفق وماء سلسال وفكر وقاد وأمام عالم من العقول والمنقول والقديم والحديث والنثر والشعر والعلم والأدب. كان آية في البيان يخاطب الجمهور وكأن الطيور على رؤوسهم، وكان معجزة في الأسلوب الأدبي من بدأ بقراءة كتابه لم يكد يدعه حتى يكمل، وكان أستاذا عبقريا وكل من تعلم منه حمده وأثنى عليه وكان صحفيا من الطراز الأول كتب لأكثر المجلات والجرائد في العالم العربي. وكان مذيعا مقبولا ومحبوبا على التلفاز في حين كان يقدم البرامج على الشاشة فالناس على الشارع والطرقات كلهم كانوا يصغون إليه ويستمعون إليه. وكان قاضيا ممتازا حاضر البديهة خبير الطبيعة فكان يحل اللغز والعقد في أوان وثوان.

---

[1] نفس المصدر ص101.

إنه نهل العلوم والمعارف من المناهل المختلفة عن طريق التلقي من المشائخ وأخذ العلوم من المدارس، وجالس كثيرا من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء وحضر مجالس العلم والأدب وحفظ عن ظهر قلب كل ما وقع في يديه من الكتب المتضمنة العلوم والفنون والشعر والنثر والقرآن والحديث والفقه والمعقول والمنقول والبلاغة والبيان والتاريخ والسيرة والجغرافيا والكيميا والفيزياء والأدب العربي. لم يزل طالبا إلى أن اضطر إلى كسب القوت، فاختار مهنة التدريس، ثم تركه واشتغل بالتجارة ولم يلبث إلى أن عاد إلى المدرسة من جديد لأنه لم يخلق لذلك العمل. ثم واصل الدراسة وذهب بعد الثانوية إلى مصر ولم يكمل سنة إلى أن عاد إلى دمشق. مارس الصحافة في مصر مع خاله الكريم وتعلم هذه المهنة وأحبها ونشر أول مقالة 1926م في جريدة "المقتبس" وبعد ذلك لم ينقطع عن الصحافة طوال حياته، فكتب في جريدة "ألف باء" و"فتى العرب" و"الأيام" و"الناقد" و"الرسالة" و"المدينة" و"المسلمون" و"الشرق الأوسط" وكان له دوي في عالم الصحافة والإذاعة، وعلّم ودرّس في الشام ثم في العراق ولبنان والسعودية وتنقل من بلد إلى آخر حتى ترك آلافا من الطلاب، وكان يلقي أمام الطلاب ما كان في ذهنه من علم وفكرة حتى اعترف تلاميذه بفضله وتميزه ونبوغه في الإلقاء والتدريس. إنه لعب دورا ملموسا في وضع مناهج التدريس وإعداد الدروس. كان يعلم هنا وهناك حتى تم تعيينه على كرسي القضاء وبقي على هذا المنصب سنوات عديدة، وكان قاضيا ممتازا، وأصلح في القضاء ما أفسده الناس ووضع قانونا كاملا للأحوال الشخصية، كما كان له يد في

تعديل قانون الأوقاف. لم يزل يعمل في دار القضاء في دمشق ولكن بعد إعلان حالة الطوارئ سافر إلى المملكة العربية السعودية سنة 1963م، وذلك بالرغم من أنه كان ينوي أن يعود إلى بيته ولكن "ليس على تقدير الإله أي تدبير" ولا راد لقضاء الله، وإنه لم يستطع كلما كان يريده. فبقي في المملكة العربية السعودية سنوات وعقود وكان يلقي المحاضرات في الكليات، ثم تفرغ للفتوى ولتقديم البرامج على الشاشة وقدم أطول البرامج في تاريخ المملكة السعودية "نور وهداية" و"مسائل ومشكلات" واستفاد منه الناس وتلمذ عليه من خلال الشاشة التلفازية آلاف من الناس وبقيت هذه السلسلة طوال ربع قرن. ولكن خبا سراج حياته ولبى نداء ربه في عام 1999م.

ترك آثارا خالدة عددها يربو على الأربعين، ومعظم هذه الآثار في مجال الأدبيات والتاريخيات والإسلاميات والذكريات، وهذا الصنف الأخير قد اخترته موضوعا لدراستي وبحثي هذا، وقرأت كتابه "ذكريات" بدقة وإمعان في ضوء فن السيرة الذاتية وأصوله.

وقد اطلعت من خلال دراستي هذه المتواضعة على أن كتاب "ذكريات" للشيخ علي الطنطاوي إنما هو سجل أدبي وتاريخي وعلمي وتربوي وسياسي وثقافي وديني وفقهي. ومن يطالع "ذكريات" مع جميع أجزائه فإنه يجد أن صاحب الكتاب ما اهتم الترتيب والتنظيم من حيث الزمان والمكان والموضوع، ولو رزق المؤلف شيئا من الترتيب

والتنسيق قبل الطباعة أو قبل نشر المقالات لكان الكتاب في أحسن صورة ومن أجود كتب أدبية بين كتب السيرة الذاتية.

هناك كتب كثيرة في باب السيرة الذاتية فكل كاتب يشارك همومه وسروره وأفراحه وأتراحه وآماله وأحلامه وتجاربه وخبرته في سيرته الذاتية فلماذا نقرأ ونهتم بكتاب "ذكريات" لعلي الطنطاوي؟؟ فجواب هذا السؤال يتلخص في أن هذا الكتاب سجل الوقائع التاريخية والاجتماعية والسياسية في عصره، فنجد فيه أحاديث الشيخ الطنطاوي وذكرياته عن دمشق وأحوالها وتاريخ مصر وفلسطين وإندونيسيا والهند وباكستان، وهو سجل اجتماعي ففيه ذكر عادات الناس من العرب والعجم وتقاليدهم وطقوسهم، وهو سجل علمي ففيه ذكر الكتب والكتاب والعلوم والعلماء، وهو مجموعة القصص والفكاهات فقد ذكر في استطرادات القصص والطرائف واللطائف والفكاهات لإزالة الملل والسآمة من قلوب القراء والدارسين، كما فيه حكم وأمثال ونصائح وعبر. فلا يمكن أن يخلو هذا الكتاب من الفائدة والنفع! لأن الشيخ علي الطنطاوي ما تحدث فيه عن نفسه ونشاطاته وأدبه بل خجل أن يتكلم عن نفسه كثيرا لذلك يفر ويضطر إلى ذكر الأحداث والوقائع والتجارب والخبرات والقصص والطرائف والنصائح وهذا أيضا من بعض وجوه الاستطرادات. كما له تجربة في التدريس والتعليم والخطابة والبيان وله خبرة في الصحافة المقروءة والمسموعة والمرئية وكما له مزاولة في القضاء والمحكمة فمن يقرأ هذه الذكريات

فإنه سيجد حديث نفسه فيها ويجد متعة القراءة ولذة الأدب، ويرحل مع الطنطاوي من بلد إلى آخر ويزور إيفل تاور وتاج محل ويقف معه في إندونيسيا ومرة في هولندا وأخرى في باكستان والهند. يقص قصصه مع الأدباء ثم يستطرد في صلب الموضوع ويتحدث عن أسلوب الأدباء القدامى ويتكلم عن أسلوب ابن المقفع وابن العميد والجاحظ والغزالي، ثم يتحمس للغته العربية ويفتخر بالعربية، ويتكلم عن تاريخ الهند إذ يعرج ويهجم على المستعمرين وطريقهم الخبيث، ويتكلم عن الحرب ثم يصف خلالها دمشق ومكتب عنبر.

وإن هذه الاستطرادات قد تعلم الشيخ علي الطنطاوي من أستاذ الأساتذة الجاحظ، فكان يعترف أن الاستطراد عيب ولكنه قد جبل عليه ولم يعد يتركه. يعترف أنه يكاد يقع في ورطة فتاة شابة ساحرة ولكنه ترك فارا منها من خشية الله وكان شابا يافعا آنذاك. كذلك يعترف أن التلميذة نقدت عليه نقدا غير محايدة ولكن ما غضب عليها وما نقص من درجاتها. يعترف أنه كان أستاذا محبوبا ومقبولا ويستشهد بأن تلاميذه يعترفون بفضله وتميزه. ويتكلم بكل صدق صراحة بأنه كان يعمل محللا في السينما ولكن ترك العمل والأجرة مخافة من الله وعاد إلى البيت بعد ما كان في أمس الحاجة إلى القروش. ويخبرنا بكل صدق ولا يخجل بأنه في حين كان صغيرا ومات أبوه فعمل في دكان بقال. وهذه الاعترافات والصدق والصراحة وذكرياته في باب الاجتماع والسياسة والثقافة والأدب والشعر تدل دلالة واضحة على أن هذا الكتاب "ذكريات" من أجود كتب السيرة الذاتية.

نتائج البحث:

- إن البحث يدعم الفكرة بأن الشيخ علي الطنطاوي كان أديبا مطبوعا ويتجلى أدبه وفنه وأسلوبه الخاص من كل سطر وفصل في "ذكريات".
- كما يبرز هذا البحث أهمية "ذكريات" بصفتها سجلا تاريخيا واجتماعيا وسياسيا وتاريخيا وعلميا وفنيا ودينيا وفقهيا وقصصيا وما إلى ذلك.
- وقد تبين من هذا البحث أن "ذكريات" سجل للأحداث والوقائع التي تتعلق بالسياسة والثقافة والاجتماع والتاريخ والأدب والحياة، وسيرته الذاتية تكاد تكون شبه المذكرات.
- وأثبت هذا البحث أن الشيخ علي الطنطاوي ينهج المنهج التاريخي في كتابة سيرته الذاتية ولكن يتغلب على فكرته أسلوبه الأدبي.
- قد تبين من هذا البحث أن الكتاب "ذكريات" في الواقع من التراجم الأدبية من حيث أشكال السيرة الذاتية، كما هو من الصنف الإخباري من الأصناف المتعددة للسيرة الذاتية.
- وقد كشفت هذا البحث النقاب عن الكتاب "ذكريات" شامل أهم الأحداث والوقائع التي طرأت على الشيخ الطنطاوي في معركة الحياة. فيمكننا أن نستخلص العبر والنصائح من هذه الوقائع والأحداث.

- ولقد أثبت هذا البحث أن التماسك بالتسلسل الزمني والتزام به يوجد إلى حد كبير في ذكريات علي الطنطاوي، وهذا الالتزام يعد من واجبات السيرة الذاتية.
- قد توصل هذا البحث أن الشيخ علي الطنطاوي كان صاحب أسلوب خاص فكان يمتاز به عن الآخرين وهو يضاهي في هذا الباب أستاذ الأساتذة الجاحظ، لأجل ذلك لقب بجاحظ القرن العشرين.
- واتضح من البحث أن السيرة الذاتية للشيخ علي الطنطاوي لا يخلو من الصدق والصراحة وهما من القواعد الأساسية للسيرة الذاتية، فالشيخ علي الطنطاوي يقول الحق والصدق بدون التفكر في ما له وما عليه.
- توصل البحث إلى النتيجة أن "ذكريات" مليئة بالاعترافات، فذُكر في البحث اعترافات الشيخ في مجال العلم والقضاء والأدب وغيرها، ولا شك في أن هذه الإعترافات من أهم الركائز للسيرة الذاتية.
- وتبين من هذا البحث أن "ذكريات" لا تخلو في أي حال من الأحوال من الإمتاع القصصي والتحري التاريخي، وهذا يعد من أساسيات السيرة الذاتية.
- وتوصل البحث إلى النتيجة أن الشيخ يستطرد دائما وينتقل من موضوع إلى آخر وهو أمر قد اعترفه عيبه مرارا.

- كما يتبين من هذا البحث أن كتاب "ذكريات" إذا قيس على أساس فن السيرة الذاتية يثبت أنه كتاب قيم ونافع في باب السيرة الذاتية وقد التزم صاحبها بقواعدها وأصولها .
- وفي ضوء ما سبق يمكن القول أن الكتاب "ذكريات" شبه المذكرات.

الإقتراحات العلمية:

يقترح الباحث بعد دراسة متأنية للسيرة الذاتية للشيخ علي الطنطاوي على الباحثين أن يهتموا بدراسة هذا الكتاب القيم النافع بما فيه من أدب رفيع عال وعلم غزير وفير. ويتوصل هذا البحث إلى هذه النتيجة أن الكثير من الموضوعات من هذا الكتاب "ذكريات" لا تزال تتطلب من الباحثين دراسات موضوعية علمية، فإقتراحاتي العلمية والبحثية للأدباء والباحثين تتلخص كما يلي:

- يجب على الباحثين أن يختاروا عنوانا شيقا علميا تاريخيا مقتبسا من الذكريات مثل "القضايا الاجتماعية والسياسية والثقافية في "ذكريات علي الطنطاوي".
- ويجب على الناقدين القيام بدراسة "فن الصحافة وأسلوبه في "ذكريات علي الطنطاوي" دراسة فنية.
- ويمكن للباحث أن يختار موضوعا لأطروحته مثل "الأدب والنقد في "ذكريات علي الطنطاوي".

- كما يجب على الباحثين والدارسين أن يختاروا عنوانا مثل "انعكاسات الحرب العالمية الأولى والثانية وطرق الاستعمار في" ذكريات علي الطنطاوي" دراسة تحليلية".

المصادر والمراجع:

- إحسان عباس، **فن السيرة**، الطبعة الأولى، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، 1994م.
- أحمد الشرباصي، **أمير البيان شكيب أرسلان**، دار الكتاب العربي بمصر، 1963م.
- أحمد أمين، **حياتي**، الطبعة الثامنة، دار كلمات عربية، القاهرة مصر،2011م.
- أحمد شلبي، **موسوعة التاريخ الإسلامي**، الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة المصرية، 1977م.
- آل مريع، أحمد بن علي، **علي الطنطاوي كان يوم كنت، صناعة الفقه والأدب**، الطبعة الثانية، مكتبة العبيكان، الرياض، 1430هـ، 2009م.
- أنيس المقدسي، **الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة**، الطبة الثالثة، دار العلم للملايين، 1980م.
- الجابي، بسام عبد الوهاب، **معجم الأعلام-معجم تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**- الطبعة الأولى، دار الجفان والجابي، 1407هـ 1987م.
- حسين ، محمد كامل، **في أدب مصر الفاطمية**، دار الفكر العربي، القاهرة.

❖ حنا الفاخوري، **الجامع في تاريخ الأدب العربي**، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، دار الجيل بيروت لبنان. 1986م.

❖ ديرانية ، مجاهد مأمون، **فتاوى علي الطنطاوي**، الطبعة الأولى، دار المنارة للنشر والتوزيع، 1405هـ1985م.

❖ ديرانية، مجاهد مأمون، **علي الطنطاوي– أديب الفقهاء وفقيه الأدباء**، الطبعة الأولى، دار المنارة للنشر والتوزيع جدة، 1421هـ 2001م.

❖ الزبيدي، السيد محمد مرتضى الحسيني، **تاج العروس من جواهر القاموس**، الجزء الثاني عشر، الطبعة الأولى، مطبعة حكومة الكويت، 1393هـ1972م.

❖ سامي الدهان، **الأمير شكيب أرسلان، حياته وآثاره**، دار المعارف بمصر، 1960م.

❖ سامي الكيالي، **الأدب العربي المعاصر في سورية**، الطبعة الأولى، دار المعارف بمصر 1959م.

❖ السطوحي، عبد الستار، **الشيخ علي الطنطاوي قاضي القضاة وأديب الأدباء**، الطبعة الأولى، دار الاعتصام للطبع والنشر، القاهرة. سنة الطباعة لم تذكر.

❖ **السنن الترمذي**، رقم الحديث 2192.

❖ سيد قطب، **النقد الأدبي أصوله ومناهجه**، الطبعة الثامنة، دار الشروق، مصر، 1424هـ2003م.

❖ شرف، عبد العزيز، **أدب السيرة الذاتية**، الطبعة الأولى، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، 1998م.

❖ شوقي ضيف، **الترجمة الشخصية- الفن القصصي**، الطبعة الثامنة، دار المعارف، القاهرة، 1978م.

❖ شوقي ضيف، **تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات-الشام**، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة 1990م.

❖ الشيباني، محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد المعروف بابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، المجلد الثالث، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية بيروت، 1407هـ 1987م.

❖ صبري، عبد الفتاح، وعلي عمر، **القراءة الرشيدة، الجزء الرابع**، دار المعارف بمصر.

❖ **صحيح البخاري**، رقم 1037.

❖ عبد الغني، محمد حسن، **التراجم والسير**، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة 1980م.

❖ عبد النور، جبور، **المعجم الأدبي**، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، 1979م.

❖ العقاد، عباس محمود، **أنا**، المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ عباس محمود العقاد، المجلد الثاني والعشرون، السيرة الذاتية1، الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م.

❖ علي الطنطاوي ، **من حديث النفس**، الطبعة الثامنة، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة 1418هـ1998م.

❖ علي الطنطاوي، **بغداد: ذكريات ومشاهدات**، الطبعة الأولى، دار الفكر بدمشق، 1380هـ1980م.

❖ علي الطنطاوي، **تعريف عام بدين الإسلام**، الطبعة الأولى، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة السعودية، 1409هـ 1989م.

❖ علي الطنطاوي، **دمشق صور من جمالها وعبر من نضالها**، الطبعة الثانية، دار المنارة للنشر والتوزيع جدة، 1407هـ 1987م.

❖ علي الطنطاوي، **ذكريات علي الطنطاوي**، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، دار المنارة للنشر والتوزيع جدة، 1422هـ، 2001م.

❖ علي الطنطاوي، **ذكريات علي الطنطاوي**، الجزء الثالث، الطبعة الثالثة، دار المنارة للنشر والتوزيع جدة، 1422هـ، 2001م.

❖ علي الطنطاوي، **ذكريات علي الطنطاوي**، الجزء الثامن، الطبعة الثالثة، دار المنارة للنشر والتوزيع جدة، 1422هـ، 2001م.

❖ علي الطنطاوي، **ذكريات علي الطنطاوي**، الجزء الثاني، الطبعة الثالثة ، دار المنارة للنشر والتوزيع جدة، 1422هـ، 2001م.

❖ علي الطنطاوي، **ذكريات علي الطنطاوي**، الجزء الخامس، الطبعة الثالثة، دار المنارة للنشر والتوزيع جدة، 1422هـ، 2001م.

❖ علي الطنطاوي، **ذكريات علي الطنطاوي**، الجزء الرابع، الطبعة الثالثة، دار المنارة للنشر والتوزيع جدة، 1422هـ، 2001م.

❖ علي الطنطاوي، **ذكريات علي الطنطاوي**، الجزء السابع، الطبعة الثالثة، دار المنارة للنشر والتوزيع جدة، 1422هـ، 2001م.

❖ علي الطنطاوي، **ذكريات علي الطنطاوي**، الجزء السادس، الطبعة الثالثة، دار المنارة للنشر والتوزيع جدة، 1422هـ، 2001م.

❖ علي الطنطاوي، **رجال من التاريخ**، الطبعة الثامنة، دار المنارة، جدة، 1406هـ1986م.

❖ علي الطنطاوي، **صور من الشرق في إندونيسيا**، دار المناارة جدة، 1992.

❖ علي الطنطاوي، **فكر ومباحث**، الطبعة الثالثة، دار المنارة، جدة، 1990م.

❖ علي الطنطاوي، **قصص من التاريخ**، الطبعة الخامسة، دار المنارة، جدة، 1415هـ1995م.

❖ علي الطنطاوي، **مع الناس**، الطبعة الثالثة، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، 1416هـ 1996م.

❖ علي الطنطاوي، **من نفحات الحرم**، دار الفكر بدمشق، 1980م.

❖ علي الطنطاوي، **هتاف المجد**، الطبعة الثالثة، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، 1417هـ1996م.

❖ فواز الشعار، **الموسوعة الثقافية العامة، الأدب العربي**، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت لبنان 1420هـ1999م.

❖ الفيروز آبادي، مجد الدين، **القاموس المحيط**، الطبعة الثامنة، مؤسسة الرسالة، 1426هـ2005م.

❖ القرآن المجيد.

❖ كامل السوافيري، **الأدب العربي المعاصر في فلسطين**، الطبعة الأولى، دار المعارف القاهرة، 1979م.

❖ لويس معلوف، **المنجد في اللغة والإعلام**، الطبعة السادسة، دار الشروق بيروت، 1990م.

❖ مجدي وهبة، **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب**، الطبعة الثانية، مكتبة لبنان، 1984م.

❖ مجمع اللغة العربية القاهرة، **المعجم الوسيط**، كتب خانه حسينية ديوبند.

❖ محمد المجذوب، **علماء ومفكرون عرفتهم**، الجزء الثالث، الطبعة الرابعة، دار الشواف، مصر، 1992م.

❖ محمد كرد علي، **خطط الشام**، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، مكتبة النوري، بدمشق 1983م.

❖ **المسند أحمد** رقم الحديث، 15597.

❖ معجم المعاني، معجم إلكتروني. مادة سيرة.

❖ نبيل راغب، **فنون الأدب العالمي**، الطبعة الأولى، الشركة المصرية العالمية للنشر –لونجمان،1996م.

❖ الندوي، أبو الحسن، **مختارات من أدب العرب**، الجزء الأول، الطبعة السابعة، المكتبة الندوية، لكناؤ، 1999.

❖ الندوي، واضح الرشيد، **أعلام الأدب العربي في العصر الحديث**، الطبعة الأولى، 1430هـ/2009م.

❖ الهذيلي، ناصر بن عبد العزيز، **تشبيهات علي الطنطاوي**، الطبعة الأولى، مكتبة الملك فهد الوطنية، 1432هـ2011م.

❖ وفا، علي وفا، **الاتجاه الإسلامي في أدب علي الطنطاوي**، الطبعة الأولى، مكتبة العبيكان، الرياض، 1432هـ 2011م.

❖ الياقوت الحموي، **معجم البلدان**، المجلد الثاني، دار صادر، بيروت، لبنان، 1397هـ 1977م.

الصحف والمجلات العربية:

❖ **مجلة التلميذ**، العدد فبراير –مارس،الصادرة عن مركز الثقافة الندوية، كشمير، الهند، 2016م.

❖ مجلة فصلية دراسات الأدب المعاصر، السنة الثالثة، العدد الحادي عشر، إيران.

❖ مجلة المجتمع، العدد 1710، 2006. الصادرة من الكويت.

❖ مجلة الوعي الإسلامي، الصادرة من الكويت، علماء وأعلام كتبوا في مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة الكويت.

❖ ملحق صحيفة الجزيرة الصادرة من الرياض، الصفحة الثقافية العدد: 9737.

❖ مجلة الأدب الإسلامي، –عدد خاص عن الشيخ علي الطنطاوي– الصادرة من مكتبة رابطة الأدب الإسلامي العالمية بمكة المكرمة الرياض، العددان الرابع والثلاثون واخامس والثلاثون 1423هـ 2002م.

❖ مجلة البعث الإسلامي، العدد 8، جمادى الأولى، 1420هـ، الصادرة من ندوة العلماء، لكناؤ، الهند.

English References:

- Encyclopedia Britannica, PP.1010, word, biog. 1973.
- F. Reynolds, Dwight, Interpreting the self (Autobiography in the Arabic literary Tradition) p.36-37, University of California Press, California, 2001.
- McDowell, Deborah E. A brief history of autobiography, Research paper, published in New York Times. 19 April, 1998.
- Merriam Webster, word: autobiography, 11th edition, Merriam-Webster, USA, 2004
- Naik, D.G. Art of Autobiography, p. 212, 1st edition, Vidarbha Marathwada Book Company, poona, India, 1962.
- Oxford collocation for Students Dictionary, 1st edition, oxford University press, 2002.
- William Matthews, Ralph, W. Rader, Autobiography, Biography and the novel, pp. 5,University of California Press, Los Angles, 1973.
- William L. Howarth, Some principle of Autobiography, jstore

❖ Said Aly, Abdel Monem, and Feldman, Shai, and others, Arabs Israel-conflict and peacemaking in the middle east, Palgrave Macmillan, UK, 2013.

❖ Tibi, Bassam, Arab Nationalism; A critical Enquiry St. Martin's Press, 1990.

رقم	المحتويات	الصفحة
1	المقدمة	1
2	**الباب الأول: أحوال الشام**	14
3	المبحث الأول: نبذة عن الشام	14
4	المبحث الثاني: الأحوال العامة في الشام	20
5	**الباب الثاني: الشيخ علي الطنطاوي، حياته وآثاره**	46
6	المبحث الأول: ولادته ونشأته	47
7	المبحث الثاني: الشيخ علي الطنطاوي في معركة الحياة	57
8	المبحث الثالث: الشيخ علي الطنطاوي آثاره ومؤلفاته	75
9	**الباب الثالث: فن السيرة الذاتية في الأدب العربي**	97
10	المبحث الأول: فن السيرة الذاتية: لغة ومصطلحا وفنا	98
11	المبحث الثاني: نشأة السيرة الذاتية وأصنافها	113
12	المبحث الثالث: تعريف بمؤلفات الشيخ علي الطنطاوي في مجال	130

	السيرة الذاتية	
13	**الباب الرابع: "ذكريات" من منظور تاريخي**	152
14	المبحث الأول: ذكرياته الاجتماعية	153
15	المبحث الثاني: ذكرياته الثقافية	177
16	المبحث الثالث: ذكرياته السياسية	192
17	**الباب الخامس: "ذكريات" من منظور السيرة الذاتية**	208
18	المبحث الأول: الأدب في "ذكريات"–تراجم العلماء والأدباء	209
19	المبحث الثاني: الشيخ علي الطنطاوي حياته وتجاربه في "ذكريات"– الصنف الإخباري	239
20	المبحث الثالث: دراسة في "ذكريات" من حيث الموضوع والأسلوب	267
21	خاتمة البحث	300
22	المصادر والمراجع	309
23	المحتويات	319

PhD Thesis

"*Zikrayat Ali Tantawi" And Art of Autobiography*: *An Analytical Study*

("Zikrayat Ali Al-Tantawi" Wa Fann Al-Seerah Al-Zatiyah: Dirasah Tehliliyah)

Submitted to Jawaharlal Nehru University in partial fulfillment of requirements for the award of

Doctor of Philosophy

By

Mohd Raihan

Supervisor

Prof. M. A. Islahi

Centre of Arabic and African Studies

School of Language, Literature & Culture Studies

Jawaharlal Nehru University

New Delhi

2017